إدويج دانتيكا

المؤلفة الفائزة بجائزة نويشتاد الدولية للكتاب 2017

كاسر الندى

الكتاب الفائز بجائزة انيسفيلد وولف

ترجمة وتقديم: نورة الخراشي

أثر

كاسر الندى

قصص قصيرة

إدويج دانتيكا

ترجمة

نورة الخراشي

كاسر الندى

كاسر الندى / قصص قصيرة

إدويج دانتيكا

ترجمة نورة الخراشي

الطبعة الأولى 1439 / 2018

ردمك **978-1-947836-17-4**

Copyright © 2005, Edwidge Danticat

All rights reserved

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية.. بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى.. بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

تقديم المترجمة

يُقال إن الغرباء يعرفون بعضهم دون سِمات. قد تجمعهم الفرص أو الحاجة للفهم والتعاطف. غريب الوطن، المكان أو الزمان أو التجربة، في بحث دائم، وربما نسميه تيه، كمن أضاع طريقه. لكن الضياع ليس دائماً مضيعة،وأجمل التجارب تلك التي لا تملك خريطة للدخول إليها أو الخروج منها، فتتركها للأقدار والصدف.

وهذا ما حدث مع هذا الكتاب وهذه الكاتبة على وجه الخصوص، فخلال دراستي للدكتوراه في الترجمة الأدبية، كنت في وقت "ضياعي" أهيم بين صفوف كتب الأدب في مكتبة الجامعة، أصوات الكتاب تناديني خيفة، أصوات كثيرة لا أكاد أميزها، ولا أفهم ما تقول أو ما تريد قوله، ولكن من المؤكّد أنّها كانت تدفعني إلى فعل شيء ما، فكم هي قليلة حيلة الفهم والتعاطف.

تعرفت على إدويج دانتيكا عن طريق الصدفة، في أحد أيام فصل الشتاء القارص، سحبت بلا تركيز كتاب أنثولوجيا أحمر كبير، كان يحتوي على مقتطفات أدبية كانت قد نشرت في مجلة النيويوركر، قلبت صفحات الكتاب الأحمر الكبير، ومررت على الأسماء والعناوين، حتى وصلت لقصة "سبعة" للكاتبة إدويج دانتيكا واستوقفتني.

لم أكن سمعت عن أدويج من قبل ولكن كنت أريد أن أعرف ما قصة الرقم سبعة؟ ربما كان تحيزاً مسبقاً من عقلي اللاوعي الذي ربط بين هذا الاسم وبين رواية "سبعة" للكاتب غازي القصيبي، فبدت لي القصة شيئاً مألوفاً ومؤنساً، وربما فقط لأن رقم سبعة رقم وسيم من وجهة نظري، أو قد يكون الغموض الكبير الذي يلف الأرقام عادة.

بدأت القراءة واقفة، ثم اتكأت، وبعد صفحة أصابني دوار فيه لذة ما، فجلست على أرض المكتبة بين دواليب الكتب العملاقة.

التهمت القصة، وتعلقت بها. وبحثت عن المزيد. عرفت أن هذه القصة جزء من كتاب قد طبع لاحقاً، وأن الكتاب فاز بالعديد من الجوائز وحصل على الانتباه الإعلامي من أناس مشهورين من بينهم أوبرا وينفري، الكتاب أحدث ضجة وجذب الانتباه إلى مواضيعه و أسلوب الكاتبة المتميز.

يعتبر النقاد مثل هذا النوع من الكتب من الأدب الأفريقي الكاريبي، وهو من الآداب الشبه مفقودة في المكتبة العربية. وهذا قد يعد خسارة كبيرة للمكتبة العربية بخاصة لتقارب التجربة الإنسانية الحديثة بين هؤلاء كتّاب والكتاب والقراء العرب، مواضع تركز على التهجير، الحروب الأهلية، الفقد، العلاقات العائلية، الذكرى الغفران والنسيان.

عن العنوان وترجمة العمل

عنوان المجموعة القصصية باللغة الإنجليزية "Dew Breaker" والذي من الممكن أن يترجم حرفياً إلى " فالق الندى"، وهوعنوان يبدو لطيفاً لأنه يحمل معاني الإبكار والصباح. العنوان هو بالأساس تعبيرمترجمة حرفياً إلى اللغة الإنجليزية من الكرايول، وهي اللغة المحلية في هايتي وبعض الجزر

الكاريبية المجاورة. هذا التعبير يعني بلغة أهل البلد الجلاّد.

لا مجال للشك أن الجلاد جزء مهم من الأحداث ولا مجال للشك أن الانفلاق هنا يعني الانكسار، وأن الندى ما هو الا تمثيل لسكينة وطمأنينة النفس في الصباح. كتاب أدويج يعالج مواضيع تمسنا جميعاً في هذا الزمان، المشاعر الانسانية الغير واضحة وعلاقتها بالسياسة والرحيل والغربة. في محاولة لرسم لوحة في محاولة لفهم المجتمع الهايتي في الولايات المتحدة في محاولاته المستميتة للتأقلم مع الحضارة الأمريكية مع الإبقاء على روح الأم والوطن حاضراً.

القصص في هذا الكتاب لا تمثل نسيجا واحداً. كل قصة تمثل حجراً فريداً بلون وملمس مختلف، وكل قصة تسرد الأحداث من وجهة شخصية معينة وتعطى اسماً بينما بقية الشخصيات في القصة عادة يعطون وصف علاقتهم بالشخصية الأساس في تلك القصة. بعض الشخصيات تعاود الحضور في قصص الآخرين.

هذا الكتاب الرائع كتب بيد كاتبة متمكنة، لديها حس وعاطفة وشيء مهم تقوله عن حياة المرأة عامة والهايتية خاصة واضعة قصصها في عالم واقعي بيَّن فقدان الأمل في هايتي اليوم، كيف الوضع صعب جداً على المهاجرين وبخاصة في العالم الجديد- أمريكا.

ربما هذه بداية للجنون

اغفروا لي ما أقول.

فقط

اقرأوا هذا الكتاب

في هدوء... في هدوء

أوسيب ماندلشتام (١٨٩١ - ١٩٣٨)

كاتب وشاعر بولندي من أصول يهودية

1

كِتاب الموتى

رحل أبي.

هويت بحزن على مقعد حديدي يقف أمام رجلين، أحدهما مدير الفندق حيث نقيم والآخر شرطي، كلاهما ينتظر مني أن أوضح ماذا حلّ بأبي.

مدير الفندق - السيد / فلاڤـو ساليناز - كما حُفر على اللافتة خارج مكتبه - لديه عينين ساحرتين بلون أخضر مُشِعّ، لم أر مثلهما من قبل ، خاصة وإن الأمر يتعلّق بشخص ذا لهجة إسبانية من جزر الكاريبية.

أما رجل الشرطة القصير صاحب البطن المستديرة، الضابط بو، فقد كان ذا وجه طفولي وملامحَ فلوريدية ببشرة بيضاء.

سألني وهو يحاول جاهداً أن ينطق اسم عائلتي: "آنسة بينايمي، من أين أنت ووالدك؟"

كانت محاولته في نطق الاسم بالشكل الصحيح ركيكة جداً، لدرجة أنني اعتقدت للحظة أنه كان يتحدث إلى شخص آخر، رغم أنّ الغرفة لم تكن تحمل غيرنا رفقة السيد ساليناز.

ولدت وترعرعت في منطقة فلات-بوش الشرقية من بروكلين، ولم يسبق لي أن زرتُ موطن والديّ. ورغم ذلك، أجبت: "هاييتي" فهي من بين الأشياء الكثيرة التي تمنيت لو شاركتها أهلي.

قال الضابط بو مستنكراً:"أتيتما كل هذه المسافة إلى ليك-لاند من هايتي؟"

قلت: "نعيش في نيويورك، وكُنّا في طريقنا إلى تامبا."

تابع متسائلاً:" ماذا تفعلان؟ هل أنتما في زيارة أحدٍ ما؟"

فقلت: "جئنا لنوصِلَ تمثالاً، أنا نحّاتة وأنحتُ التماثيل."

في الحقيقة أنا لست نحاتة ولا فنانة، ليس بالطريقة التي أود وأرغب. فأنا أقرب لأن أكون مصابة بوسواس قهري يدفعني إلى نحت الخشب حول موضوع واحد فقط، وهو أبي.

تجد عيناي الفنانتان مكتب السيد ساليناز مبالغاً في بهرجته. يغطي الجدران ورق برتقالي وأخضر، ويحد الورق من جوانبه ورقات شجر ذهبية كبيرة على الطراز الفيكتوري القديم، مشابهة للمبنى الذي كنا فيه.

قال السيد ساليناز وهو يرتب ربطة عنقه الخضراء التي تظهر لون عينيه العجيب الساحر: " سوف نبذل قصارى جهدنا."

بدأنا بوصف مختصر عن أبي، فقلت: "خمسة وستون، مئة واثنان وسبعون سنتيمترا، في حوالي الثمانين كيلو جراماً، حافة شعره الأمامية مثلثة، وعيناه بنيتان مخمليتان ..."

قال الضابط بو مقاطعاً:" مخمليتان؟ "

فوضحت: " بني عميق وغني كلون بشرته."

لدى أبي كسر بسيط في أسنانه الأمامية. وقع على وجهه من فوق السرير قبل عشر سنوات. كانت تراوده أحد كوابيس السجن. ذَكَرتُ لهم هذه المعلومة أيضا، الكسر وليس كوابيس السجن. ذكرتُ أيضا الجرح العريض

كالحبل والذي يشق وجهه على الخد الأيمن وحتى زاوية فمه، هذه هي العلامة الجسدية الوحيدة التي بقيت لتُذكِّر بسنوات السجن التي قضاها في هايتي.

قال لي الضابط بو:" أرجوا ألا يضايقك سؤالي، فأنا أتعامل مع كبار السن هنا في فلوريدا وهذا موضوع قد يطرأ كثيراً حين يُفقَد أحدهم، ولكن هل لدى والدك أية أعراض أمراض عقلية أو شيخوخة؟"

جاوبت:" كلا، أبي غير مصاب بالشيخوخة."

سألني الضابط:" هل لديك أي صورة له؟"

لم يحب أبي أن يتصوَّر. لدينا بعض صوره الشحيحة في البيت، وهو يقف بغرابة في مناسبات تخرجي من المدرسة، كان دائما يقف بيني وبين والدتي، وإحدى يديه تغطي جرحه العميق.

كنت آمل أن آخذ له صورا أكثر خلال هذه الرحلة ولكنه لم يسمح لي، ولكن في إحدى محطات الاستراحة على الطريق، اشتريت كاميرا ذات الاستعمال الواحد وصوبتها ناحيته على أي حال. وكالعادة عارضني، ثم وبخني قليلاً وهو يغطي وجهه بكلتا يديه كطفل صغير يحاول أن يحمي وجهه من صفعات. وأعلن أنه لن يأخذ صوراً مجدّداً في ما تبقى من حياته، كان يقول إنه بشع جداً في الصور.

رد الضابط بو على هذا الوصف الطويل والدقيق: " هذا مؤسف حقاً."

ثم أردف: " هل يتحدث الانجليزية؟ هل يمكنه أن يسأل عن إرشادات الطريق؟"

قلت: " نعم!"

سأل المدير سالیناز: "هل هناك سبب يدفع والدك للهرب منك، وخاصة هنا في ليك-لاند، هل تخاصمتما؟"

لم أجرب قبل اليوم أن أسرد قصة أبي بالكلمات، ولكن أول تماثيلي الكاملة عنه كانت السبب خلف هذه الرحلة. طول التمثال ثلاث أقدام من الخشب الكابلي يصور أبي وهو عار وراكع بنصف ركبة على قاعدة طولها نصف قدم. ظهره مقوس كهلال، ونظرة حزينة من عينيه قد ثبتت على أصابعه الطويلة الممتدة من يديه الكبيرتين. بالكاد يكون هذا التمثال إبداعي، تفاصيله غير واضحة أو مهذبة، يكاد أن يكون أقرب للأسلوب التبسيطي، ولكنها كانت المحاولة المفضلة لدي من بين كل محاولاتي لنحت والدي. كانت خلاصة ما جاد به خيالي أيام السجن.

آخر مرة رأيت فيها والدي كانت في الليلة السابقة، قبل أن أغط في النوم. عندما ركنّا سيارتنا المستأجرة في مواقف الفندق، كان الوقت تقريبا منتصف الليل، كل المطاعم في المنطقة كانت مغلقة، ولم يكن هناك ما يمكن فعله سوى الاستحمام والنوم.

قال لي أبي حين رأى غرفتنا الصغيرة: "كأنها الفردوس."

جدران الغرفة مكسوة بنفس اللون الأخضر البرتقالي لمكتب السيد سالیناز وعلى الأرض سجادة بلون الزمرد. قال بصوت عميق وصدئ: "انظري، كا! تبدو السجادة عشبا ممتدّاً تحت أقدامنا."

اختار السرير الأقرب لدورة المياه، خلع عن جسده القطعة العلوية من بذلة رياضية ذات قطعتين، وصفّ أدوات التأنق خاصته على طاولة مغسلة الحمام. بعد ذلك سمعته يترنم بصوتٍ عالٍ كعادته عند الاستحمام.

تفحَّصتُ التمثال متحسسة فوق الغلاف الفقاعي البلاستيكي والتغليف

الورقي لأتأكد أنه مازال قطعة واحدة.

عند صنع التمثال، استخدمت قطعة متآكلة من خشب الماهاغوني، عليها شقوق سطحية ممتدّة على ما نعتبره الآن ظهرا على جسد التمثال. رأيتُ جمالاً يتخلّلُ هذه الشقوق والعيوب، ولذلك لم أبذل أيّ جهد لتسويتها وترقيعها، كانت موطن الجمال في قطعة الخشب، تماما كتلك الجروح التي على وجه أبي. ولكني كنت أيضاً قلقة من أن تبدو هذه الشقوق كزلة هاوٍ، غير احترافية أو غلطة غير مقصودة، أو أن تقسم التمثال إلى نصفين مع تقادم الزمن أو كثرة التنقل. هل سيكون الزّبون راضيا بذلك؟ .

أغلقتُ عينيّ محاولة تخيّل البائع الذي سوف أوصل إليه التمثال: جابريال فونتينو، امرأة من أصول هايتية-أمريكية في سني تقريباً، نجمة برنامج تلفزيوني معروف وجامعة نهمة للقطع الفنية الأصيلة، نشأت جابريال مع صديقتي سيلين بينوا في تامبا، وسيلين زميلة سابقة في المدرسة الثانوية حيث كنت مُدرّسة بديلة للرسم. بناء على طلب مني عرضت سيلين على جابريال صورة لتمثالي الذي أسميته "أب" وأقنعتها بالشراء.

كانت جابريال تقضي ذلك الأسبوع في منزل والديها في تامبا بعيداً عن هوليوود. خطرت لي ولأمي فكرة أنّ أبي الذي يقضي ساعات طويلة في مشاهدة التلفاز في المنزل أو عند حلاق الحي قد يعجبه أن يقابل جابريال. فأخذت إجازة من عملي و رتبت الرحلة.

حين استيقظت فقدت أبي والتمثال. خرجت من الغرفة للشرفة المطلة على مواقف السيارات. كان صباحاً شديد الحرارة وضبابياً، والهواء رطبٌ يحملُ رائحة العشب الاستوائي المقصوص للتو مع زهور الكركديه التي تحف مواقف السيارات بعشوائية. سيارتي المستأجرة اختفت أيضاً، حين استيقظت اعتقدت أنه ذهب ليجلب فطور الصّباح وحين يعود

سوف يعلل سبب أخذه للتمثال معه، ولهذا ارتديتُ ملابسي وانتظرت. شاهدت ما مدته نصف ساعة من الأخبار المحلية، دخنت خمسة سجائر معطرة بالنعناع، بالرغم من أننا كنا في غرفة ممنوعة التدخين، وانتظرت مزيداً من الوقت الذي أخذ مني ساعتين، وبدأت أشعر بالذنب لتأخري في المضي إلى الاستقبال في الفندق كي أستفسر عنه: "هل رأيتم أبي؟"

شعرت بأصابع الضابط بو تربّتُ على معصمي بلطفٍ، وكأنه يحاول أن يقول لي توقفي عن الكلام. كانت رائحته حين اقترب أشبه ببيض مقلي وبنزين، تماماً كرائحة الإفطار في أموكو.

قال لي: "سوف أنشر الخبر بين باقي الشباب في المخفر، وساليناز سوف يبقى في مكتبه، لماذا لا تذهبين لغرفتك في الفندق فربما تجدين والدك هناك؟"

حين عدت إلى الغرفة استلقيت على سرير أبي المبعثر، لا تزال رائحة عطره تفوح من الشراشف، خليط عجيب من الخزامى والليمون، لطالما اعتقدت أنه عطر لاذعٌ بعض الشيء ولكن أبي كان يحبه على أي حال.

قفزت فزعة حين سمعت صوت البطاقة الالكترونية على الباب. دخلت الخادمة، فتاة شابّة من أصول كوبية، ومؤدبة بشكل مفرط، مخفية قلة خبرتها بالإنجليزية بإيماءات مختلفة: ابتسامة واسعة، انحناءة رأسها، حتى أنها ركعت خضوعاً وهي تعود أدراجها للخروج من الغرفة. ذكرتني بسلوك أمي وهي تعمل في صالون تصفيف الشعر مع الزبائن الغير هايتيين. كيف تبدي اهتماماً زائداً لهؤلاء الزبائن، مرغمة نفسها على الضحك على نكت بالكاد تفهمها وتبتسم لإهانات لا تتفطن لها، كل ذلك كي تتفادى أن تجد نفسها مجبرة على الكلام، فهي على علم بعدم قدرتها على قطع الطريق أمام هكذا أشياء.

حين أخذتُ الهاتف كي أتّصل بأمّي في الصالون، كانت الظهيرة في بدايتها. أخبرني أحد الموظّفين أنها لم تعد بعد من القُداس الذي تحضره يومياً. عندما تنتهي من القدّاس، وتجد في انتظارها، يتوجّبُ عليها حينها أن تمرّ عبر اثنتا عشرة شارعا بين الكنيسة والصالون، وإذا لم يكن لديها زبائن فستترك لعمال المحل مسؤولية التكفل بالزوار العابرين، وتذهب هي للمنزل للغداء. هذا الروتين اليومي كان حلم أمي منذ أول يوم لها في الصالون، لطالما تمنت حياة يومية تتسع لقداس أو نزهة طويلة على الأقدام، وأحيانا سيكون خيارها ألا تذهب للعمل بتاتا. وهذا الترتيب سيكون أقرب شعور لها بالتقاعد.

اتصلت على منزل والديّ، أمي لم تكن هناك أيضاً، فتركت رقم الفندق على جهاز الرد الآلي، وقلت: " كلميني في أقرب فرصة، مانمان، الأمر يتعلّقُ بأبي."

ردت على اتصالي بعد الظهر وصوتها يتكسر قلقاً. كنتُ جالسة في غرفة الفندق الضيقة منتظرة أن يحدث شيء ما، أكلت الحلوى ورقائق البطاطس، اشتريتهم من مكينة البيع، ودخنت سيجارة تلو أخرى، وسط غيمات من دخان السجائر كما لو أن هناك قطاراً يعبر. قد يدخل الغرفة أياً من الضابط بو أو السيد ساليناز بخبر مفجع، أو تتصل أمي أو جابريال فونتينو، وجلست أتخيل المواقف تباعاً، فمثلا في وسع أمّي أن تصرخ بشكل هستيري موبخة نفسها وإياي على مجرد التفكير في كون أن فكرة أخذ أبي في هذه الرحلة كانت فكرة جيدة. أو أن تتصل جابريال لتقول إنه ما كان علينا القدوم في هذه الرحلة، كل هذا كان مزحة، وأنها لم تكن ستشتري التمثال على كل حال، خصوصاً إذا تعلّق الأمرُ بتمثال لا أملكه.

وكما توقعت، بدا صوت أمي كما لو كانت تجاهد من أجل إطلاق أنفاسها: " أين بابا؟"

أخبرتها أن تهدأ من روعها وأنه لم يحدث أيّ مكروه لأبي، فقط فقدته للحظات.

سألتني: " وكيف فقدته؟"

أجبتها:" استيقظ قبلي واختفى."

قالت: "كم من الوقت مضى على ذهابه؟"

أستطيع أن أجزم أنها قطعت أرض المطبخ جيئة وذهاباً ، وقبقابها يُطَبّل على بلاطه المكسيكي. أستطيع سماعها وهي تفتح الحنفية وهي تدفع بكأس فارغ لتملأه لأسمعها لاحقا وهي ترتشف الماء وأنا أحدثها:" لقد غاب منذ ساعات من الآن، لا أستطيع أن أصدّق أنّ هذا الأمر قد حلّ بي!"
"هل اتصلتِ الشرطة؟"

يبدو لي أنها قالت ذلك وهي تجلس على طاولة المطبخ، عيناها مغمضتان وأصابعها تفرك جبينها دون توقّفٍ. طقطقت بفمها ثم ترنمت بأحد تراتيل القداس، تراتيل حفظها أبي منها جيداً وأصبح يرددها دائماً في الحمام. أبي الذي لا يذهب للكنيسة سوى في الأعياد.

توقفت قليلاً عن ترنيمها لتقول: "ماذا قالت الشرطة؟"

"أن ننتظر، وبأنه سوف يعود."

سمعت فرقعة قوية على خط الهاتف، كانت أمي تنقر بأصابعها على السماعة مما أحدث لي ألماً طفيفاً في أذني وهي تقول بنبرة واثقة أكثر من نبرة الضابط بو والمدير سالیناز:" سوف يعود، لن يتركك هكذا."

وعَدتُ أمي أن أتصل بها كل ساعة لأخبرها بما استجد، ولكن، كنت أعلم أنها ستتصل قبلي، لذلك اتصلت برقم جوال جابريال فونتينو. أتاني

صوتها كما لو كان منبعثا من تلفاز أو ربّما كان أكثر حريرية وتفرداً وفتنة دون أصوت الضحك الخلفية في الأستوديو.

قال لي أبي مرة ونحن نتابع برنامجها: " إنه من المستحيلات أن تتخيل ممثلة من أصول هايتية لها برنامجاً خاصاً في الإعلام الأمريكي أيّ مكان كان. لقد قطعنا شوطاً طويلاً."

قالت جابريال: " كم هو لطيف منك أن تسافري كل هذه المسافة لتحضري لي التمثال."

تخيلتها في مكان تملؤه أصوات الصيف: أزيز الحصاد، شلالات، حفيف النخيل ولهيب الشموع الكبيرة المضادة للحشرات، ثم انتبهت فجأة إلى أنني أيضاً في مكان مشابه ولكني عاجزة عن الاستمتاع به.

سألتني جابريال: " هل قالوا لك لماذا أعجبت جداً بهذا التمثال؟ إنه بسيط وفخم في آن. إنه يذكرني بوالدي."

لم أكن أحاول أن استقصي عالم الآباء في عملي، ولكن أسعدني جداً أنها أعجبت به وأنه يذكرها بوالدها. فأنا مازلت أسيرة ما يفضّله المشاهير والأغنياء فحتى عندما يعبرون عن رأي بسيط يبدو دائماً أثقل وأعمق مما يفضّله الناس العاديين. إلى الآن لم أستوعب فكرة عدم امتلاكي رقم جوال جابرييل فونتينو، والذي لأجله أقسمت لسيلين أني لن أعطيه لأحد، حتى لأبي.

كانت أفكاري تتردد بين والد جبريال ووالدي حين سمعتها تسأل:" إذاً! متى ستأتين؟ لديك العنوان؟ شاركينا الغداء غداً في حوالي الثانية عشرة؟"

أجبتها:" سوف أكون هناك"

لكني لم أعد متأكدة تمامًا.

يحب أبي المتاحف، وحين لا يعمل في محل الحلاقة، فإنه يذهب لمتحف بروكلين ويزور قسمه التاريخ المصري القديم والذي يعتبر قسمه المفضّل. كان يجد متعة في ترديد هذه العبارة:" المصريون القدماء مثلنا. يعبدون آلهتهم بطرق متنوعة، يتحاربون فيما بينهم وغالباً ما يحكمهم الأجانب." يذكره الفراعنة بالدكتاتوريين الذين هاجروا وتركوا مصر خلفهم، وتذكره الملكات المصريات بجمال جابريال فونتينو. ولكن أكثر ما كان يعجبه في المصريين القدماء هو طريقة حدادهم على الموتى. كان معجباً بطريقة التحنيط التي تأخذ من الوقت بعض الأسابيع ولكن يبقى أثرها لآلاف السنين، كان يقول مبهوراً: "إنهم يعرفون كيف يحزنون."

طيلة حياتي كامرأة بالغة، عجزت عن إيجاد طريقة مناسبة لنحت أبي، رجل هادئ ومنطوي تدب فيه الحياة فقط حين يقف معي صباحات السبت من أيام طفولتي متسمراً أمام الأقنعة الذهبية: الأوشبتي (التماثيل الفرعونية)، ألواح من حجر الأردواز المحفورة، الآلهة إيزيس، نفرتيتي، وأوزيريس إله البعث والحساب.

حين ظهر أبي أخيراً على عتبة باب غرفة الفندق، كانت الشمس قد بدأت تغرب وأمي قد اتصلت مرات عدة. كان يبدو أصغر سنّا، يخيّمُ عليه شعور بالهدوء والرّاحة كما لو أنه قضى يومه يتشمس على الشاطئ.

قال:" الجو هنا مسود من الدخان."

فأشرت له على كأس فيه ماء مصبوغ بلون التبغ تطفو عليه عقبات السجائر.

قال وهو يروح هواء الغرفة بيديه: "كا، دعي والدك يشرح لك بحديث ودي" مشى نحو السرير وانحنى ليحلّ خيط حذاءه الرياضي.

سألته وأنا أشعر بجفن عيني يرجف، وهي عادة ورثتها عن أمي المصابة بصرع مزمن: " أين كنت؟ لماذا لم تترك لي رسالة؟ ويا بابا، أين التمثال؟"

قال وهو يخلع حذائه المليء بالرمل ويدعك قدميه القاسيتين والكبيرتين: " لهذا يجب أن نتحدث، لدي اعتراضات."

كان صامتاً لفترة طويلة مركزاً على دعك قدميه كما لو أنهما كانتا في انتظار هذه اللحظة طيلة اليوم.

ثم قال أخيراً: " أفضل أن لا تبيعي التمثال."

ثم أشاح بوجهه عني والتقط سماعة الهاتف واتصل بأمي، قائلاً بالكرايول:" أعرف أنها اتصلت بك. لقد بالَغَت بالقلق علي، كنت أتمشى وأفكر."

سمعت أمي خلال السماعة توبخه بصوتٍ عالٍ وتحذره من أن يتركني مجدداً بمفردي. حين أغلق السماعة انتعل حذاءه الرياضي.

قلت له وجفناي ترتجفان بشدة تجعلني لا أرى جيداً: "أين التمثال؟"

قال: " لنذهب، سوف آخذك إليه."

مشينا باتجاه مواقف السيارات التابعة للفندق، أين كان بخّاخُ الفندق يرشّ الماء على العشب كما لو كان مطرا وأنوار الشارع مضاءة، وتزداد نورا كلما زاد لون الغروب حولهم، ضيوف جدد للفندق وصلوا للتو، وآخرون يستعدون للذهاب للعشاء، يركبون سياراتهم ويتحدثون بصوت عال مغتبطين.

عندما كان عمري ثماني سنوات، كان أبي مصاباً بالحصبة لأول مرة في حياته سمعته يتحدث مع زبون على الهاتف،" ربما الأمر جِدِّي هذه المرة،

يقول الأطباء أنه في مثل عمري من الممكن للحصبة أن تقتلك."

كانت هذه أول مرة في حياتي أدرك فيها أنه من الممكن لأبي أن يموت، وحتى أنني بحثت عن معنى كلمة "قتل" في كل المعاجم والموسوعات التي في المدرسة في محاولة لفهم معناها الحقيقي. أدركت أنه من الممكن جداً أن يُجتثّ أبي من حياتي.

أوقف أبي السيارة على جانب الطريق السريع بجوار بحيرة صناعية.

من أحد عجائب المدن الاستوائية الحديثة المقاعد الحجرية المحفورة حول برك المياه الآسنة. كان هناك ضوء طفيف يمكن من خلاله أن ترى ما مساحته نصف دائرة، مشى أبي متعثراً على العشب المقصوص بعناية، اتجه نحو أحد هذه الكراسي الحجرية وجلس. جلست بجانبه وتركت ليدي حرية التدلي بين قدمي.

ها أنا مجدداً طفلة صغيرة في نزهة ما مع أبي في رحلة لحدائق الأزهار أو الحيوانات أو القسم المصري القديم في المتحف. وها أنا مجدداً هنا فقط لإشباع رغباته. كنت أعلم أنه كان عليّ أن أتعلم شيئاً من دروس الطفولة، ولكن كان على العمر أن يمضي وعليّ أن أكبر، لأدرك تدريجياً أن أبي كان يفعل ما باستطاعته ليشاركني نفسه ووقته.

أطرقت بنظري باتجاه البحيرة، كانت موحلة ومظلمة، وكان هناك بعض الأسماك الزهرية الكبيرة تقفز منها وإليها. كان يبدوا كما لو أنها تريدُ أن تبادلنا المكان. سألته: " هل التمثال هنا؟"

قال: " في الماء."

قلت بهدوء:" حسنا."

كنت أعلم يقيناً أنني هُزمت. أعلم أن التمثال قد تلف. قد تكون الشقوق امتلأت بالماء مما ضغط على الخشب لينقسم قطعاً ويغوص أكثر. كل ما أستطيع أن أفكر به غير مفهوم، فقلت:" أتمنى أن تعرف هذا الشيء عن نفسك، أنت ناقد قاسٍ جداً."

حاول أبي أن يلطف الجو بابتسامة، فرك ذقنه مارّا عبر الجرح العميق على جانب خده دون أن ينبس بكلمة. في إضاءة كهذه أي جرح محفور يبدو أكثر عمقاً من العادة، ولكن بنفس الوقت أقل رعباً. يبدو كأنه غمازة امتدت أطول من اللازم.

الغضب ليس سوى تبذيراً للمشاعر. على الأقل هذا اعتقادي دائماً. قد يتذمر والديّ من السياسة في نيويورك، ولكن لم يغضبا أبداً من درجاتي في المدرسة، كنت أحصل على درجة متوسطة في أغلب الحصص إلا في حصة الفنون، ولم يغضبوا يوما من عدم أكلي للخضروات، أو حين أتقيأ بعض الأحيان الملعقة المليئة بزيت كبد القد. لطالما اعتقدت أن الغضب الروتيني، مضيعة وهدراً. الآن وقد توغل الغضب في داخلي، أود أن أضرب أبي، أن أضربه بقوة حتى الجنون.

قال: "كا، سوف أخبرك لماذا أسميتك كا."

نعم، لقد أخبرني مرات عديدة مسبقاً، والآن لا يبدو أنه وقت مناسب لتذكيري، ولكن ربما كان يرجو تهدئتي قليلاً، يرجو ألا أكرهه لبقية حياتي.

قال: " لم تحب أمك الاسم إطلاقاً، خافت أن يضايقك الآخرون. بعض الناس يضحكهم تكرار حروف أسمك كاكاكاكا."

قد سمعت هذه القصة قُبلاً، فقاطعته وأنا أشير بيدي بقوة: "حسناً، وصلت الفكرة."

أكمل على أي حال: "أسميتك كا بسبب معناه عند المصريين القدامى..."

وددت لو أكملتُ جملته قائلة "كا" ثنائي للجسد وهو رفيق الجسد في الحياة والممات. هذا ما أقوله لطلابي حين أسمعهم يكررون أستاذة كاكا.

والآن أبي يقول:" كما ترين، كا مثل الروح الموازية وفي هايتي نسميه الملاك الطيب. يوم ولادتك كنت أتأمل وجهك وأقول لنفسي هذه كا خاصتي وملاكي الطيب."

بدأت في التّمالكِ قليلاً، فبمجرّد أن يخاطبني أبي بملاكه الطيب أتوقف عن تجاهله وعن الغضب منه.

قال مُقدماً: " سوف أقول الباقي بالكرايول، فلساني تثقله الانجليزية خاصة في مواضيع حميمية كهذه."

رددت عليه بالإنجليزية:" حسناً."

أكمل بالكرايول: " كا، حين رأيت التمثال لأول مرة وددت لو أن يدفن معي، أن آخذه للعالم الآخر."

أكملت بالإنجليزية:" كالمصريين القدامى؟"

ابتسم بامتنان، اعتقد لأنه وبالرغم من كل ما حدث، مازلت أقدّرُ شغفه.

قال:" حين كنت أقرأ لك من كتاب الموتى بلهجتي الانجليزية الركيكة، هل تذكرين حين طلبت منك أن تقرئي لي أيضاً بعض الفصول منه؟"

من الصعب عليّ معانقة هذه الذكرى بالتحديد، كنت اشعر بملل رهيب من كتاب الموتى. صور قلوب الأموات توضع على الموازين والأرواح تسبح بلا هدف في أنهار من النار تحت الأرض جلبت لي ما يكفي من الكوابيس. كان أسلوبه أنانياً فلم يسألني مرة عما أرغب سماعه قبل أن أذهب للنوم،

ما أود قراءته أو أن يُقرأ لي. ولكن بما أنه لم يمت بالحصبة كما كنا نخشى فقد أقسمت على نفسي أن أتحمله دائما إلى أن تُشبع رغباته. فتركته يأخذني لأماكن لم تعجبني، ويقرأ لي عن أشياء لا تهمني، فقط لأشهد سعادته، كنوع من التضحية لرجل يحتضر وتُبقيه هذه المتع على قيد الحياة. ولكن ربما أنه لن يبقى حيا لوقت أطول، وربما كل هذه المسرحية لكي يمهد لي الخبر، ربما كان تمثالي آخر أضحية نقدمها معاً قبل أن يرحل.

سألته: " هل تحتضر؟ هل أنت مريض؟ هل سوف تموت؟"

كان هذا هو التفسير الوحيد لجعل ما فعله يبدو تافهاً أو حتى منطقياً.

ماذا سأفعل لو أن هذه هي الحقيقة؟ سأبحث عن أفضل الأطباء وسنعود جميعاً لمدينتنا. سأحصل على عمل جاد ورجل لأتزوجه ولن أتذمر أبداً عن رميه لتمثالي في البحيرة. والدي مثلي، يسكت أطول من اللازم في لحظات النقاشات الهامة ثم يقول أكثر من المطلوب.

استمعت لنواح صرصار الليل وحشرات الصيف ولا أعلم من أين تأتي هذه الأصوات. هذا هو الطريق السريع وعليه تتسابق السيارات، هذا الهلال، وهذه البحيرة حفرت عمداً في الأرض التي أمامي وتمثالي غارق بقاعها، هذا صف النخيل بظلاله يشتبك مع السمكات الكبيرة القافزة على سطح البحيرة، وها هي أنا وهذا أبي.

تكلم أبي أخيرا:" هل تذكرين حساب الموتى؟ حين يوضع قلب الميت على الميزان، إن كان القلب ثقيلاً فلا يستطيع الميت أن يدخل العالم الآخر."

كان كلامه شهادة على تنشئتي، وربما كاكا والملاك الطيب لهما دخل في ذلك، ولذلك التزمت الصمت في هذه اللحظة.

أردف قائلاً: " لا أستحق تمثالاً."

في هذه اللحظة تماماً كان يبدو كواحد، كصورة العذراء مريم متأملة خسارتها في الصحراء، أو كاهن جنازات مصري قديم راكعاً ويديه مطوية في صلاة.

قال:"كا، حين أخذتك لمتحف بروكلين، كنت أقف هناك لساعات معجباً بالتماثيل، وكل ما كنت تفعلين هو الحديث عن القطع المفقودة كالأعين، الأنوف، الأقدام وحتى الأيدي أحياناً. لطالما انتبهت لما هو مفقود أكثر مما هو موجود."

بلا شك أن هذه الطريقة بالنظر للأشياء هي السبب في أن أبدأ النحت، لأصنع تماثيل تبهر والدي أكثر من هذه الآثار البالية.

قال:" كا، أنا كأحد هذه التماثيل"

قلت ضاحكة بسخرية: " المصرية القديمة؟"

ومضت مدة وأنا إلى الآن أنصتُ إلى نفسي ضاحكة. كان هذا سلاحي الوحيد والطريقة الوحيدة التي أعرفها للانتقام من أبي.

قال عابساً، متضايقاً وهو يصيح من ضحكي:" لا تفعلي هذا! لماذا تفعلين هذا؟ لماذا تضحكين كالمهرج حين تغضبين؟"

ألوح بيدي باتساع عندما أضحك، ولم ألحظ هذا إلا حين مد يديه ليمسك بيدي. وبسرعة، حركتهما بعيداً، ولكنه لحق بمعصمي الأيمن وقبض عليه، نفس اليد التي لمسها الضابط بو ليسكتني.

أمسك بي أبي بشدة وشعرت بأن أصابعه تسحق عظام يدي، كمن يشقها نصفين، شعرت بألم فألجمت عن الضحك.

قلت:" أتركني."

فأطلق يدي بسرعة. نظر للأسفل لأصابعه ثم أنزل يديه لحجره. إلى الآن ومعصمي ينبض. مسّدتهُ لفترة لأخفف بعضاً من الألم. كان الألم في هذا الموضع هو ما يدفعني للبكاء أكثر من أي شيء آخر. أكثر من عصبية أبي المفاجئة والتي ليست من طباعه.

قال لي: " أنا آسف. لم أكن أريد إيذائك، لم أرغب في إيذاء أي أحد".

ظللتُ أمسّدُ يدي لأجعله يشعر بالأسف وبالندم أكثر ليس فقط لأنه شدني بعنف، بل لأنه رمى عملي في الماء.

قال مجدداً وببطء هذه المرة:" كا، لا أستحق تمثالا. على الأقل لا أستحق تمثالاً كاملاً. فوالدك صيّادٌ وليس فريسة."

توقفت عن دعك يدي، شعرت بأن شيئا ما أكثر إيلاما في طريقه نحوي. سكت مجدداً، ولم أرغب في أن أحرضه على الكلام، أو أن أعطيه أي دلائل لتدفعه لكلام معين.

لكن في الأخير شعرت بالملل من هذا الصمت وشعرت أنه لا خيار أمامي سوى أن أسأله:" عن ماذا تتحدث؟"

ومباشرةً ندمت على سؤالي، هل سيوضح لي الآن لماذا لا يوجد أي أصدقاء مقربين له ولأمي؟ أو لماذا لم يزورنا أحد في منزلنا؟ ولماذا لم يتحدثوا أبداً عن أي أقارب لنا في هايتي أو في أي مكان آخر، أو لماذا لم يعودوا لهايتي أبداً، وحتى بعد أن تعلمت الكره منهما، لم يحدثاني أبداً عن بلدي عن أشياء أخرى غير التي وجدتها بنفسي في برامج التلفاز، ومن خلال محطات الإذاعة وعلى صفحات الجرائد. هل سوف يخبرني لماذا أمي متدينة جداً؟ لماذا تذهب للقداس يومياً؟ لا أرغب في أن أعرف أكثر من البخس القليل الذي اختارا أن يشاركاني إياه. ولكن بدا واضحاً لي أنه يود أن يقول المزيد، مضت فترة

وهو يحاول.

أكمل قائلاً: " لدينا مثل يقول يوم للصياد ويوم للفريسة. وأبوك يا كا صياد وليس فريسة."

كل كلمة تغادر فم والدي الآن صعبة ومعقدة، وموزونة كتلك القلوب الموزونة على موازين المصريين القدماء.

قال: " كا، لم أذهب مطلقاً للسجن"

قلت بصوت طفولي كما لو كنت في الرابعة عشرة:" أووووكيبي!"

قلتها بطريقة كانت أمي تصفها بالصبيانية، بالرغم من أنني كنت أتحدث كأي طفلة بعمري.

أكمل أبي: " كنت أعمل في السجن."

قررت حينها أن لا أقاطعه مجدداً حتى يكمل حديثه. الآن هو محاصر ولا يملك إلا أن يكمل كلامه، فأكمل: " أحد السجناء في السجن هو من شق وجهي بهذا الشكل." وأشار إلى الجرح العميق المحفور على خده الأيمن.

تعوّدتُ أن أراه وهو يغطي جرحه، لذلك بدت لي هذه الحركة المقصودة درامية وجامحة كالتي ترفع عن وجهها نقاباً.

قال:" الشخص الذي شق وجهي أطلقت عليه النار وقتلته، كما قتلت الكثير من الناس غيره."

تعجبت جداً كيف أفصح عن كل ذلك بنفس واحد، كمن يقرأ مقدمة المسرحية. تمنيت وقتها أني تدربت على دوري مثله في هذه المسرحية. لا أعرف ماذا أجيبه دون تردد.

لا وقت لدي، ولا متسع في مخيلتي لأسمح بأي اعترافات من والدتي

أيضاً، سواء كانت هي نفسها فريسة أو صياداً؟. عانت ثلاثين سنة وأكثر من سيطرة أبي؟ لقد احتفظت بالكثير من الألم لنفسها، ربما أكثر من أبي، كشخص ربى بداخله ألماً عظيما ولم يستطع أن يبوح به. وبالرغم من ذلك، لقد فعلت ما في استطاعتها لأن تكون أماً جيدة. كانت تكسيني وتطعمني وتتأكد من أن شعري دائما ممشط، تجاهلت فقط تنشئتي الذهنية وتركتها لأبي.

عندما كنت صغيرة، كانت تأخذني معها للقداس في أيام الآحاد. هل كان علي أن أدعوا لأبي بالرحمة كل ذلك الوقت؟ الأب الصياد وليس الفريسة؟ أعود بأفكاري لطقوس اعترافات الإنكار الاثنين والأربعين من كتاب الموتى وهي تسبق مراسم وزن القلوب وتعطي الميت فرصة كي يعترف أنه فعل الخير فقط خلال حياته. كان هذا الفصل أحد الفصول التي كرر أبي قراءتها لي. والآن يخبرني بطريقة ما أنه ربما كان علي أن أقرأ ما خلف السطور، ربما كان عليّ أن أحول الإنكار في الاعترافات إلى تأكيد.

من الكتاب، كان أبي يقرأ: " لست عنيفاً، لم أتسبب في بكاء أحد ولم أغضب دون سبب مقنع، لم ينطق لساني بالكذب، لم أقتل رجلاً أو امرأة، ولم أفعل أي أثم."

ولكي أكون متأكدة تماماً من قصده، سألته: " وتلك الكوابيس التي كانت تأتيك، ما مصدرها؟"

" مما كان يفعله والدك بالآخرين."

ملأت مخيلتي صورة أخرى لأمي، تصورتها شابة في عمري تغمر رجلاً كأبي بحبها، في أي لحظة قررت أن تحبه؟ ومتى عرفت أنه كان من المفترض أن تحتقره؟

سألته: " هل مانمان تعرف؟"

قال: " نعم، شرحت لها كل شيء بعد مولدك."

سقت السيارة المسافة القصيرة للفندق، بدا المشوار أطول من اللازم، والسيارات أمامنا بدت كأنها تسير على مهل.

ضغطتُ على بوق السيارة بنفاد صبر، بالرغم من أن الجميع كان يسوق حسب السرعة القانونية سواي. كان أبي صامتاً ولم يخبرني أن أخفف سرعتي، أن أحاذر وأن لا أستعجل، كعادته حين يكون في كرسي الراكب.

وعندما كنا نركن السيارة في مواقف الفندق، أدركت أني لم أبلغ الضابط بو والمدير ساليناز بأني وجدت أبي، فقررت أن أهاتفهما من غرفتي.

قبل أن نغادر السيارة، قال أبي:" كا، مهما كان لازلت أبوك وزوج أمك ومن المستحيل أن أفعل هذه الأشياء الآن."

كان إعلانه هذا ذو معنى بالنسبة لي تماماً كاعترافاته السابقة. كان دليلاً لي أنه ربما أبي كان مخطأ في وصفه عن حياته السابقة، وربما ماضيه سمح له باختيارات أخرى غير دور الصياد والفريسة.

وجدت رسائل من الضابط بو و المدير ساليناز حين وصلنا لغرفة الفندق. لأن دوامهما انتهى، تركتُ لهما رسالة لتبلغهم أن أبي قد عاد. وبينما كنت على الهاتف، تسلل أبي لغرفة الاستحمام وفتح حنفية الاغتسال على أقصاها. لم يترنم بالتراتيل هذه المرة. حين غاب، اتصلت بأمي في بروكلين، وهمست لها على الهاتف: " ماما، كيف تحبينه؟"

كانت تطقطق بلسانها وتنقر بأصابعها على السماعة، صوتها جاءني ناعماً كما لو كنت أيقظتها من سبات.

سألتني: "هل أخبرك؟"

فقلت: " نعم!"

" كل شيء؟"

"هل هناك المزيد؟"

قالت:" كل ما أخبرك به، كان يود لو أنه أخبرك عنه منذ زمن بعيد، فأنت ملاكه الطيب".

لطالما أدهشني كيف أن أمي وأبي يرددون نفس الكلمات، الحركات والتصرفات، حتى في اختيارهما للمهنة كانا متشابهين. وتساءلت بماذا يمكن أن يتشابها به أيضاً؟ ولكن لماذا أنا مستغربة من تشابههما؟ كبقية الآباء، كانا مجتمعاً مصغراً عن اثنين، يتشاركان في نظم معينة خاصة وماض لن أستطع التعرف على تفاصيله تماماً حتى لو ولدت في بلدهما. كنت جزءاً منهما، وقد أنتمي لهما ولكن لم ولن أكون هما.

همست أمي واضعة في مخيّلتها إمكانية سماعها من قبل أبي: " لا أعلم كا، أنا وأنت أنقذناه... حين التقيت به توقف عن إيذاء الناس، وهكذا أرى الموضوع، هو بذرة مرمية على صخرة، أنا وأنت من نجعله ينبت، يمد جذوره ويرسخ أصله."

حينما كانت أمي تتكلم اعتراني شعور يعتريني أحيانا حين أنحت، أن يداي ليستا ملكي، وأن هناك شيء آخر غير دماغي وعضلاتي يحرك أصابعي، شيء أكبر وأقوى مني، كمحرك عرائس مخفي لا أستطيع السيطرة عليه. أشعر الآن أن نفس محرك العرائس هذا يجبرني على إغلاق السماعة وإنهاء المحادثة مع أمي وهي في منتصف كلامها.

بعد أن أنهيت المكالمة، أقنعت نفسي أني قد أستطيع أن أكمل هذه المحادثة بشكل أفضل خلال دقائق، ساعات، أيام أو حتى سنوات حين أكون

مستعدة فقط. عاد أبي للغرفة لابساً بجامته، وشعره المُتخفف مازال رطباً.

لم تعاود أمي الاتصال بي، ربما شعرت بغدرها بي حين لم تشاركني ارتباكي، وبطريقة أخرى مشاعري عن حياتي التي كان من الممكن أن تمضي بسلام بدون أن أعرف هذه الأشياء عن أبي.

استيقظت صباح اليوم الثاني، أبي قد أستعد وارتدى ملابسه وجلس على طرف السرير، حانياً رأسه ووجه مدفون بين يديه، تظلل ناصيته أصابعه الطويلة. لو كنت أنحته الآن لنحته كحشرة فرس النبي، تجثم بلا حركة كأنها في وضعية الصلاة، ولكن في الحقيقة تترقب الفرصة للانقضاض.

كان مُديراً ظهره ناحيتي حين قال: " هل ستكلمين الممثلة وتخبرينها أننا لا نملكه، التمثال؟" أجبته: " لقد دعتنا للغداء في منزلها، أعتقد أنه يجب أن نذهب ونخبرها بأنفسنا."

رفع كتفيه وقال بلا مبالاة: " هذا الأمر يعود إليك."

بعد الفطور توجهنا لمنزل جابريال فونتينو. لم يكن الجو حاراً كالصباح السابق، ولكن كان يزداد حرارة. شغلت المكيف على أعلاه، فكان من الصعب أن نستمع لبعضنا لو تحدثنا. كانت الرحلة أطول من رحلة الأربعة والعشرين ساعة التي قضيناها سفراً بين نيويورك وليك-لاند في فلوريدا.

مللت سريعاً من البحيرات الصناعية، القنوات المسورة، أشجار الحمضيات، وسعف النخيل على شكل مراوح، وهذا الطريق السريع النظيف جداً بشكل ملحوظ. أشاح والدي بوجهه بعيداً عني وأخذ ينظر بعمق لهذه الطبيعة الاستوائية كما لو أنه لن يراها مجدداً. كان مستمتعاً بمنظر شجر البلوط دائم الاخضرار، وما علق على أغصانه من الطحلب الإسباني كشعر غزير لفتاة جميلة، وأكمة زهور شوكية تنمو تحت هذه الأشجار، كان

يعجبه منظر وتَسَارُع أغصان شجرة الكولونيا تتدلى كالأبواق، وأشجار التمر الهندي والأبنوس. أعرف ذلك لأنه عبر لي عن إعجابه بهم من قبل، في النصف الأول من رحلتنا.

وكما كنا نقترب من منزل جابريال فونتينو، كسر أبي حاجز الصمت وقال: " الآن فهمت يا كا لماذا أمك وأنا لم نرجع يوماً للوطن."

منزل عائلة فونتينو كبير، بُني من الطوب الأحمر ويُزَيّنه المرجان الأبيض على نهاية الشارع ويَدُلّ عليه صفان من أشجار الأثأب العظيمة مفصولة بشارع.

خرجنا من السيارة، وتبعنا طريقاً حجرياً لرواق المنزل. وقبل أن نتمكن من طرق الباب، ظهرت على العتبة الأمامية امرأة كبيرة السن. كانت والدة جابريال، كانت تشبهها أو كما كانت تبدو جابريال على التلفاز. عيناها لوزيتان باهرتان، وبشرتها بلون أسمر مائل للحمرة، خصل شعرها الحلزونية تُمَشِّط جانبي وجهها.

قالت بابتسامة واسعة:" كُنَّا ننتظر وصولك."

وحين ظهر والد جابريال على عتبة الباب وضح لي من أين أخذت طولها، كان طويلاً جداً، مد السيد فونتينو يده ليصافح أبي أولاً ثم لي. بدتا يديه صغيرتين مقارنة بيدي أبي.

مشينا ببطء لغرفة الجلوس، كان سقفها كسقف كاتدرائية وجدرانها مغطاة بلوحات لمناظر مختلفة من هايتي، هناك لوح للبازار الشعبي وأخرى لمشاهد من العشاء الديني واحتفالات زواج ومراسم عزاء. كان أكثر اللوحات أهمية رسم بالحجم الحقيقي لجابريال موضوع على أريكة مغطاه بمظلة صغيرة في زاوية يبدو أنه حديقة والديها.

جُهزت طاولة للغداء في البلكون الخلفي، بين أبراج من زهور الأزاليا و الكركديه و أشجار النخيل و أعشاب الليمون. سأل السيد فونتينو أبي عن مدينته الأصل في هايتي، فكذب والدي.

في الماضي، اعتقدت أنه كان يقول إنه من مدينة مختلفة كل مرة لأنه فعلاً عاش في كل هذه المدن. ولكن الآن أدركت أنه يفعل لذلك ليقلل من احتمالية أن يعرف. بالرغم من سنواته الثلاثة والسبعين وشعر أشيب نحتته عوامل الزمن.

دخلت جابريال بفستان بلون الياقوت يكشف عن كتف واحد، فوقفنا أنا وأبي. هدلت كحمامة وهي تمد يدها لأبي "جابريال"

انحنى ليقبلها قبل أن يقول بعفوية ساذجة: " عزيزتي، أنت أجمل زهور هايتي."

بدت جابرييل مرتبكة قليلا، أمالت رأسها بخجل ثم التفت ناحيتي وقالت:" مرحباً!"

خلال وجبة عامرة من المحار، البلانتين المقلي، والأرز بالفطر، حاول السيد فونتينو أن يجر أبي لمحادثة، فسأله بالكرايول متى كانت آخر زيارة له لهايتي. قال أبي بفم يملئه الطعام: " قبل سبع وثلاثين سنة".

فسأل السيد فونتينو:" ألا تذهب للزيارة؟"

فأجاب أبي: "لم تحن لي الفرصة بعد."

وأردف السيد فونتينو:" نسافر لهايتي مرة كل سنة، لمكان جميل جداً يطل على المحيط في جبال الجاكميل."

سألتني جابرييل فونتينو: "هل ذهبتِ لجاكميل من قبل؟" وهززت

رأسي بالنفي...

قالت السيدة فونتينو: " نحن محظوظون لأننا نملك مكاناً نذهب إليه حيث المطر أعذب والغبار أقل والشواطئ أجمل."

فقال السّيد فونتينو ضاحكاً:" متى صرنا نتذوّق المطر ونقيس الغبار؟"

قالت السيدة فونتين وعيناها تلمعان واضعة الشوكة على الطاولة لترسم صورة أفضل لنا:" لا شيء يشبه حلاوة شرب عصير جوز الهند من شجرتك الخاصّة."

أمالت برأسها طرباً، فعلاً صوتها وارتفع، وحتى ابنتها تأثرت، فابتسمت واستعادت ذكريات جاكميل مع أمّها.

أكملت السيدة فونتينو:" لا شيء يشبه أن تغوص يداك في شواطئ بلدك، أنه شعور رائع، رائع."

تخيلت وقتها كوابيس أبي، ربما كان يحلم بيديه تغوصان في شواطئ بلده ويفاجأ حين يخرجهما بيدين ملطختان بالدماء.

بعد الغداء، سأل أبي إن كان باستطاعته أن يرى الحديقة. وبينما كان يتنزه فيها، أفصحت لجابريال فونتينو عن ما حدث للتمثال. عبست وتململت وأزاحت بثقلها من قدم لأخرى كما لو أنها منزعجة جداً على وقتها الثمين الذي أضاعته علينا وربما خطر ببالها أن هذه الزيارة مجرد خدعة لنقابلها وربما كانت تريدنا خارج منزلها في أقرب فرصة.

قالت لي:" لا استضيف غرباء هكذا لمنزلي، صدقيني"

فقلت:" أقدر دعوتك، وأنا ممتنة جداً لثقتك ولم أنو أبداً أن أنقضها"

قالت لي:" لا شيء يمكن فعله الآن، لا يمكن أن تعطيني شيء لا تملكينه،

ولكني جداً محبطة كنت أرغب في أن أعطي التمثال لوالدي."

قلت:" أنا آسفة"

قالت وهي تنظر حولها كما لو كانت تبحث عن شيء أكثر أهمية لتنظر إليه:" كان يجب أن أعرف أنه هناك شيء غير طبيعي. عادة الزوار الذين يأتون لبيع القطع الفنية، يدخلون محملين وقبل أيّ شيء كانوا يُروننا القطع، ولكن بما أنك تعرفين سيلين لم أفكر كثيراً بذلك."

قلت وأنا أشعر بالبلاهة:" كان هناك تمثال، ولكن أبي رماه لأنه لم يعجبه."

رفعت حاجبيها الجميلين، كما لو أنها تخشى على صحة أبي العقلية، أو صحتي. وربما كانت إشارة منها أن نذهب بعيداً عن ناظريها.

قالت وهي تنظر مباشرة إلى وجهي:" انتهينا إذاً. علي أن أتصل بأحد، يومك سعيد" ثم اختفت خلف باب مغلق.

ومن خلال البلكونة المطلة على الحديقة، كنت أنظر لوالدي جابريال يقودون والدي بين أشجار البامبو. رغبت في نداء جابريال لتعود مرة أخرى وسوف أعدها أن أصنع تمثالاً آخر ولكني لا أستطيع. لا أعلم إن كنت سوف أعمل على أي قطع فنية جديدة لوقت طويل.، فقد خسرت ملهمي، أبي السجين الذي أحببته وأشفقت عليه.

في الحديقة كانت السيدة فونتينو تقطع بعضاً من أعشاب الليمون وتضعها في كيس بلاستيكي يحمله السيد فونتينو والذي سلمه بدوره لأبي. تذكرت فصل "وصفة لدرء الذبح في العالم السفلي" من كتاب الموتى، وأنا أنظر لوالدي وهو يقبل الكيس بانحناءة شكر.

كان أبي يقرأ لي أحيانا من هذا الفصل ليبدد مخاوفي من الوحوش التي

أتخيلها. كان فصلاً مليئا بمقاطع فظيعة مثل "فمي يتحفظ بالكلام والصمت، أنا الطفل الذي يسافر في طرق الأمس، أنا الطفل الذي خُلق من عينيه."

لوحت لأبي الذي كان في الحديقة بإشارة أنه علينا أن نذهب، تهادى الخطى ناحيتي ويتبعه والدي جابريال. وفي كل خطوة يخطوها كان يفرك الجرح العميق على خده وفي حركة ارتكاز عجيبة كنت أحك نفس الموضع على خدي. ربما آخر رجل آذاه أبي كان يحلم بلحظات كهذه تحصل لأبي مستقبلاً، أن يراه الغرباء بجرح عميق قد تَغَضّن وجهه متناوبين على التحديق فيه والإعراض عنه، مجبرينه على أن يغطي الجرح بيديه، متظاهراً أنه لا يوجد، دافعين إيّاهُ على التوضيح والكذب.

أمام منزل فونتينو وعلى الرصيف أشرنا بأيدينا مودعين باتجاه والدي جابرييل الواقفين عند الباب. وبالرغم من أنهما لم يفهما تماماً سبب زيارتنا، فقد كانا كرماء وعاملانا كما لو كنا أصدقاء قدماء لابنتهم.

بينما كانا يديران ظهرهما ليغلقا الباب، التفت لأبي الذي ما زال مبتسماً ويلوح مودّعا. الجرح على خده صغر واختفى تماماً في طيات خده ولذلك كنت أتمنى دائماً لو أن أبي يبتسم طول الوقت.

حالما اختفى الوالدان من أمام أنظارنا، مد أبي يديه لكيس الأعشاب وأخذ يفتشه، انتشرت رائحة عشبة الليمون القوية في السيارة كما لو أن أحداً بالغ في استخدام معطر الجو.

سألته: " لماذا سوف تستخدمها؟"

فقال:" سوف أصنع شاياً، لأمك ولي."

أخرجت السيارة من موقفها أمام منزل فونتينو، مترقبة بخوف كل وقفة استراحة، محطة بنزين، وفنادق منتصف الطريق القادمة. أتمنى لو أن أمي

معنا الآن لتحدثنا عن المعجزات التي تسمعها في القداس، أتمنى لو أن تمثالي الذي صنعته لا زال معي في خلفية السيارة، أتمنى لو أني لم أقابل جابريال فونتينو، وأن لقاءها مازال أملاً مفتوحاً لي في المستقبل تحت ظروف مختلفة، تمنيت لو أعطي أبي ما كان يبحث عنه حين اعترف لي بسره. ولكن كان على أبي، إن كان باستطاعة البشر أصلاً، أن يفهم أن الاعترافات لا تبهج قلوب الأحياء.

سابقاً، كنت أعتقد أن بلوى أبي الوحيدة هي الغربة، أنه ترك بلدته ورحل لمكان كل شيء فيه من الطقس وحتى اللغة مختلف عما اعتاده، مكان لا يتأقلم معه ولا يبدو أنه ينتمي إليه.

الشيء الوحيد الذي يمكنني استيعابه الآن، وأنا أسوق سيارتي بسرعة جنونيّة فوق الحد المسموح على طريق سريع آخر، لماذا كانت الغربة مريحة جداً لأبي وليست مأساوية. ولماذا كان يرفض تقبل نفسه في كل وقت ومناسبة. ولماذا يفضل ألا يكون في الصور. لقد عرف الثقل العظيم للآثار الباقية، تعلمها عن طريق دراسة كل شيء في التاريخ المصري القديم. تعلمه عن طريق قبورهم ورسومهم، تعلمه لأنه لم يكن يريدُ أن تكشفَ حقيقته من قبلِ أيّ كان غيري أنا وأمي. نحن ملائكته التي تحرسهُ وأقنعته التي تخيّمُ على وجهه.

2

سبعة

الشهر المقبل هو المكمل للسنة السابعة منذ أن رأى زوجته لآخر مرّة.

وبالرغم من بغضه للرقم سبعة، إلا أنه اكتشف منفعته، فسبعة أيام تفصل بين رواتبه، وسبع ساعات يقضيها في عمله الصباحي دون حساب وقت الغداء، وسبعة أيضاً يقضيها في عمله المسائي، سبعة هو الرّقم الأول في عمره - سبعة وثلاثون، والآن سبع ساعاتٍ باقية حتى وصول زوجته. وقت سيزيد لو حسب وقت استلام الحقائب والانتظار الطويل في صفوف الهجرة والجمارك قبل أن تبحث عنه بين جموع الوجوه المُرَحِّبة على الجانب الآخر من الباب الزّجاجي المنزلق في مطار جون إف كنيدي.

هذا إذا وصلت الطائرة من مدينة بورت-أو-برنس دون تأخير أو إلغاء كما هي العادة.

يُشارِكه رجلان آخران، مايكل وداني، الشقة السفلية من منزل ذو طابقين. واستعداداً للقاء المرتقب مع زوجته، رتب غرفته، وتخلص من قمصانه القرمزية التي يعرف جيداً أن زوجته ستكرهها، ثم صعد بعض الدّرجات المؤدّية إلى الطابق الأوّل ليُبلغ صاحبة المنزل بقدوم زوجته.

كانت صاحبة المنزل، ذات التّجاعيد العميقة التي تزيّنُ وجهها، امرأة ممتلئة وبسيطة المظهر، وعلى درجة مّا من اللّطف.

أشارت له قائلة:" لا مشكلة عندي في أن تقيم زوجتك هنا."

كانت تغلق عينيها حين تتكلم كما لو كانت تودّ أن تلفت الانتباه إلى السكنات الّتي تتخلّل كلماتها، ثم أكملت: " كلّ ما أرجوه أنها نظيفة."

أجابها: "نعم، إنها نظيفة."

"اتفقنا إذاً"

المكان الوحيد الذي رآه من القسم العلوي للمنزل كان المطبخ. لقد كان مطبخا نظيفاً، تفوح منه رائحة معطر الصّنوبر ويحتوي على أطباق مصفوفة بانتظامٍ خلف الأبواب الزجاجية للخزائن.

سألته، بينما كانت تضع طبقاً من الكّعك المجمّد في آلة المايكرويف: "هل أخبرت باقي الرّجال؟"

قال:" نعم، أخبرتهم."

كان يتوقع منها أن تطلب زيادة في الأجرة، فقد تعاقد معها ومع زوجها على أن يستخدم الغرفة رجلٌ أعزبُ، وليس زوجين.

قالت له وهي تخرج الكّعك من المايكرويف: "امرأة تسكن في شقّة سفلية مع رجلين غريبين! قد لا ترتاح زوجتك."

قاوم رغبة جامحة في أن يقول إنه ليس من شأنك تحديد المريح والغير مريح لزوجتي. ولكن لأنه كان مستعداً لموقف كهذا، لتلقي أيّ تعليق مزعج بشأن زوجته فقد كبح رغبته.

في الواقع، حين صعد للمطبخ كان يودُّ أن يخبر صاحبة المنزل أيضاً أنه سوف يغادر الغرفة في حال وجد غرفة أخرى.

قالت وهي تفتح درج أدوات المائدة: " لا بأس إذاً، ولكن تذكر أنه عليك

أن تدفع باقي الشّهر الذي بدأ."

قال: " شكراً جزيلاً سيّدتي."

نزل الدّرجات متّجها نحو الطّابق الأسفل موبّخاً نفسه على كلمة "سيّدتي".

لماذا تحدّث كما لو أنه خادمها المطيع؟ إنها بلا شك الطبقية الاجتماعية التي إعتداها حين كان في موطنه وما يزال غير قادرٍ على التخلص منها. وفي المقابل، إذا ناداها بـ "سيدتي" فذلك ليس لأنّها تملك مالاً أكثر منه، وليس لأنّها متفضلة عليه بعدم زيادة الإيجار رغم مرور سنتين على وجوده في بيتها. كان فقط يقدّم تضحيات اجتماعية بسيطة لزوجته.

قرّر بعد هذا الحديث مع صاحبة المنزل، أن يتكلم مطوّلاً مع الرجلين الأخريينِ اللذان يشاركانه الطّابق، كل واحد منهما يسكن في غرفته الصغيرة. وفي اليوم السابق لوصول زوجته، ذهب ليراهما في المطبخ. وفي الحقيقة أرعبه منظرهما وهما يرتديان سراويلهم الداخلية الخفيفة أمامه إضافة إلى كونه رجل ذو نظر ضعيف.

قال لهما: " أرجو أن تتفهما الوضع، إنها امرأة"

لم يكن خائفاً أن تنجذب لأجسادهم النحيلة، ولكن إن كانت لا تزال حساسة كما يتذكرها، فسوف يحرجها منظر رجلين شبه عاريين.

تفهّم الرجلان.

قال مايكل: "لو كانت زوجتي، سوف أشعر كما تشعر" .

هزّ داني رأسه موافقاً.

بعد فترة من الحديث، أعلن مايكل أنهما يملكان جلبابين وسوف

يرتديانها حين تكون زوجته بالمكان.

يعلم الرّجال أنهم لا يملكون جلابيب، ولكن سوف يشتري مايكل ثلاثة احتراماً للمرأة القادمة.

كان مايكل أصغرهم سنّا، وقد نصح صديقه مرارا بأن يُجمّل غرفته بورود صناعيّة أو بتعليقِ صورٍ غير صور النّساء الشبه عاريات على جدران غرفته، وربما عطّرها بالفانيلا بدل رائحة الصّنوبر التي يعشقها السّكان الذين يقطنون في الطوابق العليا.

قال داني إنّه سيفقد سهراتهم سوية. في السّابق، كانوا يذهبون للرقص في الريناديفو والذي تغير الآن ليصبح ملهى السانيقال المشهور، ولم يذهبوا إليه منذ أن أعتقل فيه رجل من هايتي اسمه أبنر لويمال وضرب وأغتصب في مقر شرطة قريب.

طلب من داني ألا يذكر تلك اللّيالي مجدداً. لا يجب أن تعلم زوجته أيّ شيء غير أنه كان يعمل في وظيفتيه، مساءاً كحارس في كلية ميدجار ايفيرس، وصباحاً في مستشفى كينجز كاونتي. ولن تعرف زوجته شيئا عن بعض النساء اللاتي رافقنه لغرفته في ساعات الصباح الأولى. كان لهؤلاء النسوة أحباء وأزواج في مناطق مختلفة من العالم، ولم يكن لهنّ أي قيمة عنده على أي حال.

يعمل مايكل كقسيس مؤقت في كنيسة بجانب الريناديفو ولم يرقص هناك أبداً، ضحك وهو ينصتُ إلى ما يقوله ثم قال: " لن نسمع للدّيك صياحاً بعد اليوم. ربما من الأفضل أن تزهد في باقي حياتك وتنذرها للمسيح."

ردَّ داني:" لم يبق في هذا الرّجل ما يستحق النذر."

غادره كلّ شيء عرفه في سنواته الخمس السابقة، غادرته سهرات لعب

الدومينو. لقد ذهبَ رقم هاتفه الّذي عرفه منذ امتلاكهِ لهاتفٍ لأوّل مرّة، لقد رحلَ إلى الأبد. لا يريدُ أن تتّصل به أيّة امرأة الآن. وغادره قلقه الدائم من ألاّ تتعرّف عليه زوجته حين يقف بين الجماهير المحيية منتظراً الرّحلات القادمة من كينجستون ثم سانتو دومينغو ثم بورت-أو-برينس.

شعر بسعادة عارمة وصلت حد الانتشاء. كان يودّ أن يحضن أيّ امرأة تشبه ولو قليلاً آخر صورة أرسلتها له زوجته. كلّ الصور التي أرسلتها، علّقها بعناية على جدران الغرفة.

كان رجل الجمارك يفتّش حقيبتها. لماذا يفتّش الحقيبة؟ حقيبة واحدة هزيلة ولا شيء بداخلها سوى بعض الهدايا لزوجها، وبعض الأشياء التي لم تكن تستطيع أن تغادر دونها، تلك الأشياء التي لم ينتشلها أقاربها منها وهم يقولون إنها ستحصل على الأفضل والمزيد حيث تسافر. احتفظت ببعض الملابس الداخلية، قميص نوم، وبزتين: الفستان الأخضر المنفوش الذي ترتديه وبنطال أحمر غلفته بغلاف هدايا لتخفيه عن الأيادي المتطفلة.

نصحها جيرانها الذين سافروا سابقاً إلى نيويورك بتغليف كلّ شيء حتى لا يفتحه المفتّشون في المطار. ولكن رجل الجمارك مزّق كلّ الأغلفة. وإستجوبها بلغة كرايول ركيكة وهو يحمل علبة أمام وجهه: "كي سالاي؟" (ما هذا؟) لقد غاب عنها تماما ما قد يكون. ليس بإمكانها سوى التخمين من الحجم والشكل.

شقق رجل الجمارك الأغلفة عن الهدايا - المانجو، قصب السكر، الأفوكادو، قشر الجريب فروت المجفّف والمحلّى، الفول السّوداني، الكاجو، حلوياتٌ مصنوعة من جوز الهند، القهوة، والفول السوداني- ورماها جميعاً في صندوق مهملاتٍ أخضر رسم عليه علامة منع الخضروات والفواكه. كان الشيء الوحيد الناجي من مجزرة سلّة المهملات علبة صف بداخلها

ريش دجاج والتي كان زوجها يحبُّ أن يلعب بها داخل تجويف أذنه. قد اكتشفت لذّتها بنفسها في الأيام الأولى لرحيله. وفكّرت حينها أن القنوات الأجنبية كانت على حق: الجنس يكمن بدرجة أولى بين الأذنين.

حين وصل رجل الجمارك لعلبة الرّيش، نظر إليها مطوّلاً ثم رفع عينيه لينظر إلى المرأة الواقفة أمامه متباطِأً على وجهها، وكان يخيل لها أنه يركز على أذنيها. كان واضحاً أنه قد رأى مثل هذا الريش في السابق. ولكن ذهب لسلة القمامة، كبقية هداياها.

حين انتهى من تفتيش حقيبتها، قضى على كل ما تملك. لم يبق لها سوى أقل القليل. كانت حقيبتها خفيفة جداً لدرجة أنها تستطيع أن تركض بها وهي تحملها بيد واحدة.

مشت خلف رجل يدفع عربة بها ثلاث حقائب ثقيلة، سرعان ما تعثّر ووقع تحت الحقائب. وفجأة وجدت نفسها أمام باب زجاجي ينفتح تلقائياً، ينفلق كالبحر، وقفت وحلّقت ببصرها إلى الجموع الغفيرة المحمّلة بالزّهور والهدايا، وبالضوء المنبعث من بعيد معمياً بصيرتها، أُغلق الباب، وحين تقدمت بضع خطوات للأمام انفتح مجدداً، وعندها رأته.

أنطلق ناحيتها غامرا إيّاها بيديه ثمّ حملها عن الأرض. شعرت بقدميها ترتفعان. وحين أعادها للأرض شعرت للمرّة الأولى أنها في عالم مختلف، وأرض مختلفة.

كان يتوقع أنّ سعادة ما ستغمرها حين ترى كل صورها معلقة على الجدار المقابل للسّرير.

استقلا سيارة أجرة، وفي الطريق للمنزل كادا أن يتعرّضا لحادثين. لم يكن يعرف لماذا كلّ هذا التّهور والعجلة من سائق الأجرة.

الحديث بينه وبين زوجته كان سريعاً ومقتضباً عن الأهل والأصدقاء، كما تحدثا عن صحتهما. لم تكن تخطر ببالها قصص معينة عن أحدٍ معيّن، بعضهم توفّي وبعضهم مازال على قيد الحياة، ولم يكن ليتذكرهم على كلّ حال. كان جسمها أكبر عما كان عليه حين تركها، وهو ما يسميه النّاس هنا جسما ممتلئاً. وكان يبدو أنها ذهبت لمصفّف شعر. كان شعرها مرفوعاً بحرفية، شعرها القصير صفّف ككعكة رأس صناعية تتوّج رأسها، كانت رائحتها جميلة، مزيج من اللافندر والليّمون. كان يرغب أن يأخذها للبيت بسرعة أو بالأصحّ للغرفة، كان يرغب في أن يقلّص المسافة بينهما لدرجة أنه لن يكون هناك هواء تتنفسه هي دون أن يتنفسه هو أيضاً.

ذكره سائق التاكسي بالسّائق الذي أخذهما لفندق آيف ليقضيا ليلة شهر عسلهما الوحيدة، وقتها كان يتوسّل له أن يسرع لأنه في الصّباح التّالي سوف يركب طائرةً متجهةً لنيويورك. في تلك الليلة، لم يكن لديه أدنى فكرة أنّ سبعة سنواتٍ ستمضي قبل أن يراها مجدّداً. كان قد خطّط لكلّ شيء جيّداً، ولكنّه لم يستطع أن يحضرها لنيويورك مباشرة، لأنّه كان ينوي أن يتجاوز الوقت المسموح به على تأشيرة السّائح. ولكن كان في خطّته أن يعمل بجدّ واجتهاد، أن يجد محامياً بارعاً، أن يحصل على البطاقة الخضراء، ومن ثمّ يستطيع أن يحضرها.

ولكن كان عليه أن ينتظر ستّ سنواتٍ وأحد عشر شهراً ليحصل على البطاقة الخضراء. الآن ها هي معه، تقرّب وجهها من صورها إلى درجة أنّ أنفها يكاد يلامسُ الإطار، محدقة بعمقٍ وكأنها تنظر إلى شخص لا تعرفه.

سألها بنبرة مؤكدة: " هل تذكرين صورتك هذه؟ أرسلتها لي في عيد الميلاد الماضي." مشيراً إلى إطار متوسّط الحجم بداخله صورتها وهي شبه مستلقية على سجادة حمراء بجانب شجرة ميلاد صغيرة في أستوديو.

قالت إنها تتذكّرها، ولكنّها كانت تشعر بالحرج لأنها أبدت حاجة مستميتة في أن يتذكّرها دائما، فقد أمطرته بصور كثيرة كهذه.

قال لها:" لم أنساك للحظة."

كان ردّها عليه أنها عطشى.

سألها:" ماذا تحبين أن تشربي؟" ووصف لها أسماء العصائر التي اقتناها خصيصاً لها من السّوق اللاتيني: البابايا، المانجو، الجوافة، الأناناس، الباشون فروت و الشيريمويا. كلّها فواكه توقّع أنها ستشتاق لها.

قالت:" الماء البارد يكفي."

لا يودّ أن يتركها بمفردها حين يذهب للمطبخ، وكان باستطاعته أن ينادي من خلف الجدار على أحد الرجلين بأن يحضر له بعض الماء، فقط لو أنهما لم يختفيا خلف أبواب غرفتيهما لإعطائه بعض الخصوصية التي طلبها منهما سابقاً.

حين عاد للغرفة بكأس من الماء، فحصته جيداً كما لو أنها كانت تبحث عن عيبٍ. ثمّ ابتلعته دفعة واحدة كما لو أنّها كانت عطشى منذ اليوم الذي سافر فيه وتركها.

سألها: "هل ترغبين بالمزيد؟"

فهزت رأسها نافية.

فكّر بنفسه إنه من المؤسف حقاً أنّ كلمة الحب هي نفسها كلمة الاعجاب في لغة الكرايول. ولذلك عليه في كلّ مرة يقول لها إنّه يحبّها عليه أن يزيّن الكلمة بجمل وعباراتٍ تعبر عن درجة ذلك الحب. تمتم لها إنّهُ أحبّها أكثر من عدد الثواني في سنوات الفراق السّبع. لقد أحبّها أكبر من المحيط الذي

قطعته للتوّ. ولكي يمنع نفسه من قول المزيد من الأشياء المبتذلة في الحبّ، قفز عليها مثبتاً إياها على السّرير. لم تكن خجولة كما كانت في ليلة زواجهما.

سحبت عنه ربطة عنقه السّوداء بعنف لدرجة شعر فيها بأن رقبته قد تأثرت. اقتلع بعض الأزرار من فستانها بينما فكت أزرار قميصه الأبيض المُنَشّى والمكوي. وبالرّغم من تدريباته في أحلام اليقظة السّابقة بأن يضع يده مقبقبه برفق على فمها، لم يفكر بأن يفعل ذلك الآن. لم يهتم إطلاقاً إذا سمعه الرجلان الآخران.

كان متعباً، أخذت الشرشف من فوق السرير ولفت به جسدها معلنة أنها تودّ أن تزور دورة المياه. قال لها: " دعيني آخذك إليها."

قالت: " لا، لا. أستطيع أن أجدها وحدي." غلبه حينها شعور يشبه الحزن حين رآها تستدير وتختفي.

سمع أصواتاً في المطبخ، كانت تتكلّم مع الرجلين معرفة بنفسها. قفز من السرير حين تذكّر أنها لم تكن ترتدي سوى الشرشف، وبينما أسرع للباب اصطدم بها تدخل الغرفة. أخبرته عن الرجلين اللذان يلعبان الدومينو في المطبخ لا بسين جلابيب من الحرير الوردي.

في اليوم التالي، خرج مبكراً للعمل مثلما فعل الرّجلين الآخرين. ولكن قبل ذلك أعطاها مفتاحاً للشقّة وتعليمات بأن لا تستضيف أحداً. أخبرها كيف تشغّل الفرن وكيف تجد كل القنوات الهايتية في الإذاعة.

استغرقت في النّوم لوقت متأخّر مسترجعة أحداث الليلة السابقة، وهي تتذكر ضحكاتهما بعد أن قصت له كيف قابلت الرجلين وأخبرها كيف أسرعا في شراء هذه الجلابيب الوردية احتراماً لها.

لقد مارسا الحب مراراً، مجبرين أنفسهم على التكتم والهدوء. سبع مرات،

إذا صدّقنا حسابه - مرة لكل سنة افترقا فيها- ولكن أقلّ إذا اتبعنا حسابها. أكّد لها أنه ليس هناك أي داعٍ للحرج. فهما زوجان أمام الإله وأمام القسّ. وكان من المهمّ تذكيرها بذلك. فقد عقد قرانه عليها قبل أن يسافر. لكي يربطهما رباط قدسي أكثر من وعد. وهكذا إن تأثر رباطهما بالمسافة والوقت، فإنه من الصعب إحلاله. فيجب عليهما أن يوقعا أوراقاً لينفصلا، أن يكتبا الرّسائل ويتحدثا بالهاتف. قال لها إنه لا يرغب في تركها مجدداً، ولو لدقيقة واحدة. وقد سأل رئيسه في العمل أن يعطيه اليوم إجازة، فرفض. ولكن على الأقل عطلة نهاية الأسبوع لهما ليفعلا فيها ما يريدان.

في الظهيرة، رنّ الهاتف وكان هو المتّصل، سألها عن يومها، كذبت عليه قائلة إنها تطبخ شيئاً لتأكله. فسألها ماذا؟ قالت بيض، متوقعة إمكانية وجود بعض البيض في الثّلاجة. فسألها إن كانت تشعر بالملل، فكذبت مجدّداً قائلة لا. عزمت أن تستمع للراديو وتكتب الرّسائل لأهلها البعيدين في الوطن.

وحين أغلقت سمّاعة الهاتف، أدارت قرص الراديو. قامت بجولة عبر قنوات الإذاعة التي نصحها بها، وسعدت جداً لسماع الناس يتحدّثون بلغتها الكرايول. الموسيقى كانت مألوفة أيضا، هذه أغنية كومبا لفرقة توب ڤايس.

غيّرت الموجة لتجد في النهاية برنامجا حواريًا فتستمع إليه. تحدّث المتّصلون عن رجل أمريكي من أصولٍ هايتية قتل بيد الشرطة اسمه باترك دوريسموند. أطلق عليه النار في مكان أسمه منهاتن. كانت ترغب في أن تكلّم زوجها، ولكنّه لم يترك لها رقماً لتتّصل عليه.

استلقت على ظهرها، وغطّت رأسها بشراشف السّرير الّتي من خلالها كانت تستمع للمتّصلين، كلّ متصل كان أكثر غضباً من سابقه.

حين عاد للمنزل، وجدها قد طبخت مأدبة كبيرة لهما مما أمكنها أن تجده

في الثلاجة ومخزن الأطعمة. وأصرت أن ينتظرا وصول الرجلين الآخرين قبل تناول العشاء بالرّغم من ضيق وقته. لديه فقط بضع ساعات قبل أن يذهب لعمله المسائي.

مدح الرجال طبخها بحماس بالغ، وكان من الواضح أن هذه الوجبة جعلتهم يشعرون أنهم جزء من عائلة، وهو شعور جميل لم يتملّكهم منذ سنوات. بدت عليهم علامات الرضا، يأكلون للذة وليس فقط لسدّ الجوع ويمضغون ببطء لم يعهدوه من قبل. في العادة كانوا يأكلون واقفين أكلات خارجية من المطعم الصيني أو الجامايكي في أسفل الشارع. ولكن اليوم هناك حوارات بسيطة وحكايات حلوة غير مدح الأكل. عرض الرّجلان أن يغسلا القدور والصّحون حين ينتهون من الأكل، وفكّر في نفسه لا بد أنهم ينوون لعقها أيضاً.

ذهب مع زوجته لغرفتهما واستلقيا على السرير. شرح لها لماذا لديه عملين في اليوم، لكي يشغل ساعات اليوم الطويلة وهو بعيد عنها، وكذلك مصدر رزق إضافي له هنا ولها في بورت-أو-فرانس. قد ادخر مالاً ليستأجر شقّة، وتدريجياً قد يستأجر منزلاً. قالت إنها ترغب في أن تعمل أيضا. تساءلت إن كانت شهادة السكرتارية التي حصلت عليها حديثاً من هايتي قد تساعدها في ذلك؟.

نبّهها لحقيقة أنّها لا تتحدّث الانجليزية، وربّما عليها أن تبدأ العمل كطبّاخة في مطعم هايتي، أو عاملة في مصنع. غرق في نوم عميق قبل أن ينهي فكرته.

أيقظته عند الساعة التاسعة، وقت بداية دوامه المسائي. أسرع للحمام وغسل وجهه، عاد للغرفة وغير ملابسه لاعناً نفسه. كان غبياً جداً لأنه نام أكثر من اللازم، والآن ها هو يتأخّر عن العمل.

قبّلها مودعاً وأسرع خارجاً. كان يكره التأخير وتوبيخ المشرف اللّيلي الذي يحب أن يذكره بجملته المفضلة "هناك الكثير من الناس مثلك في هذه المدينة، ونصفهم يحتاجون لهذا العمل"

قضّت أسبوعاً داخل المنزل، كان يسكنها الخوف من الضياع إن هي غامرت وخرجت، خافت ألا تتمكن من تذكر خطوتها. وهكذا سقط يومها في روتين مملّ. صباحاً عندما تستيقظ، تستمع لإذاعة الأخبار عن ماذا حدث هنا وهناك في هايتي. وفي مكان ما ليس بعيداً منها، جموع من الناس كانت تجوب الشّوارع احتجاجاً على موت دوريسموند. وغضبهم كان شديداً لأنه الابن الوحيد لمغني هايتي مشهور كانوا قد سمعوا صوته مراراً في هايتي.

غنت معهم بينما كانت تطبخ الدّجاج، وتقلي بعض السّمك: "لا عدالة، لا سلام."

الظهيرة كان وقتها المفضل لكتابة الرّسائل لأهلها في هايتي. كتبت عن الوجبات الّتي حضّرتها، عن صورها التي تزيّن جدران غرفته، عن أغانٍ ممزوجة بأصوات الاحتجاج في الراديو. كانت تكتب لأفراد عائلتها وصديقاتها الّذين كانوا سعيدين جداً لأنها أخيراً ذهبت لتسكن مع زوجها. كتبت أيضاً لزميلاتها من مدرسة السكرتاريا اللاتي كنَّ في غيرةٍ منها. كتبت لصديق واحد كان جاراً لها والذي جاء لمنزلها ثلاث مرات بعد أن رحل زوجها ليطمئن عليها بعد أن أقفلت على نفسها الباب لأيام ولم تخرج.

طرق على الباب طويلاً، إلى أن فتحته أخيراً. كانت ما تزال مرتدية نفس الفستان الذي ارتدته لتوديع زوجها. حين تهاوت بين يديه، وضع كمادة باردة على مقدمة رأسها وقدم لها كأساً من الماء. ابتلعته دفعة واحدة فرفضته معدتها لتتقيّؤه في النّهاية.

في تلك الليلة، استلقى هذا الغريب بجوارها، وفي الظّلام أخبرها أن ما فعلهُ زوجها هو الحبّ ذاته، إذا كان الحبّ حاضراً فيجب عليك امتلاك الشجاعة لتأجيل الفرح الآن، من أجل فرح مستقبليٍّ لا تملك سوى تخيّله. وأكّد لها أن زوجها يحبّها كثيراً.

كانت تودّ أن تخبر زوجها عن ذلك الجار، الذي كان ينام بجوارها في اللّيالي التالية لرحيله، وقتها فقط ستشعر أنّ علاقتهما حقيقة. أخبرها شخص مّا مرّة أنّ الناس يكذبون كثيراً في بداية العلاقة. ولكن في منتصف العلاقة لا مكان لشيء سوى الصدق. ولكن لا منتصف لها ولزوجها في علاقتهما، فقط بداية سريعة ونهايات متخيلة.

التقى بزوجته لأول مرّة خلال فعاليات كرنفال في مدينة مجاورة للبحر في منطقة جاكميل. جزئه المفضل كان العرض الأخير، في اليوم السابق لأربعاء الرّماد، حيث يجتمع عدد كبير من المحتفلين المتعبين حول نار كبيرة على الشاطئ ليحرقوا أقنعة وأزياء الكرنفال متصنعين النواح والبكاء في رمزية للتطهر من عربدة الأيام والليالي السابقة. كانت قد تطوّعت لأن تكون أحد النّائحين الرسميين، أحد هؤلاء النادبين بإخلاص حين تتحول أثار الكرنفال إلى رماد في لهيب النار.

ولولت بصوت عالي بدموع حقيقية تنهمر على وجهها:" وداعاً أبانا الكرنفال."

فكر وهو يتأملها، إن كانت تستطيع الحزن بكل هذا الوجد حسب الطلب فلابد أنها قادرة على الحب بوجد أكثر. وبعد أن رحل جميع النائحين، بقيت على حالها حتى آخر قبس من النار. كان من المستحيل تشتيت انتباهها عن البكاء، أو جعلها تبتسم. قالت له مرة أنه من المستحيل أن تتصنع النواح. في كل مرة تبكي لسبب ما، فإنها تبكي لكل الأسباب التي آلمتها سابقاً.

كان يتنقل بين جاكميلو بورت-أو-برنس منتظراً لأن تُقبل تأشيرة سفره. وحين حصل أخيراً على تاريخ محدد للسفر، طلب منها الزواج.

في ظهيرة أحد الأيام في نيويورك، حين عاد للمنزل من عمله الصباحي، وجدها جالسة على طرف السرير في تلك الغرفة الصغيرة، كانت تتأمل صورها المعلقة على الجدار. لم تتحرك حين أقبل عليها لتقبيل مقدمة رأسها. لم يقل شيئا، خلع ملابسه واندس خلفها على السّرير ضاغطاً رأسه على ظهرها. لا يرغب في انتهاك أسرارها، كان يرغب ببساطة أن يطفئ نيران الكرنفال الملتهبة في رأسها.

كانت سعيدة جداً بقدوم عطلة نهاية الأسبوع. وبالرغم من أنه نام حتى الظهيرة، استيقظت مبكراً مع ساعات الصباح الأولى. لبست بنطالاً أحمر وأحد قمصانه وجلست على حافة السرير منتظرة أن تفتح عيناه.

وبمجرد ما فتح عينيه سألته: " ما هي خططنا لليوم؟"

قال لها أي شيء تودُّ هي فعله.

كانت تودُّ أن تمشي معه في الشارع، أن ترى وجوه الناس، أن تأكل أي شيء كتفاحة أو حتى رجل دجاجة مقلية. خارج المنزل حيث تشع الشمس مباشرة على وجهها، مرا من صاحبة المنزل التي كانت تقف بين أصص زهور بيضاء في مقدمة المنزل. أشارت برأسها محيية صاحبة المنزل، وجذبت زوجها من يده بعيداً، تمشيا أسفل الشارع، كان مليئاً بأناس يتسوّقون من صناديق مؤقتة على الشارع مليئة بالخضروات والفواكه.

سألها إن كانت ترغب في أن تستقلّ الحافلة.

قال لها:" إلى أين؟"

قالت: "إلى أيّ مكان..."

من داخل الحافلة، قامت بإحصاء عدد المنازل الكبيرة المتفرقة والمنازل المتطابقة في صفّ واحد، عدد إعلانات صالونات التجميل، عدد أبراج الكنائس وعدد محطات الوقود. ضغطت بوجهها على نافذة الباص بينما كان الضباب المنبعث من أنفاسها يحجب رؤيتها للشوارع وهي تجتازها بسرعة. رجعت إلى مكانها وهي تتأمله جالساً بجوارها. ما تزال بعض آثار النوم على عينيه. كان ينظر إليها بعطفٍ من يودّ أن يضع نفسه مكانها، أن يرى كلّ شيءٍ للمرّة الأولى مثلها، ولكنه لن يستطيع.

أخذها لحديقة في منتصف بروكلين اسمها بروسبيكت. تمتدّ مساحات شاسعة من الأرض المزروعة والأشجار والممرات. تمشّيا عميقاً عبر الحديقة حتى اختفت عن نظرهما أغلب المباني المحيطة، والّتي ترتفع كجبال شاهقة فوق عرض المدينة. في كلّ أحلامها لم تتخيل أبداً مكاناً كهذا.

أخبرها أنّ هذه الحديقة الضخمة هي المكان الذي يذهب إليه يتأمّل الفصول، الأوقات الضائعة، والمسافات الرّحبة.

تجاوزت السّاعة السابعة مساءاً حين ظهرا من بين أشجار الحديقة متوجهين إلى شارع البارك آفينيو. التقطت يده في الساعة الخامسة وأحد عشر دقيقة، كما لاحظ، ولم تفلتها منذ ذلك الوقت. والآن بينما كانا يسيران على طرف شارع خافت الإضاءة، أبقت نظرها للأعلى باتجاه نوافذ الشقق المضاءة بضوء أزرق يندفع من شاشات التلفاز.

حين قالت إنها جائعة، أخذها لشارع فلاتبوش بحثاً عن شيء يأكلانه. مشيا يدا بيد بين جموع من الغرباء فتذكر جزءاً آخر من احتفالية مسرح جاكيمال كان مصدر إعجاب بالنسبة إليه. حين يتنكر عروس وعريس في أجمل الملابس ويسيران في الشوارع باحثين بين جموع المحتفلين، ثم يختاران أكثر الوجوه برودة ويسألانه هل تزوجنا؟ وخلال أيّام الاحتفال ومن باب

التغيير يغيران السؤال ليصبح هل ارتبطنا ببعض، هل صرنا واحداً الآن؟ هل رُبِطَ شريط الحبّ حول أعناقنا؟

المضحك، أنه حين يوافق الشخص، وينظر بدقة أكثر يكتشف أن العروس في الحقيقة رجلاً أحسن التّخفي أو العريس امرأة أبدعت في زينتها.

في الحافلة الشبة فارغة المتجهة لمنزلهما، جلس أمامها وليس بجوارها كما فعل في الصّباح. تظاهرت أنها كانت تنظر إلى أضواء اللّيل المشعّة عبر النّافذة خلفه وكان يتأملها بصراحة. هذه المرّة كان يحاول أن ينظر إليها كأول مرّة، ولكنّه لم يستطع.

كانت تفكر أيضاً بالكرنفال وفي السّنة التالية للقائهما الأول، وكيف ارتديا ملابس العروس والعريس باحثين عن أحد يزوجهما. ارتدت زي العروس وكان هو بزي العريس متجاوزين النكتة التقليدية.

وفي نهاية الاحتفال، أحرقت فستان الزّواج في النار الملتهبة، كما أحرق هو بدلته. تمنت الآن لو أنهما حافظا عليهما فربّما كانا سيمشيان في هذه الشوارع الغريبة، ممثلين احتفالها الخاص. وبما أنها لا تعرف اللّغة، فلن تستطيع الحديث مع أيّ أحد أو سؤال الوجوه المتجمّدة حولهم. وربما استطاعوا أن يكملوا مسيرة زواجهم العلنية بصمت مؤقت على عكس ما يحدث لهم لهم الآن.

3

طفل الماء

وصلت الرّسالة في أوّل يوم من الشّهر، كما هي العادة.

وككلّ الرّسائل السّابقة، كتبت هذه الرسالة بخطّ مزخرف جميل، باستخدام حبر أزرق، على ورق أبيض خفيف وشبه شفاف.

عزيزتي نادين،

نحنُ على درجة كبيرة من السعادة لهذه الفرصة التي استطعنا أن نكتب لك فيها. كيف حالك؟ نحن بخير جميعاً، الشكر لله، ماعدا أبوك. لا يمكن التنبؤ بحالته الصّحية أغلب الوقت. اليوم ركبتاه تؤلمانه، وغداً سيؤلمه شيء آخر. تعلمين كيف يصبح الشخص حين يشيخ.

نشكرك على المال الذي أرسلته الشهر الماضي. نعلم كم هو صعب هذا الوضع الذي تمرّين به الآن، ولكننا ممتنون جدا بما تفضلتِ به علينا. يرغب والدك أن يذهب لطبيب آخر هذا الشهر. لم نسمع صوتك منذ مدة، وآذاننا تتوق له. نرجو أن تهاتفيننا قريباً.

خُتمت الرسالة بعبارة: " أمك وأبوك اللذان يحتضنانك بدفء"

مرت ثلاثة أسابيع منذ وصول الرّسالة، ونادين لم تهاتفهم بعد. انقضّت على مدخراتها لترسل لهم ضعف المبلغ ولكن لم تهاتفهم. بدلاً من ذلك، كانت تخرج الرّسالة لتقرأها كلّ يوم في فسحة الغداء في المستشفى حيث تعمل بينما كانت تتناول ساندويتش تونا في المستشفى.

فسحة الغداء أصبحت أكثر متعة حين قررت أن تضيف قطعة من كعك البراوني كلّ جمعة للتغيّر.

في كلّ مرةٍ تقرأ الرّسالة كانت تبحث عن شيء آخر. بحثت بين السطور عن تلميح بالعطف، بالشّفقة، بالتّعزية. ولكن لا يوجد شيء. مع مرور الوقت أصبحت الرّسالة هشة ومهترئة. وفي كلّ مرّة تحملُ فيها الرسالة بين أصابعها، تتساءل كيف لم تخرقها أمّها بقلم الخط الذي استخدمته لكتابة العبارات المزخرفة بعناية. كيف تمكّن ساعي البريد في بورت-أو-برنس وثمّ في بروكلين من الحفاظ على هذه الرّسالة الهشة أو الظّرف من التّمزّق؟ وكيف لم تتحوّل الرّسالة إلى بقايا في حقيبة يدها وهي في الباص في طريقها إلى العمل كلّ يومٍ؟ أو عندما تحتكُّ بالقماش الدّاخلي لجيب بدلة التّمريض حيث تضع الرّسالة طوال يوم العمل؟

حين لمحت جوزيتا أحد زميلات العمل تقترب، طَوَتِ الرّسالة ووضعتها مرّة أخرى في الجَيبِ. كانت تجلسُ على طاولة بالزّاوية تقع بجانب النافذة، حيث تجلس دائماً ساعة كاملة في عزلة. قبّلتها جوزيتا على خدّيها وهي تبحث عن بعض المال في جيبها للغداء. بدأت فسحة غداء جوزيتا عندما انتهى وقت نادين.

ابتسمت نادين لبساطة جوزيتا في أن تبادر بتحيّة روتينية ولكن لا تخلو من حرارة ملتفتةً للنافذة وهي تتأمّلُ المنظر في الخارج. نظرت إلى المباني البنيّة والشبابيك التي أغلقت بإحكامٍ. تركت لعينيها حريّة التحديق بجناح

الأمراض النفسية في الجهة المقابلة، وتركت لعقلها حريّة الاستمتاع بخيال لطالما تصورته، منظر أحد المرضى محلقاً كالحمام من أحد الشبابيك.

قالت جوزيتا: "خرجت الآنسة هايندز من العناية المركزة"

ثم أكملت بالكرايول: " كانت غاضبة جداً لأن الدكتور فيجا قد أمر بإعطائها مهدئا للأعصاب."

عملت نادين وجوزيتا في قسمين مختلفين من قسم أمراض الأذن والأنف والحنجرة، وشاهدتا العديد من المرضى بعد الإفاقة من العملية مذهولين لعدم قدرتهم على الكلام، وبالرغم من كل الشرح المطول المسبق من قبل الدكاترة والممرضين والمستشارين النفسيين. ما زالت عدم القدرة على الكلام تشكّلُ صدمة.

كانت جوزيتا تعطي نادين تقريرا مختصراً عن حالة المرضى قبل أن تتبادلا الأماكن على طاولة الغداء. جوزيتا ممرضة صغيرة في السن من هايتي، أحد المهاجرين اللذين قدموا إلى بروكلين في سنّ صغيرة جداً، فهي تتحدث الإنجليزية دون أي لكنة غريبة. ولكن كانت تحب أن تزخرف أحاديثها بعبارات من الكرايول متباهية بأصولها. ولولا أحاديث فسحة الغداء أوحين تحتاج أحدهما مساعدة مع مريض، لم تتحدثا لبعضهما.

قالت نادين وهي تقوم من الكرسي: " حان وقت العمل، سوف أترك عرشي لك."

حين عادت نادين لشقتها الصغيرة في حي كانارسي في بروكلين ذلك المساء، استقبلتها أصواتٌ من التّلفاز الذي تتركه مفتوحاً طوال اليوم، والجرائد والمجلّات متناثرة بين الكنبة والمكتبة في غرفة الجلوس. التّلفاز كان وسيلتها لتستأنس بأصوات في حياتها اليوميّة، أصوات لا تَطلب ولا تُلبّي.

وهي الآن في سنّ الثلاثين، كانت قد جربت أغلب الهوايات من الرقص الأفريقي إلى دروس الرّسم إلى تصفّح الانترنت، ولكن كل هذه الهوايات كانت تتطلّب مجهوداً أو تواصل مع أناس بالكاد تعرفهم، ولذلك اعتزلتها.

خلعت جزمة الرّياضة البيضاء التي كانت ترتديها في العمل، وتسمرت واقفة في مكانها تتابع آخر عشر دقائق من نشرة الأخبار.

حين تبدّل البرنامج إلى برنامج مسابقات، تحرّرت من مكانها وضغطت على الزر المضيء على الهاتف. الرّسالة الوحيدة التي وصلتها كانت من إيريك حبيبها، خطيبها، عشيقها وتقريباً الأب لطفلها الذي كان على وشك أن يكون.

جاء صوته من خلال التسجيل متلعمثاً: "آلو، هالو، هاي" باللّغات الثلاث الكريول، الفرنسية والإنجليزية، متوقفاً بعد كلّ كلمة، كطفل مهاجر وصل لتوّه للبلد الجديد وفقد قدرته على الكلام، فاضطر والداه لأن يأخذانه لطبيب النّطق بالرّغم من أنه لا عيب في نطقه أو في مخارج حروفه.

أكمل بعد فترة من الصّمت: "أحببت فقط أن أسلّم عليك".

يبدو أنه اختار أن يقولها بإنجليزيته الثقيلة، وبعد صمت قصير أكمل: "أوكي، باي."

كلّما ترك لها رسالة هاتفية، تقريباً مرّة بالشهر منذ انفصالهما، أخرجت شريط التّسجيل من الهاتف ووضعته كضريح نصبته فوق طاولة التزيين في غرفة نومها. كان النُصب بسيطاً، إطارا خشبيا وبداخله رسمة لطفل بلون بني غامق كالشكولاتة وعينان لامعتان. خدي الطفل كانا يشبهان خديها الممتلئين المتوردين، والجبهة تشبه جبهة إيريك. بجانب الإطار الخشبي البسيط كان هناك مجموعة من الورود الحمراء الجافة قد أعطاها إياها إيريك

بعد أن خرجا من العيادة بعد العملية.

كانت قد قرأت مرّة عن مزار مقدّس في اليابان للأطفال اللذين لم يولدوا، وفيه يصبّ الماء فوق الأضرحة الحجرية تكريماً لهؤلاء الأطفال. ولذلك ملأت كأسها المفضّل بالماء وأحجار زينة صغيرة وأضافته لنصبها الذي صنعته وبجواره سبعة أشرطة تسجيل فيها رسائل من إيريك. رسائل لم تجب عنها مطلقا.

في هذه اللّيلة كانت الشقّة صامتةً جداً بالرّغم من الأصوات القادمة من التلفزيون. أخرجت رسالة أمّها لتقرأها مرّة ثانية، مرّرت أصابعها على الورق الخفيف، ثمّ مدت يدها للهاتف لتتّصل بوالديها. في الثلاثة شهور الماضية حاوَلت مراراً أن تتّصل بهما، ولكن في كلّ محاولة تخسر شجاعتها. كانت تخشى أن يخونها صوتها ويخبرهما بكلّ ما لا تستطيع قوله. هذه المرّة ضغطت تقريباً على أغلب الأرقام، لم يبق سوى رقمين قبل أن تغلق سماعة الهاتف، وتمزّق الرّسالة إلى جزئين، ثم أربعة، ثم ثمانية، ثمّ تمزّقها إلى أجزاء لا متناهية قبل أن تسقط بين مجلاتها القديمة وتنوح باكية.

وصلت رسالة أخرى بعد أسبوع لبيت نادين. على نفس الورق الخفيف، ولكن هذه المرّة كانت الكلمات متقطعة وغير مرتبة. بعض الحروف كالألف والواو عُدّلت بالكتابة فوقها مما ترك بقعا من الحبر وخروقا على الورق.

عزيزتي نادين،

أنا ووالدك نشكرك جداً على النّقود الإضافية. استخدمه أبوك ليرى الطبيب، ليس لركبته ولكن للبروستاتا كان الطبيب قد قال إنها ملتهبة. لا داعي للقلق، أعطاه الطبيب بعض

الأدوية ويبدوا أنه سوف يكون بخير. كلفتنا التّحاليل أكثر ممّا رتبنا صرفه لهذا الشّهر ولكن سوف نتدبّر الأمر. نرغب جداً في الكلام معك. ننتظر اتصالك ظهيرة كلّ أحد، نأمل في أن نعود لعادتنا الجميلة. و ندعو الله أن لا نكون قد استغلّينا كرمك ولكن أنت طفلتنا الوحيدة و لا نطلب منك أي شيء أكثر من حاجتنا. تعرفين كيف تسيرُ الأمور مع التقدّم في السن. حاولنا الاتصال بكِ مراراً، ولكن يتمّ إجابتنا بتحيّة من قبل المجيب الهاتفي، والذي لا يقبل ترك رسالة من خارج الدّولة. على كل حال، سوف ننتظر اتصالك.

أمك وأباك اللذان يحتضنانك بقرب

في اليوم التّالي، تجاهلت نادين ساندويش التونا تماماً لتقرأ الرّسالة مرّة خلف أخرى. لم تنتبه للوقت، وانتهت ساعة الغداء. وصلت جوزيتا، كما يبدو لنادين، مبكراً. جوزيتا، كبقية الممرضات في المستشفى، تعلّمت ألا تسأل نادين عن ماضيها أو حاضرها أو مستقبلها أو حتّى عن رسائلها الدّولية. الإشاعة التي تناقلتها الموظفات القديمات مع الجديدات أن نادين أوسناك ليست اجتماعية. أي شخص حاول أن يتكلم معها بأمور شخصية أو يبدي رغبة في أن يشاركها الغداء كان يقابل بصمت بارد أو نظرات فارغة مصوّبة باتجاه قسم الأمراض النفسيّة. وبالرغم من ذلك، غامرت جوزيتا أكثر من مرّة في أن تتكلّم مع نادين خارج نطاق العمل، بما أن أصولهما واحدةٌ وما إلى ذلك.

قالت جوزيتا: "سوف يذهب بعضنا إلى وسط المدينة بعد العمل. احتفال بسيط بمناسبة خروج السيدة هايندز غداً، هل تحبين أن تشاركيننا؟"

ردت نادين وهي تغادر طاولتها أسرع من العادة:" لا شكراً"

في عصر نفس اليوم، بدأت الآنسة هايندز برمي أشياء على أرضيّة غرفتها الخاصّة، وكان هناك القليل جداً من الغرف الخاصّة في ذاك المستشفى. هرعت نادين للمساعدة، وحين دخلت الغرفة كادت مزهرية أن تصيبها على وجهها. وعلى عكس بقية المرضى في ذلك القسم، كانوا في منتصف العمر أو أكبر، كانت الآنسة هايندز بعمر الخامسة والعشرين وغير مدخنة.

وصلت نادين للغرفة وكان المنظر رهيباً. كانت الآنسة هايندز تحطّم ما يحيط بها من أشياء، والممرّضات، خوفاً من أن تنتزع الأنبوب المعدني المغروس في رقبتها، يحاولن تثبيتها على السّرير ليقيدن يديها وقدميها. أسرعت نادين لتشارك في هذا الصّراع، مركّزة على تثبيت اليد اليمنى التي تكشف عن آثار الحقن الوريدي المتجددة في كلّ مرّة يحاولن إيجاد الوريد الصعب.

صرخت جوزتا متألمةً بعد أن تلقت ركلة على صدرها من ركلات الآنسة هايندز الغير متوقعة: " أين الدكتور فيجا؟"

أما نادين فقد فقدت السيطرة على يد الآنسة هاينز المعلمة بآثار الحقن، كانت تتأمل عن قرب وجهها. عيناها قد ارتفعتا لمكان ما تحت حاجبيها، وشفتها السفلى قد رقّت جداً ونتأت أمام شفتها العليا، كما لو أنّها في مسابقة للبصق لأبعد مدى. جسدها نقيّ من الشّعر تحت ثوب المستشفى الأزرق، بلا قبّعة أو غطاء ليحمي رأسها الذي أصبح أصلع تمامًا.

قال أحد الممرضين الذكور:" الطبيب في الطّريق."

كان ممسكاً بقدم الآنسة هايندز اليسرى بقوّة، ولكنه لم يستطع أن يثبتها

وقتاً كافياً ليقيدها بالسرير.

صرخت نادين بالآخرين فجأة: "اتركوها"

وواحداً تلو آخر، كان الممرضون يتركون الآنسة هايندز لصراعها المسعور. قلّت رغبتها بالصراع، ثم تكومت كجنين وغاصت في وسط السرير.

قالت نادين بنبرة أرق:" اتركوني معها وحدنا."

وواحداً تلو آخر، خرج بعض الممرضين بتردّد. ولكن كان عليهم أن يذهبوا فلديهم مرضى آخرين ليعتنوا بهم. أنزلت نادين حواجز السرير الحديدية لتعطي الآنسة هايندز إحساساً بالحرية ولو كان محدوداً.

سألتها:"آنسة هايندز، هل هناك شيء تريدينه؟"

فتحت الآنسة هايندز فمها على آخره، حاولت أن تدفع بالهواء خارج حنجرتها، ولكن كلُّ ما خرج كان مجرّد حسحسة للأكسجين وبعض البلغم مُرَشّحاً من خلال الأنبوب المغروس في رقبتها.

نظرت إلى الطاولة الجانبية لسرير الآنسة هايندز باحثة عن قلم ودفترَ، ولكن لم تجدهما. فقد أوقعتهما الآنسة هايندز أرضاً مع المجلات التي أحضرها لها والديها. خَطَت نادين بضع خطوات وركعت لتلتقطهم من الأرض. وضعت القلم بيد الآنسة هايندز التي كانت ما تزال متكوّمة ككرة في وسط السّرير. وبنظرات حائرة، التفتت باتجاه نادين ممددة جسدها المنكمش.

قالت نادين وهي تمد الدفتر على بعد بعض السنتيمترات من وجه الآنسة هايندز:" يّلا، أنا هنا، قولي لي."

مدت الآنسة هايندز يديها النحيلتين وحملت الدفتر بأحدهما لتكتب

بالأخرى، كانت تجبر نفسها على الجلوس، ولكن وهنها يجبرها على السّقوط، ساعدتها نادين بوضع بعض المخدّات خلفها ليسهّل عليها الاتزان في الجلسة.

خطت بعض الكلمات بسرعة، ثمّ رفعت الدفتر لنادين لتقرأ. في البداية لم تفهم نادين الكتابة، فقد كانت متعثرة مستعجلة ومتداخلة. ولكن نطقت نادين الجملة حرفاً حرفاً بصوت عالي مشجعة الانسة هايندز على المشاركة والتي بدورها كانت تحرك رأسها ببطء في علامة موافقة كلما نطقت نادين حرفا صحيحا.

تهجّأت نادين: "لا أستطيع أن أتكلّم."

ثم قالت: "صحيح، لا تستطيعين الكلام."

دهشت الآنسة هايندز لردّة فعل نادين الباردة، أخذت الدّفتر مرّة أخرى لتخطّ:" أنا معلمة"

قالت نادين:" أعرف".

خطت سطراً آخر قائلة:" لم ترسلوني للبيت وأنا في هذه الحالة؟"

قالت نادين:" لأننا فعلنا كل ما نستطيع والآن عليك أن تذهبي لمتخصّص في النطق. سوف يساعدك في الحصول على حنجرة صناعيّة."

كتبت الآنسة هايندز:" أشعرُ أنني أشبه بباسنجي."

نطقت نادين كل حرف مستفسرة:" ب ا س ن ج ي؟"

كتبت الآنسة هايندز:" كلب لا ينبح"

سألت نادين:" كلب لا ينبح؟ أي نوعٍ من الكلاب هذا؟"

كتبت الآنسة هايندز وهي تعض على شفتها السّفلى لتمنعها من الارتعاش: "موجود".

في تلك اللّيلة وجدت نادين نفسها مرهقة أكثر من العادة. التلفاز كان مفتوحاً على الأخبار، لا لهدف سوى خلق ضوضاء مألوفة. اتصلت على منزل إيريك لعلّها هذه المرة تسمع صوته لمدّة أطول من الخمس والعشرون ثانية في آلة التسجيل الهاتفي. فكرت في إمكانية تواجده في المنزل الآن، ليرتاح قليلاً قبل أن يبدأ عمله الثاني كبوابٍ ليلي في كلّية ميدجار إيفيرست.

وفجأةً، سرحت بالتّفكير. ماذا تقول له؟ كانت تحاول أن تفكّر بشيء بسيط، كحديثٍ تافهٍ عن الطّقس أو الأحوال. ومن خلال السماعة جاء تنبيه بأن الرّقم قد تم تغييرهُ، فأغلقت السماعة فوراً.

أعادت الاتصال مجدداً، ومجدداً استمعت لنفس الرّسالة. وبعد عدّة محاولات، قررت أن تتّصل بأهلها.

قبل عشر سنوات، باع والديها كلّ ما يملكان وانتقلا من منزلها في حيٍّ لمتوسطي الدّخل لبيت آخر على أطراف المستنقعات لكي يوفرا لها المال اللازم لتلتحق بمدرسة التمريض. قبل عشر سنوات كان حلمها أن ترى العالم وأن تترك بصمتها عليه. وهذا ما اقترحته لتقنع أمّها مدرسة الصفوف الأولى ووالدها سائق العربة. ولهذا الحلم قدما التضحية، ولكن لا بأس فقد كانت تعرف أنها سوف تعيد لهما كل ما فقداه. وفعلاً فقد كانت ترسل لهما نصف مرتبها وأحياناً أكثر قليلاً.

وفي المقابل، الذي حصلت عليه أن تكون أمهما بدل أن يكونا والديها. وبالرغم من ندرة الاتصالات الهاتفية بينهم، كل مرة كانت هي من عليه أن يتصل بهم بدل أن تستقبل اتصالا منهم، كانت تحتاج أن تشعر بالحماية

بدل أن تحميهم، أن تشعر بالأمان بين فترة وأخرى، لعل للجروح أن تشفى، ولعل بعض الاختيارات الصعبة لن تعاود إرعابها في الأحلام مرّة أخرى.

انخفضت نبرة صوتها لتصير أشبه بهمسات خافتة ثمّ سرعان ما غمرتها سعادة بسماع صوت أمها عبر خطّ الهاتف وهي تقولُ:" مانمان..."

ومع كلِّ عبارة كان ينخفض فيها صوت نادين، كان صوت أمها يرتفع: "حبيبتي، كنا قلقين عليك جداً. كيف حالك؟ لم نسمع صوتك منذ زمن."

قالت:" أنا بخير، مانمان."

"صوتك حزين، صوتك متعب. يجب أن نرتب لزيارة قريبة. أن تزورينا أو أن نزورك في أوّلِ فرصة حين يستطيع بابا السفر."

سألت:" كيف حال أبي؟"

" قريب. سوف أناديه ليتكلم معك. سوف يفرح جداً لسماع صوتك."

وفجأة سمعت صوت والدها، كان صوته أهدأ ولكن ليس بدون سعادة، سعادة الأب الخفية. قال: " انتظرنا طويلاً هذه المكالمة يا غاليتي."

"أعرف بابا. كنت أعمل كثيراً".

لم تكن هذه المكالمات الهاتفية للحديث عن الأحزان والأشياء الصعبة. لا يناقشون الأمور المادية، المرض، أو زيارات الطبيب. وكان أبوها يخفي آلامه وأوجاعه خلال المكالمات، والتي تُفَّصلها أمها في الرسائل. هذه المكالمات للأحداث العابرة، للانجازات، ليست لنقاش الخسارات والفقدان. ليست للأحاديث التي نخرت المزاج طيلة أيام، أسابيع، أشهر وحتى الاتصال الآخر.

قالت أمها حين أخذت السماعة: "هل لديك حبيب؟ خطيب؟" ونادين

كانت شاردةً بخيالها كطفلة تقفز في غرفة الجلوس. قاطعتها أمّها:" هل هناك أحد في حياتك؟"

ردت: " لا أحد، مانهان."

قالت أمها:" لا تنتظري طويلاً، الوحدة ليست رفقة جيدة في الكبر."

" طيب، مانهان."

" رأينا طائر الطنان اليوم." كانت أمّها ترغب في الانتقال بين المواضيع هكذا.

كان والديها يحبان الطيور، وبخاصة طائر الطنان. وفي كلّ مرة يشاهدان واحداً، ينقلا الخبر السعيد لها. وبما أن كلّ ولد في مدرستها جعل هدفه في الحياة أن يصطاد هذا الصنف من الطيور، في كلّ مرة كانت تتعجب أن هذه الطيور ماتزال موجودة في بورت-أو-برنس وخاصة في حيّهم.

قالت أمها:" كان صغيراً جدا."

وسمعت والدها من الخلفية يضيف:" صغير ولكن ذكي جداً، سوف يعيش طويلاً. يحب شجرة الكركديه الجديدة. "

سألت نادين:" عندكم كركديه؟"

قالت والدتها:" شجيرة صغيرة، بدأت بالإزهار، جلبت لنا بعض النحل ولكن لا اعتقد أنّه يكفي لتشكّل خلية كاملة"

قالت نادين:" رائع جداً، مانهان. مضطرة أن أذهب الآن."

"أنتظرُ اتصالك قريباً؟"

"قولي لبابا ليلة سعيدة"

" حسناً يا قلبي"

" أعدك، سوف أتّصل مرة أخرى"

في صباح اليوم التالي، جلست نادين في غرفة الآنسة هايندز، تشاهدها ترتّب أشيائها في حقيبة، ثم ترتدي بدلة تمرين صفراء فاقعة اللّون وكبيرة المقاس ثمّ عدّلت من قبّعتها في انتظار الطّبيب المناوب أن يوقّع على أوراق الخروج.

كتبت الآنسة هايندز على دفترٍ امتلأ نصفه بأوامر للممرضات وملاحظات لوالديها عن تطورات حالتها الصحية

"اشترت أمي هذه البدلة القبيحة"

سألتها نادين: "هل من أحد سوف يجيء ليأخذك للبيت؟"

كتبت الآنسة هايندز:" والديّ"

ومدت يدها لتمسّ طرف الأنبوب الحديدي على رقبتها، بدا كما لو أنها كانت تخشى من أن يراه الوالدان.

قالت نادين: "ممتاز، سوف يأتي الطبيب حالاً."

رغبت نادين في أن تقول للآنسة هايندز محذرة من أن إحساس الراحة الذي تشعر به الآن هو شعور مؤقت وسوف يختفي. الحنق الذي تشعر به بسبب فقدان صوتها سوف يصيبها كل يوم كما لو أنّه يحدث لأول مرّة. في كلّ مرّة تحلم فيها أنّها تتكلم ثمّ تستيقظ لتكتشف خرسها، وفي كلّ مرّة ترى شيئا يرعبها ثم تتذكر أنها لا تستطيع الصراخ طلبا في النجدةِ، أحين تبدأ بنسيان صوتها وفي كل مرة تسمعه من تسجيل قديم لا تميزه. ولكن نادين لم تقل شيئاً، لأن الآنسة هايندز كبقية المرضى سوف تكتشف ذلك بنفسها.

قضت نادين نصف فسحة الغداء محدّقة بصمت في النّوافذ المغلقة على المبنى البنّي على الجهة المقابلة. كانت تشاهد ممرضات القسم النفسي يقومون بعملهم، يملأن اللوح بالمهام ويجبن على الاتصالات الطارئة.

أقبلت جوزيتا باكراً على غير عادتها، فسألتها نادين: "ماذا هناك؟"

قالت جوزيتا: " الآنسة هايندز طلبت أن تراك لتودّعك."

فكرت نادين في أن تطلب من جوزيتا أن تدعي أنها لم تجدها، ولكن تملّكها خوف من أن تستغل جوزتا ذلك ضدها مستقبلاً.

كانت الآنسة هايندز ووالديها ينتظران نادين بجانب المصاعد، تجلس على كرسيٍّ متحرّك، وعلى حضنها أوراق تصريح الخروج وكيس بلاستيكي شفاف ملىء بأشياء غير واضحة.

والدها، رجل عظيم البنية ووسيم، كان ممسكاً بالكرسي المتحرك من الخلف بقوة كمن يخاف أن ينفلت منه، ووالدتها نحيلة وقصيرة، تشبه ببنيتها الآنسة هايندز. بدت كما لو أنها كانت تقاوم البكاء، تقاوم الدموع، تقاوم غضباً عارماً متبادلاً مع الرب. ولكن في المقابل حوّلت غضبها إلى أوراق تصريح الخروج التي سحبتها بقوة من يد ابنتها. أبدت الآنسة هايندز بعض التذمر، وخطّت بدورها على الدّفتر:" الممرضة أوسناك، والدي نيكول وجستن هايندز."

صافحت نادين يدا الوالدين بالتّرتيب.

قال الوالد:" تشرفت بمعرفتك." والأم لم تقل شيئاً.

أكمل الأب:" شكراً لك على كل شيء. بلّغي امتناننا لجميع الأطباء وبقية الممرضات"

انفتحت أبواب المصعد فجأة، ووجد الواقفون أنفسهم محاطين بالأجساد التي ملأت المصعد. عدد من الأطباء والممرضات المرتحلين بين الطوابق. تركت عائلة هايندز المصعد يذهب دونهم وانتظروا. قلبت الآنسة هايندز صفحات الدفتر لصفحة بيضاء وكتبت:"مع السلامة."

قالت نادين:" بالتّوفيق."

انفتحت أبواب المصعد مرَّة أخرى، وكانت هناك أجسادٌ أقل هذه المرة. دفع الوالد الكرسي المتحرك إلى الأمام بقوة فكادت الآنسة هايندز أن تقع على وجهها.

أُغلقت أبواب المصعد بإحكام، وجدت نادين نفسها تحلّق بظلّها المنعكس على الأبواب الواسعة واللامعة الحديدية. إن كانت ما تزال حاملاً ولم يجهض الحمل بعد شهرين، فمن الممكن أن يكون موعد الولادة اليوم، ربما غداً أو حتى بالأمس ولكن بالتّأكيد أحد أيام هذا الشهر. تأملت هذه الفكرة لثانية، ثم فكّرت في والديها، في إيريك، في غرفتها، في الماء بجانب النصب، في بيتها هي ليست لها. كلُّ هذه الأشياء ملك للمرأة المعوّجة والحائرة التي تحلق بها من على الانعكاس على الأبواب الحديدية المغلقة.

4

كتاب المعجزات

في طريقهم إلى المقبرة، تحدثت آن عن المعجزات. كانت تحكي لزوجها وابنتها قصّة كانت قد سمعتها حديثاً في أحد القنوات الدينية المشفّرة حول فتاة لبنانية بعمر الثانية عشر تبكي قطعاً من الكريستال.

من المقعد الأمامي صرخت البنت "أح" بوقع فكاهي. لم تحب آن أبداً سماع كلمات الاستهتار من أفواه المراهقين خاصّة بعد قصة كهذه، ولكن ابنتها كانت قد طوّرت بعض الكلمات مثل: " أح!" "رهيب،" "أوكي،" أو "ما يهمّني" منذ أن كان عمرها أربع عشرة سنة للردّ على أي موضوع فوق فهمها.

فكرت آن في توبيخ ابنتها، وإلزامها بالكلام كامرأة بالغة. فيجب عليها أن تزن كلّ كلمة تخرج من فمها. لربما يعاملها الناس ببعض الجدّية بالرّغم من كونها فنّانةً. ولكن امتنعت متوقعةً أنَّ ردّةَ فعلِ ابنتها سوف تكون: "حسناً، لا يهم مانمان، أكملي قصتك."

كان زوجها على العكس تماماً إذ كان يساعدها على الاستفاضة في تفاصيل قصص المعجزات، وعلى تنبيه الابنة إلى وجوب تغيير لغتها الغير مبالية.

قال بالكرايول:" إذا خرجت كريستالات من عينيها، أليس معنى ذلك أنها تبكي دماً أيضا؟"

ردت آن بسرعة:" وهذه هي المعجزة بالضبط، قطع الكريستال كانت حادّةً كالسّكين ولكن لم تؤذها"

سألها الزّوج وهو يخفّف من سرعة السّيارة ليدخل طريق جاكي روبينسون:" ما حجم هذه القطع؟"

نظرت آن نظرة أخيرة إلى المباني المحيطة، كانت تَشُعّ على غير العادة بأضواء قادمة من أشجار عيد الميلاد داخل البيوت، ومن الشموع المضاءة للهنوكا (عيد اليهود) والكوانزا (عيد أمريكي أفريقي) على النوافذ. حاولت أن تحفظ هذه الصور في مخيّلتها، أشجار صنوبر منيرة، شموع كهربائية ولوح كرتون كبيرة بصورة بابا نويل.

استدارت السيارة لليمين لتدخل شارعاً ضيقاً وغير مضاء. كانت تكره هذا الطريق، ولم تكن لتذهب إليه لولا أنه من المهم لها أن تحضر مع ابنتها وزوجها قداس ليلة ميلاد المسيح في الكنيسة. فقد أعلنت ابنتها الحادها حين كانت في الكلّية. وبين ابنتها التي اختارت ألا تؤمن بإله وبين زوجها الذي كان يذهب كلّ أسبوع لمتحف بروكلين ليتعبّد، كما كان يبدو لها، عند أضرحة المصريين القدماء الفارغة، شعرت بالضعف وبأن الجهلاء قد فاقوا عدداً.

أوشكت آن أن تقول لابنتها وزوجها إنَّ قطع الكريستال المتساقطة من عيني الفتاة اللبنانية كانت بحجم عشرة قراريط من الألماس. ولكن تجاوزت هذه الفكرة لأنّها توقّعت مجدداً ردّ ابنتها:" أظن أن أهلها تمنوا لو أن الكريستال كان فعلاً ألماس."

وصلوا إلى المقبرة. وفي كل مرة تعبرُ خلال مقبرة، تحبس آن أنفاسها. عندما كانت صغيرة ذهبت مع أخيها ذو الثلاث سنوات للسباحة على شاطئ جراند جواف، واختفى تحت الأمواج. أقنعت نفسها منذ الوقت أن

شقيقها لم يزل يبحث عن قبره. وكلّما ذهبت إلى أيّ مقبرةٍ، كانت تتخيّله هناك بجسده الصّغير المبلّل منعكفاً على شواهد القبور باحثاً عن اسمه وعيناه بلون الرماد.

سارت السيارة خلال المقبرة، فحفتهم المقابر من اليمين واليسار، وشواهد القبور كانت تلمع مع ضوء اللّيل. حبست نَفَسها كما حبسه أخوها قبل أن يهبط همّ البحر على رئتيه الصغيرتين، وقبل أن يستسلم للماء ويغرق في عالم نجوم البحر، والسلاحف، والطحالب، وأسماك القرش.

قاطَعَت البحر منذ فقدانها لأخيها، وكلما رأت صوراً للبحر على التلفاز غاص قلبها وأسرعت نبضاته. فكرت باستغراب، من قرر أن يضع شارعاً للمرور وسط مقبرة، مجبراً الأحياء وضوضائهم أن يمروا بين الموتى؟ لا يبدو أن فهماً قد يدرك من هذا القرار ولكن ربما فكر مهندسوا المنطقة بأبعد من احتياجات الأحياء. مثلاً، هل فكروا أن أصوات الحياة المسرعة قد تؤنس وحشة الموتى؟ وإذا كان هذا التحليل صحيحاً، لماذا يتجاهل الأحياء علامات وجود الموتى حولهم: الظّلال المتحركة مع النسيم، ضحك وبكاء الأطفال المفقودين، وهمسات المحبين كأحلام منسية.

سمعت ابنتها تقول:" المقبرة وراءنا."

قد أغلقت آن عينيها بلا شعور. كانت البنت تعلم أن أمّها لا تشعر بشعور جيد حول المقابر، بالرغم من أن آن لم تخبرها بالسبب. توصلت البنت لاستنتاج منذ أن كانت صغيرة، أن تجربة أمها مع المقابر مثل الكثير من التجارب الغير مفهومة في حياة والديها له علاقة بشيء في ماضيهم في هايتي.

قالت البنت:" أنا سعيدة أن أبي لا مشكلة لديه مع المقابر مثلك، وإلا كنّا في مقبرة الآن."

أخرجت البنت سيجارة، والتي اعترض عليها والدها بحركة من يده. كان يدخن كثيراً في السابق، أما الآن فلا يحتمل الرائحة.

قال:" حين تخرجين من السيارة."

ردت البنت:" حاضر يا سيدي."

وأرجعت السيجارة لمكانها في العلبة.

نظرت لصفوف الأشجار العارية والعابرة من جوارها ثم قالت: " أوكي مانمان، أخبرينا عن معجزة أخرى من فضلك."

في قديم الزمان، قبل ثلاثين سنة تحديداً، في هايتي، كان والدك يعمل في السّجن، وعذّب الكثير من النّاس. والآن انظري إليه، انظري إلى هدوئه وصبره وحنانه، فقد ساق سيارته أربعة وستين كيلو متراً لشقتك في ويستشستر لكي تأتي معنا لقداس ليلة عير المسيح.

كانت هذه المعجزة التي رغبت آن في حكايتها في هذه الليلة المباركة، المعجزة البسيطة في تحول رجل كزوجها، ولكن بالطبع لا تستطيع، الآن ليس الوقت المناسب. لذلك حكت معجزة من نوع آخر، عن شابٍّ من الفلبين بعمر الواحد والعشرين رأى صورة العذراء محفورة على بتلة وردة بيضاء.

توقعت أن تهزأ ابنتها من القصّة وتقول شيئاً مثل:" عجيب" لتنهي القصة. ولكن هذه المرة أبدت البنت اهتماماً، فسألت:" لماذا كل أبطال

المعجزات أجانب؟"

ردّ الزوج ناظراً لوجه البنت: "لأن الأمريكان لا يملكون ذرة من الإيمان."

قالت البنت: "من الممكن أن الناس هنا عمليين أكثر، ولكن هناك في هايتي أو الفلبين، يرى الناس كلُّ شيء، حتى الأشياء التي ليس من المفروض رؤيتها. مثلاً لو رأيت صورة سيدة على بتلة وردة سوف أفكر بأنه لا بدّ أن أحداً ما رسمها، ولكن حين ترينها يا مانمان، فتفكيرك يستنتج بسرعة أنها معجزة."

خرجوا من شارع جاكي روبينسون ودخلوا لطريق جاميكا المزدحم. حاولت آن أن تسترجع تفكيرها من قصص الماضي وأن تركز على قداس اليوم. أحبت جداً الذهاب للقداس خاصة في عيد الميلاد، فقد كان الوقت الوحيد الذي يذهب فيه ثلاثتهم إلى الكنيسة.

حين كانت ابنتها صغيرة، كانوا يسوقون سيارتهم حول حيِّهم في بروكلين لينظروا إلى أنوار الأعياد. كل سنة كانت تقام مسابقة شرسة من تنظيم جماعة الحي. كانت هناك جائزة لأجمل تنسيق لزينة الميلاد من الأضواء والتماثيل إلى مشهد المولد المسيح. ولكن لم تضع آن أو زوجها أيّ زينة أو أضواء. كانا يخشيان من أن هذه البهرجة قد تلفت الانتباه إليهما. بينما في الواقع عدم المشاركة في البهرجة هو ما جذب انتباه الناس. بعد سنوات من عدم المشاركة، كان من غير المتوقّع أن يتمّ تغيير من قبلهما ومضت عليهم عادة كهذه.

حين كانت ابنتها تقطنُ معهم وبالإضافة للذهاب للقداس، كانت تحتفل بعيد الميلاد عبر نثر قصاصاتٍ من الورق البني تحت سرير البنت

دون معرفتها. الورق البني المقصوص بالطّول كان يشبه القش المستخدم في صنع أوّل سرير لعيسى عليه السلام. وفوق باب غرفتها كانت تعلق غصني شجرة زيتون. كانت قد سمعت من البائع أن هذه الأغصان لديها قدرة على نشر السلام. فلو مرّ متحاربان تحتها لوجب عليهما التحابّ.

لم يكن من عاداتهم أيضاً تبادل الهدايا في موسم الأعياد. كانت آن وزوجها يذكران البنت بالنعم التي لديها: عائلة تحبها وسقف يحميها، بدل أن تنتظر ما يمكن أن تحصل عليه صباح العيد. وهكذا تعلمت البنت في سن باكر جد أن عيد ميلاد المسيح ليس من العطلات التي تسترعي اهتمامها. فلم تهتم بشراء الهدايا ولم تتابع مسلسلات الموسم على التلفاز. الشيء الوحيد الذي كان يبدو أنه مصدر سعادةٍ هو حين يسوقون بين المنازل قبل القداس، وينتقدون أكثرها إضاءه.

زوجها قد يقول شيئاً مشيراً إلى قوس كهربائي تدلت منه لمبات على شكل لوالب جليدية:" انظروا إلى هذا البيت، هل تتخيلون حجم فاتورة الكهرباء؟"

وابنتها قد تقول منبهه على منزل بإضاءة نيون عليها عبارات ترحيبية بالموسم تبرق من غرفة الجلوس:" لن أستطيع النوم في مكان كهذا، لا بدّ أنهم يشعرون أنه نهار على الدّوام في الداخل."

تحركت زحمة الشارع على شارع جاميكا. واقتربوا من كنيسة القديسة تيريزا. كان زوجها وابنتها مشغولون في طقوسهم الخاصة بهذا الموسم، زوجها يتكلم عن الأرقام الفلكية لفواتير الكهرباء بسبب تكلفة الزينة، وابنتها تصف كل بيت مضاء ببذاخة بأنه بيت "كالجحيم المسعر". ولكن آن اشغلت بالها بتذكر ترانيم القداس.

كانت أكثر أغنية تعجبها " عيد الليل"، فترنمت بألحانها وهمهمت بكلماتها بترقّبٍ

نم بسلام الجنان

نم بسلام الجنان

كانت الكنيسة ممتلئة بالناس، بالرّغم من أن القداس لن يبدأ قبل خمس عشر دقيقة. بينما ابنتهما وقفت في البرد في الخارج لتدخن، وجدت آن وزوجها مقاعد في الصف قبل الأخير، بجوار زوجين شابين. كان الزوجان ممسكان بأيدي بعضهما وناظرين باتجاه المذبح. جلست آن بجوار المرأة التي حيّتها بحركة من رأسها بينما كانت آن تحاول أن تحشر نفسها فوق المعقد الخشبي.

مشت البنت على الممرّ باتجاههما، وجلست بجوار أبيها محدِثة صوتاً كحجر يقع بداخل بحيرة. حاولت آن أن تقنعها بأن ترتدي فستاناً، أو على الأقل تنورةً وقميصاً، ولكن أصرت على أن ترتدي بنطال جينز مبقع بدهان ملون وكنزة قديمة.

ترى آن أن الكنيسة تصبح أجمل في وقت عيد المسيح. مشهد ميلاد السيد المسيح نُصِب في المقدمة على المذبح وعليه تمثال لمريم العذراء افريقية، ويوسف والطفل اليسوع بينما كان ضوء الشموع ينعكس على وجوههم الخشبية.

منظر الناس من حولهم وهم يُحيُّون بعضهم البعض جعلها تتمنى لو أن لديهم أصدقاء أكثر، أصدقاء خارج نطاق زملاء العمل: صالون التجميل

ومحل الحلاقة. فكرت مرة أخرى بقرارهم في أن لا يصاحبوا أحداً في هذه المدينة. لم ترغب هي وزوجها أن يقتربا جداً من أي أحد فيسألونها عن ماضي زوجها. اختاروا مكان صالون التزين والحلاقة في جادة نورستاد، في وسط الحي الهايتي لأنه أفضل مكان ليجدهم الزبائن. والسبب الوحيد في تأجيرهم غرفة الملحق لثلاثة رجال من هايتي أنه لن يسكن أي أحد آخر المكان. وبعد أن بدأ زوجها العمل في محل الحلاقة، اكتشف أنه لم يتمكن أحد من التعرف عليه خاصة بعد أن خسر أربعين كيلوجراماً من وزنه وغير اسمه ومحل ميلاده. اعتبره الجميع فلاح قاده الحظ لنيويورك. وعلى كل حال لم يكن جلاداً مشهوراً من فرق التعذيب. كان أحد مئات الجلادين الذي قاموا بعملهم على أكمل وجه، ضحاياهم ماتوا ولن يُعَرفوا بهم.

غرقت الكنيسة في صمت مهيب، بينما كان القسيس يمشي باتجاه المذبح. وقف وانحنى احتراماً أمام المذبح. كان الوقت منتصف الليل تماما. وبالنسبة لآن، الساعة الثانية عشرة منتصف ليلة ميلاد المسيح كانت تحملُ أفضل ستين ثانية في السنة. كانت دقيقة ساحرة، ليس فقط بالنسبة لها، بل تخيلت أن كل العالم يشاركها هذا السحر. في هذه الدقيقة بدأت الطيور في زقزقة أبدية، وتعلمت الأشجار كيف تنحني إجلالاً وركعت الحيوانات على أربع. تخيلت كما لو أنها تشاهد فلماً سينمائيا أمامها: مياه عذبة في آبار خفية عن العين، وأنهار تجري من الجنان، وجداول تنبع نبيذاً، أجراس تدق كلما لامسها النسيم، شموع، وفوانيس ومصابيح تُلمَحُ كما لو كانت نجوما على سماء بيت لحم. أبواب الجنة فتحت، أي شخص يموت في هذه اللحظة يدخلها بلا برزخ ولا حساب. ومريم العذراء تختار من أطفال العالم النيام من يغني لطفلها في الجنّة.

ومجدداً، تمنت آن أن تختار مريم العذراء أخيها ليذهب إلى الجنة ويغني مع

جوقة الملائكة. بالرغم من أن أخوها ليس نائماً بل هائماً في الأرض بلا قبر يحتويه، فربما يجدُ ملاذه في الجنة إن اختارته العذراء.

كان القسيس يبخر المذبح، ارتفع الدخان عالياً ليلامس تاج الآلام على رأس الصليب الذهبي، وكانت تلك اللحظة التي اختارتها ابنتها كي تهمس بشيء في أذن الأب عن أشخاص يجلسون في الصف الثالث أمامهم. أرادت آن أن تقول لابنتها أن تسكت، ولكن توبيخها يعني المزيد من الكلام والمجادلة. وعلى كل حال همسات الابنة استرعت نظرات حادة من الناس الجالسين بالقرب، فاضطرت آن لأن تميل لزوجها وتسأله:" ماذا هناك؟"

رد عليها بهدوء:" تظن أنها رأت إيمانويل كونستانت هناك" وأشار باتجاه الرجل الذي كانت ابنته تشير باتجاهه لوقت طويل سابقاً.

نظرت آن إلى الرّجل، بدا لها طويلاً نسبياً، فقد ارتفع رأسه فوق الناس من حوله. كان رجلاً ببشرة بنية غامقة، شعر آفرو قصير، ولحية. كل هذه الأوصاف كانت مطابقة لصورة الشخص المنشورة في الحي الهايتي على جادة نوردستاد عن شخص مطلوب بسبب جرائمه بحق الشعب الهايتي. دوّنت تحت صورة الرجل نوع الجرائم التي ارتكبها: "تعذيب، اغتصاب، قتل أكثر من ٥٠٠٠ شخص ... " وكلها جرائم ارتكبها حين كان زعيما لميليشيا كان اسمها، من سخرية القدر، الجبهة المشتركة لتقدم وتنمية هايتي.

مر شهر منذ نَشر هذا الإعلان في الحي. ومنذ شهر كانت آن وزوجها يتابعان بحذر جدران المباني وعواميد المصابيح، في كل صباح يفتحون الأبواب للزبائن، وعند كل مساء حين يغلقون الستائر استعداداً للذهاب إلى البيت. لم يتحدثا أبداً عن هذا الإعلان، حتى حين محت ألوانه أشعة الشمس وأجعد أطراف أوراقه المطر والريح. وبعد فترة، بدأت الحروف والأرقام تختفي، فكلمة اغتصب أصبحت "اغتصـ"، والرقم ٥ اختفى من ٥٠٠٠

وما بقي سوى أصفار مستديرة لتدل على عدد ضحايا كونستانت. قرون الشيطان التي رسمت على رأسه وعبارات الشتيمة التي كتبت بالكرايول حول صورته، وهنت ولم يبق منها شيء يذكر. حتى أصبح الإعلان كلوحة كولاج مجزأة من صنع أصحاب الحي.

وحتى قبل أن يجد الإعلان طريقه لعتبة باب آن، كانت تتابع قصة إيمانويل كونستات عن كثب في جريدة الأخبار، الراديو والقنوات المشفرة الهايتية. لقد حكم كونستات على نفسه بالموت بعد أن تزعّم انقلاباً عسكرياً أطاح بالرئيس الهايتي وأبعد للمنفى. حاول الآلاف من أتباعه إخراس الكثير من مناصرين الرئيس. فحاطوا الأحياء السكنية بحلقات من النار، وحرقوا البيوت، وتم قنص الهاربين بحياتهم من هذا الجحيم. قرأت آن عن مخيمات التعذيب التي نصبت لنزع الجلد من رؤوس الضحايا لكي لا يتمّ التّعرّفُ عليهم. وبعد أن عاد الرئيس من منفاه، هرب كونستانت لنيويورك في ليلة مولد المسيح. ولكنه حوكم في المحكمة العليا في هايتي، وحكم عليه غيابياً بالسجن المؤبد. عقوبة لن يقضيها، وحساب لن يدفع ثمنه.

في كل صباح ومساء قاومت آن رغبة قوية في أن تنزع الإعلان من على الجدار أمام صالون التجميل والحلاقة الذي تملكه مع زوجها. ليس رأفة بكونستات، ولكن بسبب الرّعب الذي يتملّكها مخافة أن تجد يوماً ما صورة تشبه زوجها، بالرّغم من أن ثلاثون عاماً تفصل بين جرائم كونستات وعمل زوجها في السجن.

همست لزوجها:" هل تعتقد أنه هو؟"

هز كتفيه بلامبالاة وجاء همس من خلف أذنيها:" هش!"

الرجل المشتبه بأنه يشبه كونستات ركز نظره إلى الأمام، يبدو مرهفاً

سمعه لجوقة الكنيسة تغني أغاني الميلاد.

زار الليل يسوع

لوّن الليل يسوع

كانت ابنتها تغمغم لنفسها من تحت أبخرة الغضب وهي تنظر إلى وجه ذلك الرجل. آن فخورة بابنتها، فخورة بإحساسها بالعدل، وبسخطها النزيه. ولكن ماذا لو عرفت عن ماضي أبيها؟ عن الأشياء التي فعلها؟

وبعد الخطبة، وقف الحضور في صفوف ليذهبوا للمذبح واحداً خلف آخر ويتناولوا العشاء الرباني.

قال القسيس:" نحن محظوظون جداً، فقد وهبنا اليسوع من لحمه لنتناوله."

وفكرت آن، نحن محظوظون جداً أننا هنا ومايزال اللّحم عالقا فينا.

حين جاء دورها، مشت آن مع بعض الناس من صفها ومن ضمنهم الزوجين الشابين باتجاه المذبح. ولكن زوجها وابنتها بقيا في الخلف غير مهتمين. وقفت أمام القسيس، وهمست ببعض الصلوات وبعد أن وضعت قطعة رقاقة الخبز في فمها باركت نفسها بعلامة الصليب وتبعت الخط الراجع لمقاعدهم. وقبل أن ترجع إلى حيث تركت ابنتها واقفة وهي تنظر مطولاً وعن قرب إلى حيث يجلس كونستات.

ماذا لو كان كونستات؟ ماذا سوف تفعل؟ هل سوف تبصق على وجهه أو تحرجه أمام الناس، معترفة بسلالة من الخزي والذنب ورثتها عن زوجها

حين تزوجته؟ وكيف ستعرف أن كنستات يشعر بأي خزي وذنب أصلاً؟ ماذا لو أنه حضر هذا القداس ليتبجح بحريته ليسخر من المتأثرين بجرائمه؟ ماذا لو أنه كان يعتبر نفسه بريئا؟ أو على الأقل بريئا بما فيه الكفاية ليخالط الناس؟ وأي حق تملك هي لتحكم عليه؟ كامرأة كاثوليكية ملتزمة وزوجة لرجل كزوجها، لا تملك حرية الاستهجان التي تملكها ابنتها.

لكي تحصل على نظرة قريبة من وجهه، أخفضت جسمها واقتربت من وجهه، لم تتظاهر حتّى أنها أسقطت شيئاً على الأرض لتحمله. وعن قرب، كان واضحا جداً أن الرجل ليس كونستات بالرغم من الشبه الكبير بينهما. لا يشبه صورة الرجل الحديثة على شبكات التلفزيون والجرائد، ليست تلك القديمة على إعلان الجدار. صور كونستات الحديثة تظهره أكبر وأسمن، بحجم رجلين من هذا الرجل. وكذلك جبهته كانت أعرض، وحاجباه أكثف، عينان جاحظتان وشفتان غليظتان.

استقامت آن في وقفتها، ولكن مكثت واقفة في الممر مبحلقة في ملامح الرجل حتى رفع رأسه إليها وابتسم. وبدا عليه كأنه قد رآها من قبل، كوجه يعرفه ولا يعرف أين. رفع رأسه وانتظر منها أن تقول شيئا، أن تذكره بمكان اللقاء أو الطريقة التي تعرّفت فيها عليه، ولكنها لم تقل شيء. نقرها شخص ما على كتفها من الخلف، فتحركت آن للأمام حيث ابنتها وركبتاها قد تجمدتا من الخوف.

همست في أذن زوجها:" ليس هو"

التفت بدوره إلى ابنته وأعاد:" ليس هو"

وبينما كان تجد راحتها على الكرسي الخشبي كررت آن لنفسها بصوت خفيف:" ليس هو"

لم يكن كونستات. شعرت براحة عظيمة، كما لو أن ضرراً جسدياً كان على وشك الحدوث وأخطأها وزوجها وابنتها. ولكن ابنتها كانت ما تزال محدّقة في الرجل بريبة.

عندما حصل جميع من في الكنيسة على رقاقة العشاء الرباني، بدأت الجوقة في غناء "عَيّد الليل".

روحانية الألحان وسلوان الكلمات لم تجد طريقها إلى قلب آن، المشغول بالتفكير. كانت تعزم ألا تحضر هذا القداس مرة أخرى مع زوجها. ماذا لو انعكس الوضع؟ وكان هناك شخصاً مبحلقاً بملامح زوجها كما كانت ابنتها تبحلق بملامح ذلك الرجل؟ ماذا لو اشتبهوا به، اقتربوا من وجهه، وتعرفوا عليه؟

عندما انتهت الجوقة من الغناء، أشار لهم القسيس أن يعيدوا الأغنية لكي يتمكن الحضور من الغناء أيضاً. تفاجأت آن حين رأت زوجها يحرك شفتيه مترنما معهم. فاتته بعض الجمل، وكان يخفض رأسه عندها، ولكنه استطاع أن يغني معظم الترانيم ويبقي رأسه عالياً. لقد أَكبَرت في نفسها حركته، كانت تعلم أنه غنّى مع الجماعة لأنها أغنيتها المفضلة. كان يود أن يسعدها، وأن يبعد تفكيرها عن أي تكدير قد سببه حضور ذلك الرجل الغريب. بينما أبقت ابنتها نظراتها على الرجل، مستطيلة برقبتها لتراه أفضل.

انتهى القداس. ونزل القسيس من على المذبح ليمشي بين صفوف المصلين على الممر ويحييهم وهم في طريقهم للخروج. تبعه الصف الأول، وكان عليها وزوجها وابنتها الانتظار حتى يأتي دورهم وتفرغ الصفوف السابقة لهم. وحين جاء دوره، ذلك الرجل الذي اعتقدوا أنه كونستات، كان يتحدث لامرأة بجواره. وعندما عبر من أمامهم مدت البنت يدها باتجاهه، كما لو كانت تريد سحب يده، ولكن يد والدها قد سبقتها فأنزلها حتى ابتعد الرجل

عن الأنظار.

قالت البنت:" لم أكن أنوي ضربه، كنت سوف أسأله عن اسمه."

ثم التفت تجاه والدتها بنظرات استعطاف ونجدة:" مانمان، هل من الخطأ سؤال رجل عن اسمه؟"

حين جاء دورهم لتحية القسيس، خرج الأب والبنت خفيه، تاركين آن تحييه وحدها.

قال لها:" آن، سعيد جداً لقدومك. كنت متوقعاً أنك سوف تحضرين عائلتك معك."

قالت آن:" لقد أحضرتهم يا أيها الأب."

ومن مدخل الكنيسة، نظرت إلى الخارج، نظرت إلى الشارع حيث وقف بعض الناس على أطرافه. دفعت برأسها بينهم باحثة عن زوجها وابنتها، حتى رأتهم يعبرون الشارع باتجاه منزل مزين برنّة بلاستيكية مضيئة.

قالت:" ها هما يا أيها الأب"

كانا يقفان على حافة الحاجز الحديدي الأبيض المحيط بالبيت. التفت القسيس لينظر، ولكنه لم يميزهم، تاهت نظراته بين المئات من الناس الواقفين بالشارع. حاولت آن أن تتخيل الحوار الذي يدور بين زوجها وابنتها وهما واقفين حول ذلك الحاجز المضاء، متجاورين حتى كاد رأسيهما أن يتلامسا، كما لو أنهما يحميان بعضهما من البرد. هل كانا يتحدثان عن القداس؟ عن الرجل؟ عن البيت؟

قال لها القسيس حاثّاً إياها على الخروج:" ميلاد مجيد يا آن." وعيناه كانتا تنظران إلى الشخص الواقف خلفها.

" ميلاد مجيد يا أيها الأب، لقد كان قداساً رائعاً."

خرجت آن، ووقفت مع جموع الناس الواقفين على حافة الشارع، وجوههم كانت تشع إيماناً. لم تستعجل في اللحاق بزوجها وابنتها. تمشت بين العائلات، بعضهم يعزم البعض على العشاء احتفالاً بعيد الميلاد، وبعضهم يعرض توصيلة بالسيارة أو يقبلها. والأمهات يغطين أطفالهنّ خوفا من الصقيع.

سلكت آن الرصيف بأكمله، متمنيةً ميلاداً مجيداً لكل من يقابلها، ولكنها استهدفت العائلات مع أولاد صغار، مربّتةً على رؤوسهم المغطاة بقبعات من الصّوف، وهي تتحدث مع والديهم.

" ألم يكن قداساً رائعاً؟"

" ألم تغني الجوقة بإبداع؟"

فجأة ظهرت ابنتها بجوارها حاضنة ذراع أمها بيدها، وقالت:" بابا يريد الذهاب."

كانت حركة حنونة من ابنتها، البنت الحساسة كورود الصيف، كبرت لتصبح مع مرور السنين أقسى وأبعد.

كان زوجها ما يزال واقفاً على حافّة الشارع المقابل، وظهره باتجاه البيت المزين بزينة العيد، غرس يداه في جيبي معطفه وقوس كتفاه وجلاً من البرد.

سألت آن ابنتها:" ألم يكن قداساً رائعاً؟"

كانت تريد أن تعرف إن كانت ابنتها مازالت تفكر في ذلك الرجل. إن كانت إلى الآن وهي تفكر فيه، فستقول شيئاً مثل:" مانمان، كان كلّ شيء على ما يرام حتى ظهر ذلك القاتل."

ولكن في المقابل قالت وهي تشير لوالدها من بعيد مشيرةً أنها وجدت أمها:" اسمعي مانمان، بخصوص ذلك الرجل، أنا آسفة. ردة فعلي كانت مبالغٌ فيها. اعتقد بابا أني سوف أضربه أو أعرقله أو أؤذيه بطريقة ما. ولكن لم أكن لأفعل أي شيء كهذا. كان تفكيري غائباً."

ولكني لم أكن غائبة، كان بود آن لو أنها قالت ذلك.

ولطالما انتهت الأمور في حياة آن بهذا الشكل. فحياتها كبندول يتأرجح بين المغفرة والندم. وفي كل مرة يسيطر أحد ما على غضبه، كانت تعتبره معجزة صغيرة، تماما كما تعتبر شفائها من نوبات الصرع المتكررة كتوبة.

كان زفيرُ ابنتها المختلطِ مع الجو البارد يكوّن بخاراً بارداً أمامهم. قبلت وجنتي أمها حتى شعرت بدفء الشفاه على خدها.

وقالت:" أنا آسفة أيضاً لكلامي الذي سوف أقوله. ولكننا نأتي إلى هنا كل سنة، وكل سنة نفس الشيء. نفس الجوقة، نفس الأغاني، نفس القداس. لقد كان فقط قداسا دينيا لا غير، ولا أرى روعة في ذلك. وعموما لن يكون بروعة قصة من قصص المعجزات التي ترويها."

5

خطل النوم

توقع أن هذا الجبل سوف يقتله. أنه لن يرى أبداً الجهة الأخرى. كان يسير لساعتين قبل أن يوقفه ألم حاد على خاصرته. حاول أن يتنفس بعمق، طريقة تعلمها من البرامج الطبية في التلفاز، ربّما تكون طريقة فعالة لرحيل الألم. ولكن كان من الصعب جداً أن يركز على أي شيء آخر سوى ألمه. سار به تفكيره لمايكل، شريكه في السكن. عمل مايكل عملية استئصال للزائدة الدودية قبل أسابيع في نيويورك. ماذا لو أنه يتعرض الآن لألم مفاجئ من الزائدة الدودية، هنا فوق الجبل، في عمق الريف الهايتي حيث أقرب قرية تبدو كذرة رمل على الوادي في الأسفل؟

كان محتضنا بطنهُ قبلَ أن يتنحى عن الطريق الضيق يجلسَ تحت شجرة طويلة، فارعة ومائلة مع رياح لتقيه من حر الشمس اللاهبة. تفحص المكان مبتعداً عن الهضاب الصّخريّة، استلقى على ظهره وتحته رمال مخلوطة بحصى صغير، وأغمض عينيه تحت سماء بلون الزفير وهضاب متعرجة من نظره على امتداد ما تبقّى من رحلته.

كان في طريقه لزيارة عمته إستينا، الأخت الكبرى لوالده، والتي لم يرها منذ أن رحل لنيويورك قبل عشر سنوات. كان قد خسر والديه للطاغية خمس وعشرين سنة قبل ذلك فتولت عمته تنشئته والاهتمام وأخذته إلى العاصمة. وبعد أن هاجر إلى نيويورك، عادت لبيتها في القرية الصغيرة بين الجبال،

حيث يذهبان في وقت العطل المدرسية.

فكر بنفسه أن هذه أول مرة يزور قريتها دون أن ترافقه، ولو كانت معه لنصحته بأن يبدأ الرحلة باكراً. وربما ركبا شاحنة نقل من محطة الباصات في مدينة بورت-دي-برنس قبل الفجر وبدأ تسلق الجبال مع شروق الشمس ليتفاديا أشعة شمس الظهيرة اللاهبة. ولو عرفت بقدومه لاستأجرت له بغلاً وطفلا يقابله في منتصف الطريق، طفلا من قرية يعرف شعابها جيّدا. وربّما كانت ستنصحه بأن يرتدي قبعة شمس ويحضر معه أكثر من قنينتي ماء اللتين استهلكهما قبل ساعات.

ولكن لا! أراد مفاجأتها ولكن لم يفاجئ سوى نفسه. كيف أضاع الطريق وكيف كاد أن يغمى عليه والآن ها هو مستلقي بين الجبال لمدة طويلة تكفي للنسور كي تأكل من جمجمته. وحين فتح عينيه أخيراً، كانت أشعة الشمس تنهمر على وجهه برسومات مشعة ومتوازية من خلال غصون طويلة ممتدة من شجرة شرع في تمييز نوعها الذي تنتمي إليه ليكتشفَ أنّها شجرة صبّارٍ صغواري. أشعة الشمس تحوّلت تدريجيا لتصبح قلوبا ونجوما بحريّة وحلقات متراقصة.

مد يده ولمس جذع الصبار العريض، أحس كأنه يلمس دبابيس أو عشب يابس. كانت الجذور قريبة جداً من التراب، وتذكر حين قالت له عمته استينا أن هذا التصميم يساعد الشجرة على امتصاص أكبر قدر ممكن من المطر. ونظر للأعلى قليلا، في منتصف الجذع كانت هناك زهرة حمراء. كان يود لو يقطفها ويأخذها معه كي تؤنسهُ في بقية الطريق، ولكن كانت عمته ستؤنبه إن فعل، و لقالت إنّ من واجبه أن يترك للصبار حق الاستمتاع بزهرته. أغلب زهور الصبار تزهر لبضعة أيام قبل أن تذبل وتموت.

خف الألم من بطنهِ، وقرر أن يقف ويكمل المشي. كان هناك العديد من

الشعاب لبيت عمته، ولأن هذا الشِّعبُ عليه شجر سجوار تأكد أنه أحد الطّرق المؤديّة نحوها. وبعد مدة بسيطة من المشي، وجد نفسه يدخل قرية. استقبله منظر فتاة تخبط الهاون على المدقة محدثة حفرة على الأرض أسفل المدقة وبعض من الأطفال ينظرون إليها. حين رأته الفتاة، توقفت عن الخبط والتفتت ناحيته وجوه الأطفال البنية والمتشابهة.

حياهم قائلا:" صباحُ الخير يا أولاد العم"

علمته عمته في طفولته أن يحيي الجميع كأنهم أقاربه. وبالرغم من أنه فقد والديهِ في سنّ مبكّرة، كان يعتقد دائما أنه جزء من عائلة كبيرة وكل طفل في القرية هو ابن عم أو خال وكل شخص بالغ هو عم أو خال.

رد الأطفال بالكرايول:" بونجو"

وأضافت الفتاة مميزة نفسها عن البقية:"كي جان و يي؟"(كيف حالك)

طلب منها بعض الماء، أعطت الهاون للطفل الأكبر بينهم، وهرعت لداخل بيت شيّد من حجر كلَسيٍّ. عندها ألقى الرجل حقيبة ظهره على الأرض وسقط منهكاً في وسط الساحة. حين لمست رجليه العاريتين الأرض، شعر ببرودة تتملّكهما، كما لو أنه مشى داخل جدول بارد بملابسه الخفيفة.

ركض أحد الأطفال لخلف المنزل، وجلس بقيّتهم حول الرجل وكان بعضهم يتأمّل حقيبة ظهره ويتحسّسونها. عادت الفتاة وبأحد يديها كأس وبالأخرى جرة من فخار. شاهدها وهي تسكب الماء في الكأس، وفكر بنفسه ماذا لو كان الماء والفتاة سراباً؟

مدت له الكأس فنهله دفع واحدة. كان يشرب بسرعة، وكانت تملأ له الكأس مرات ومرات حتى فرغت الجرة.

سألته إن كان يريد المزيد.

فقال بعبارة فرنسيّة: "لا، شكرا"

عادت الفتاة للمنزل لتضع الجرة والكأس، بينما مازال الأطفال محلّقين به، ولكن خجولين من سؤاله. عادت الفتاة لموقعها السابق خلف الهاون والمدقة وكانت تتملّكها نظرة حائرة على وجهها كما لم تكن تعرف ماذا تفعل.

عند البوابة الخشبية التي تفصل الشارع العام عن المنازل، قدم شيخ يحمل منجلاً وحقيبة من السعف وبجواره مشى الطفل الذي اختفى خلف المنزل سابقاً.

سأله الشيخ:" كيف حالك كونبي؟"

قال:"عمي، كنت أحتضر من العطش لولا أن حفيدتك سقتني."

قال الشيخ ضاحكاً:" حفيدتي؟ هذه ابنتي. هل تظن أن شكلي كبير لهذه الدرجة؟"

كان رجلا بلا أسنان ولهذا كان يبدو شيخاً. لحيته شعثاء بيضاء ووجهه مليء بخطوط ترسم خريطة لكل الطرق التي عبرها في حياته. مدّ الشيخ يده وأمسك بأحد الأعمدة الخشبية الثلاثة التي تسند مقدمة المنزل. وقف هناك صامتاً، وانطلق الأطفال ليحضروا له قربة ماء وكرسي له ولضيفه. لاحظ الرجل أن جرة الفخار والكأس محفوظة للضيوف فقط. جلس بجوار الشيخ الذي كان ينفخ في غليونه مطلقاً دخانا تفوح منه رائحة التّبغ الصافي.

سأل: "أين أنت ذاهب يا ابني؟"

قال الرجل: "كنت ذاهباً لزيارة عمتي استينا استيمي، تسكن في بوجور"

أزاح الشيخ الغوليون من فمه وحك رأسه وقال مستغرباً:" استينا

استيمي من بوجور؟ نفسها؟"

قال:" نعم. نفسها" متفائلاً أنه ليس بعيداً عنها بما أنه يعرفها.

" تقول إنها عمتك؟"

"نعم، هي عمتي."

كرر الشيخ:" هل أعرفها؟ لا غرباء بين هذه الجبال يا ابني، جدي نوزيالو جدهادورميوس كانا أبناء عمومه. من أبوك؟"

قال الرجل:" ماكسوجياندورميوس."

"نفس الذي مات وزوجته في الحريق؟ كان عندهم طفل واحد. و استينا كادت أن تنفق في نفس الحريق. فقط الطفل نجا."

قال الرجل والغصة بحلقه بحجم بيضه:" أنا ذلك الطفل."

لم يتوقع أن يتكلم في هذه المواضيع بهذه السرعة. كان يتوقع أن يتكلم عن حريق والديه مرة واحدة، وهذه المرة محفوظة لعمته فقط. اقترب الأطفال بأعينهم اللامعة ليستمعوا أكثر، كما لو أن الشيخ يكافئهم بأحد الحكايات المخيفة في منتصف النهار.

قال الشيخ:" بعد كل هذه السنين، مازلت أتأسى لأجلك. أنت الشاب الذي كان يزور القرية مع استينا، ونفس الشاب الذي هاجر لنيويورك قبل سنوات؟"

نظر إليه الشيخ بدقة أكثر، كما لو كان يبحث عن حروق على جسده. ثم أمر الأطفال بالابتعاد.

رفع صوته:" هش، هذا الكلام ليس للآذان الصغيرة."

اختفى الأطفال بسرعة، وبقيت الفتاة مستغرقة في عملها، تطحن الهاون على المدقة.

وقف الشيخ وقال:" تعال معي، سوف آخذك لآستينا إستيمي"

تسكن إستينا إستيمي في وادي بين جبلين خضراوين وشلال كبير. ينثر الشلال سديماً من رذاذ الماء يغطي أشجار الموز على مد النظر. بيتها ذو الغرفة الواحدة كان قريباً من بستان الموز وبجواره ضريح بعشر غرف يحتوي على رفات الأسلاف.

تعرف الرجل على بيتها حالما رآه. لم يتغير شكل البيت كثيراً، مازال السقف الصفيحي والشبابيك الخشبية متماسكة. ولكن بستان الموز الذي تملكه عمته بدا أكبر وأكثر خضاراً، وحديقتها مليئة بأشجار البرتقال والأفوكادو كان منظراً كالمعجزة بعض سلسة الجبال الجدباء التي مر بها لتوه.

حين دخل حوش البيت، استقبله مجموعات من الدجاج والديوك والتي تفرقت بسرعة، باحثة عن ملجأ فوق ضريح العائلة. أسرع للرواق الأمامي للمنزل، كانت هناك تنورة وبلوزة عتيقة قد تركت على السياج الخشبي لتنشف.

كان باب المنزل مفتوحاً، دفع الباب ومشى للداخل تاركاً خلفه الشيخ ومجموعة من الجيران اللذين تبعوا نداء الشيخ حين دخلوا القرية معلناً أن من برفقته هو ابن أخ الآنسة إستينا إستيمي.

في الغرفة الصغيرة، كان هناك سرير عمته المتنقل مغطى بشراشف زرقاء بدأ لونها بالزوال. وبالقرب من السرير، كان هناك قربة ماء لتشرب منها في الليل دون أن تغادر سريرها. وتحت السرير، صندوق من البورسلين بداخله قدر وصندوق من السعف مليء بملابس وأحذية وقبعات يوم الأحد.

أطل الشيخ برأسه من الباب، وسأل:" ليست هنا؟"

أجاب:" كلا، إنها ليست هنا."

قد بدأ يشعر بالانزعاج من الشيخ، بالرغم من أنه لم يكن ليجد بيت عمته بسرعة من دونه.

خرج من المنزل وجموع من الناس واقفين أمامه في فناء عمته. تأمل وجوههم، وتعرف على بعضهم، ولكنه لم يسترجع الأسماء. كانوا يتهامسون ويتلامزون وينظرون باتجاهه، وبعضهم يسأله:" داني، نسيتني؟"

مشى بينهم، حيّا النساء بالقبلات والرجال مصافحةً والأطفال عبر التربيت على رؤوسهم.

سأل الجمع:" هل تعرفون أين عمتي؟"

قالت امرأة من بينهم:" سوف تحضر قريباً. أرسلنا في طلبها"

ارتاح قليلاً حين علم أن عمته قادمة، واستطاع أن يتظاهر بأنه مهتم بالناس من حوله وحكاياتهم.

شكا له البعض أن نيويورك أنسته أصحابه، فلم يرسل إليهم الساعات و العقود و الراديو كما وعد. تعجب من سذاجتهم، كيف إلى الآن مايزالون يذكرون وعود الطفولة ويعاملونها بجدية. ولكنه حاول أن يقدم أعذاراً حقيقية:" من الصعب حقاً كسب المال في نيويورك .... توقعت أنك نقلت للسكن في العاصمة .... لم أستطع تذكر عنوانك."

قال رجل بسخرية:" ننقل إلى أين؟ لسنا محظوظين مثلك."

سمع صوت عمته تناديه، فشعر براحة عميقة. ظهرت له من بين الجموع التي انتصفت في جهتين. كانت مشيتها متعثرة ولكن أنيقة وكانت ترتدي

فستاناً طويلاً بحزام على الخصر. كان وجهها مستديراً وممتلئاً، وبشرتها سوداء حريرية لامعة. وبعض التجاعيد على وجهها كانت علامة جمال، من وجهة نظره، وليست علامة العمر الكبير.

كانت تتكئ على شخصين يقودانها باتجاهه. سحبت نفسها منهم وهرعت باتجاهه متلمسة الجموع أمامها. كان قد نسي أنها فقدت بصرها، في نفس الحريق الذي أفقده والديه.

تراجعت الجموع بعض الخطوات حين ركض باتجاهها وارتمى بين يديها. احتضنته بشدة، وأمالت رأسها لزاوية وجهه لتقبله.

قالت مربتة على ظهرة وكتفيه:" داني، هل هذا أنت؟"

قال الشيخ:" أحضرته لك هنا."

قالت مازحة:" يا أوز الشيخ، لماذا دائماً نجدك في كل المناسبات؟"

قال لها:" اسم على مسمى، أنا ساحر كقطعة اللحم التي تناسب كل الطبخات"

ضحك الجمع.

قالت له عمته" لندخل البيت، الجو حارٌ جدّا هنا."

مسك يدها ليقودها لمنزلها، ولكن شعر أنه يعرقل طريقها الذي تبصره جيداً، فترك لها يدها وحريتها. وحالما دخلا للمنزل، وجدت طرف سريريها المتنقل وجلست عليه.

قالت له:" اجلس بقربي داني، لقد رددت الشباب لقلبي"

قال وهو يجلس:" كيف حالك؟ بصدق؟"

قالت:" صدقاً، أنا بخير، هل قال لك الناس غير ذلك؟"

لسنوات كان يرسل بعض المال لصديق الطفولة، بوبو، في بورت-أو-برينس ليزور عمته مرة بالشهر، يشتري حاجياتها ويأتيه بأخبارها.

قال:"لا، لم يقل لي بوبو أي شيء"

قالت:" لماذا أتيت إذاً؟"

"أنا لست حزينة لرؤيتك، ولكن زيارتك كمن وقع من السماء، لابد أن هناك سبب."

بحثت عن وجهه، تحسسته، ثم قبلته للمرة المائة.

سألته:" هل أرجعوك؟ هناك الكثير من الشباب بعمرك أرجعوهم، وأغلبهم لا يتكلمون الكرايول. رجعوا للقرية لأنه المكان الوحيد حيث يوجد أناس يعرفونهم. هناك شاب لطيف ليس بعيداً عن هنا، سوف آخذك له لتتكلما كأمريكيين مع بعضكما"

سألها:" هل مازلت تذهبين في زياراتك؟"

قالت له:" حين أرسلت في طلبي، كنت أساعد امرأة في المخاض"

قال لها:" هل مازلت تمارسين التوليد؟"

قالت: " أساعد المولدة. تعرفني، أنا أعرف كل زاوية في هذه الجبال، لا تنبت شجرة إلا وعلمت بمكانها. والأطفال إلى الآن وهم يولدون بنفس الطريقة التي كانوا يولدون بها حين كان لدي بصر."

قال:" كنت أنوي زيارتك بفرصة أقرب"

كان يراقبها وهي تجمع وتفرق بين أصابعها كغصون شجرة تمشط

بعضها. كلتا يديها احترقتا مع الانفجار والحريق الذي تلاه في منزل والديه، ولكن مع الزمن رقت آثار الحروق على بشرتها وبالكاد أصبحت ترى الآن.

قالت:" كنت أعرف أنك سوف ترجع في الوقت المناسب. ولكن لماذا لم ترسل مخبراً بقدومك؟"

قال لها:" الحق معك. لم أسقط من السماء فجأة ولم آت إلى هنا فقط كي أخبرك بشيء."

سألته وهي تشبك أصابعها: " ماذا هناك داني؟ هل سوف تتزوج أخيراً"

قال:" لا. ليس هذا. وجدته في نيويورك. لقد وجدت الرجل الذي قتل بابا وماما وأخذ بصرك."

لماذا في تلك اللحظة بالذات اختار الشيخ أن يدخل من الباب، هو أمر لن يعرفه داني. ربما صدفة، وربما حدس، وربما الشيخ المتطفل جداً. دخل الشيخ أوز دافعاً أمامه فتاة الهاون والمدقة، كانت تحمل صحناً مغطى من طعام.

قال لداني:" أحضرنا لك بعض الطعام ليقوّي عزمك"

لم يبدُ على العمة أنها متضايقة أو متوترة من هذا الدخول المفاجئ. كان يمكنها أن تطلب من الشيخ والفتاة الخروج ولكنها لم تفعل. وبالعكس، طلبت منهم أن يضعوا ضيافتهم على طاولة قديمة في الزاوية. وضعت الفتاة الصحن على الطاولة، وبهدوء تراجعت للخارج متحاشية النظر في عيني داني.

أكمل الشيخ حديثه مرتاحاً في مكانه:" أرجو أنكم جوعى، سوف يأتيكم الكثير من الطعام من أهل القرية"

وفي عصر اليوم، دخلت المنزل جماعات متفرقة من أناس يحملون أطباقاً

من الطعام. كان يتذوق مع عمته بعضه ويشاركون الضيوف بعضه، حتى أكل الجميع من طعام الجميع. وحين رحل الجميع ولم يبق سواه مع عمته، كان الظلام قد حل وكان يبدو أنها لا تريد أن تسمع ما يود قوله. عرضت عليه أن ينام على السرير المتنقل، ولكنه أقنعها بأن مفرش الحصير الذي كانت فرشته على الأرض لتنام عليه هو أفضل له.

نامت بسرعة، قبل أن ينام هو. وفي منتصف حلمها ضحكت، مدحت وعدت وحذرت. " اسمع، لا تذهب بعيداً، أرجع بسرعة! طفل شجاع! سوف أصنع لك ثوباً وأحضّر لك قهوة."

ثم جلست على سريرها المتنقل موبخة:" إستينا، إنك تزعجين الطفل."

قبل أن تغرق مجدداً في عالم الأحلام التي برأسها. في الظلام استمع لعمته وهي تتحدث بأحاديث مطولة في نومها عرف أن ما يجمعه بها ليس فقط رابطة دم ولكن أيضاً في الجنون الليلي. كلاهما يهلوسان في النوم، وكلاهما يبلل سريره بالكلمات. داني أيضاً يتحدث في نومه، يتحدث بصوت عالي لدرجة أن صوته يوقظه، وعادة يتذكر آخر كلمات نطقها، ولكن دائماً يشعر أنه لم يقتصر على ذلك بل كان يتحدث ويضحك ويقضي الليلَ باكيا.

في صباح اليوم التالي، كانت عمته قد استيقظت قبله. وبمساعدة ابنة الشيخ أوز، ويبدو أنها ستعمل لديها مدة زيارة داني، حضرتا فطوراً ووضعتاه على الطاولة الصغيرة في مدخل المنزل. كانت عمته متبرمة وقلقة كما لو أنها تنتظره كي يستيقظ منذ ساعات.

قالت وهي تمد إليه منشفة:" اغتسل وتعال، أنا سوف أنتظرك هنا."

شجيرات صغيرة مغطاة بالندى تلمس كاحليه وهو ينزل التل وباتجاه الجدول أسفل الشلال. كان الماء بارداً جداً حين غطس، ولكنه استقبل البرد

بترحيب، متحسّسا كلّ جزء في جسده كما لو كان تحية للحياة وللصباح.

هل استحم والده في هذا الجدول من قبل؟ هل غطس والديه سوية في نفس المكان حين يزوران عمته؟ لديه معلومات قليلة وذكريات أقل عن حياتهم السابقة، وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يعيد صناعتها بلحظات من حياته. ولكن مؤخراً كل ما يشغل تفكيره ليس كيف عاش والديه بل كيف ماتا.

جاء بعض النسوة من فوق الممشى للنهر مع قرب وعلب بلاستيكية كبيرة فوق رؤوسهم. بالعادة، يستحمون ثم يملأن الجرار بالماء. تذكر طفولته، حين يقضي الساعات متفرجاً على النسوة وهنّ يغتسلن، الأثداء تخبط على الصدور وهن يتصوبن بالنعاع والبقدونس، كما لو كن يغسلن رماد الليل من على أجسادهن.

حين رجع إلى بيت عمته، وجد زائراً في انتظاره. شاب قصير عضِل عبوس وبمصافحة مبالغ بقسوتها. غطت الوشوم ذراعيه البنيتان من المرفق وحتى الرسغ. بشرته كانت كلوح رسم بشخصيات كرتونية صينية وملكات وملوك من ورقة اللعب. جاك أبو عين،هيكتور، لانسل، جودث، ريتشل، آرجين، وبالاس. كلهم نقشوا برسومات مصغرة بالحبر الأزرق والأحمر على بشرته البنية كالجوز.

أعلنت عمته:" أرسلت في طلب كلود، هو من أخبرتك عنه. أحد الشباب الذي أرجعوهم."

جلس كلود بجوار عمته على الدرجة المرتفعة من مدخل المنزل، غامساً في كوب القهوة قطعة من الخبز الطازج الذي صنعته ابنة الشيخ أوز.

أكملت العمة:" يفهم كلود الكرايول، وحالياً يحاول أن يتكلم بالكرايول

شيئاً فشيئاً. ولكن لا أحد هنا يعرف الأنجليزية كي يتحدث معه، أود منك أن تحادثه بلغته التي يفهمها."

بدا كلود في نهاية سنين المراهقة تقريباً، صغيراً في العمر، صغيرا كي ينفى مرتين، من وطنه الأم والوطن الذي تبناه. جلس داني بجوار كلود على الدرجة وناولته ابنة الشيخ أوز كوباً من القهوة وقطعة خبز.

سأل:" كم صار لك هنا؟"

أجاب كلود:" وقت طويل جداً يا رجل. ولكن الحمد لله. كان من الممكن أن يكون وضعي أسوأ. كان من الممكن أن أنام على الشوارع والقمامة في بورت. الجميع هنا طيب معي، خصوصاً عمتك. احتضنتني بجناحيها كملاك." ورفرف كلود بيديه المثقلة بالوشوم ليشير لحركة الجوانح.

أكمل:" أول ما وصلت هنا، توقعت أن يرمي على الناس حجارة، يا رجل. وضعي صعب، فهمت؟ رجعت من نيويورك، ثم حبسوني بالسجن في بورت لثلاثة أشهر بسبب أنه لا مكان لدي لأذهب له في المدينة. ثم أمي التي رفضت الحديث معي مدة إقامتي في السجن حتى جاءت لتخرجني وترسلني إلى عائلة هنا بين الجبال."

نظر لعمته، وجهها اتكأ بين يديها وشعرها الأبيض المجدل طوق رأسها كإكليل زهر الغاردينيا. كانت تستمع لهم يتحدثون كما لو كانت تحاول فك رموز قطعة موسيقية عبقرية. البهجة المرتسمة على وجهها في كل مرة تسمع كلمة لا تفهمها، تجعله يرغب في أن يطيل الحديث، أن يبحث عن كلمات طويلة وممدودة، أن يحكي قصة وحتى أن يتلو شعراً. ولكنه لا يعرف أي شيء.

سأل:" إذاً ظروفك هنا طيبة؟"

أجاب كلود:" أخذت مني بعض الوقت، ولكن بدأت أتعود على الأمور هنا. عندي سقف يحميني، والمكان هادئ كالقبر، لا مشاكل تصطادك ولا عناء تلحقه. جميل أنك عدت لتزور عمتك، يا رجل. قال لي بعض الناس هنا إنّ لها أقارب في نيويورك. شعرت أنه شخص قريب جداً حين طلبت مني أن أكلمها بالانجليزية."

مد كلود يده والتقط بعض الأحجار الصغير من على الأرض. كان قوياً، وفكر داني أن كلود بإمكانه أن يسحق الحجرات إن هو فعلاً أراد ذلك، ودقهم بأطراف أصابعه. ولكن رمى كلود الأحجار في الهواء كبهلوان. وقال:" من العظيم في حقك أنك لم تنساها. أنك لم تنس أهلك وناسك. أتمنى لو أني كنت على اتصال دائم مع أهلي، تعرف، كان وضعي مختلفاً من هذه الغرابة والغربة في بلدي وبين ناسي. لا يعرفوني، لا أحد يعرفني هنا. لم يروا وجهي من قبل، ولا حتى في الصور. وبالرغم من ذلك، احتووني كابن لهم فقط لأن أمي قالت لهم إننا أقرباء. انظر في وجوههم ولا أميزها، وعم ينظرون في وجهي ويجدون أنف فلان و وجبهة فلانة، و أشياء كهذه لا أفهمها." ووقعت أحد الحجرات من يد كلود على الأرض. ولم ينحني ليلتقطها، بل رمى باقي الحجارة. ثم أكمل:" كأنه لغز، لغز عجيب غريب، يا رجل. أنا ذلك اللغز وهؤلاء البشر يحاولون تفكيكي و تحليلي. يخبروني أشياء عني وعن عائلتي لا أعرفها ولا أهتم بمعرفتها. يا رجل لو قابلت أحد هؤلاء البسطاء في بروكلين لضحكت جداً على سذاجتهم. ولكني بينهم الآن."

كانت العمة منهمكة ومفتونه بكلام كلود، تبتسم أحياناً وأشعة الصباح ترقص على مدخل عينيها الساكنتين. وفكر أن عينا عمته كنوع عجيب من المواشير. موشور يستنزف الضوء بدل أن يعكسه.

قال كلود خاتماً حديثه:" لا استطيع أن أجزم بحبي لهذا المكان، ولكن كان بركة علي وأنقذ حياتي. أنا بسلام هنا، ويبدو أن عائلتي بسلام معي هنا. تغيرت. غيرني السجن. كنت سأكون مواطناً صالحاً في أمريكا لو لم ينفوني."

قال داني كلاماً لم يكن يعنيه:" ماتزال لديك فرصة. ماتزال بقية حياتك أمامك. لقد عدت هنا لسبب، لتخلق حياةً هنا وتجعل حياتك أفضل."

بدأ يتعب من كلام كلود وأعذاره. تعب من عدم قدرته على تحمل مسؤولية أفعاله.

سأل كلود:" كم ستبقى هنا؟"

أجاب داني:" فترة"

سأل كلود:" هل هناك أي شيء تود فعله؟ أصبحت أعرف هذه المنطقة جيداً. كنت أمشي يومياً لأصفي فكري. من الممكن أن أريك الأرجاء."

قال داني:" أعرف كل شيء هنا، وإن نسيت فلدي عمتي لتذكرني."

" نعم عمتك، لا تستطيع أن ترى كل شيء."

" هي ترى، بطريقتها الخاصة."

" لا مشكلة يا رجل، كنت أود مساعدتك فقط."

وبالرغم من الطريقة الفظة التي انتهى فيها كلامهما، خرج كلود من المكان سعيداً. أعطيت له فرصة أن يتكلم بالانجليزية وأن يقول قصة حياته كاملة.

بعد أن رحل كلود، قدمت ابنة الشيخ أوز وأخذت كوب القهوة الفارغ من يد داني. وقفت أمامه لدقيقة وصدفةً لمست يدها أصابع يده. أحياناً بدت أكبر من عمرها، ربما كانت في العشرين أو الخامسة والعشرين ولكن شكلها

كأنها ابنة الثانية عشر. تأملها وفكر في القصّة التي تكمن خلفها؟ هل لديها زوج؟ هل هو في المدينة؟ ميت؟

ترددت قليلاً قبل أن تخطو مبتعدة. كانت تفكر كثيراً في كل خطواتها أمامه.

حين ابتعدت، قالت عمته:" هل تعلم لماذا كلود كان في السجن؟"

"لم يقل لي."

"هل تعرف ماذا يقول أهله؟"

" ماذا يقول أهله؟"

" إنه قتل والدهُ"

في تلك الليلة، حلم داني أنه كان يتكلم مع عمته في الموضوع الذي حضر لأجله. كانا يجلسان على نفس الدرجة حيث جلس يتكلم مع كلود. وكان قد بدأ الحديث بتذكر أحداث الليلة التي مات فيها والديه.

كان عمره ست سنوات وكان أبوه يعمل مزارعاً في بورت-أو-برينس. في الليلة التي وقع فيها الانفجار، كان في المنزل مع والديه وعمته التي أتت لتزورهم من مدينة بوجور. سمعوا صوتاً مدوياً في الخارج، فخرج والده أولاً وتبعته والدته. كان داني على وشك الخروج حين سمعوا صوت إطلاق ناري ولكن عمته سحبته وثبتته أرضاً، ولكنه استطاع أن ينفلت من قبضتها. في الخارج، أغلب الحديقة الأمامية والأثاث الخشبي كان مشتعلاً بالنيران. كان الدخان كثيباً جداً ولم يستطع أن يري حتى والديه. والدته قد اعتكفت فوق والده على الأرض.

خلفه، كان الباب الأمامي للبيت يحترق. ركض إلى خلف المنزل وزعق

من أقصى حنجرته منادياً على عمته.

صرخ نحوهُ رجلٌ من الشارع:" اسكت وإلا أطلقت عليك النار أيضاً."

كان رجلاً ضخماً بوجه يشبه كرة القدم ومقدمة شعر رأس مثلثة. لوح الغريب بالمسدس اتجاهه وهو يغادر سيارته. ولكنه أخفى المسدس وانطلق بعيداً. وقتها، حبت العمة خارج المنزل وبعيداً عن الحديقة الأمامية، سعلت الدخان من رئتيها ولم تكن تستطيع أن ترى أمامها.

حلم أن عمته أكدت حلمه وقالت:" نعم يا داني، هكذا حدثت قصة موت والديك."

ثم شجعته أن يخبرها أكثر عن ما أتى للقرية لأجله، عن ما أراد قوله قبل أن يظهر الشيخ أوز و ابنته:" قلت لي إنك رأيت نفس الرجل في نيويورك، يا داني؟ هل أنت متأكد؟"

الرجل الذي قتل أبويه يعمل الآن حلاقاً في نيويورك. لديه زوجة وابنة بالغة، تزورهم دائماً. قال له بعض زملاء العمل أن رجلاً في الحي يأجر غرف في الطابق السفلي لبيته، وحين ذهب لمحل الحلاقة حيث يعمل ذلك الرجل، تذكر وجهه، تذكر ذلك الوجه الذي لوّحاً باتجاهه مسدسا خارج منزل والديه.

قالت له عمته في الحلم:" مضى زمن طويل على هذه الواقعة، هل أنت متأكد؟"

استأجر الغرفة المتاحة في الطابق السفلي لبيت الحلاق، ولأشهر لم يستطع النوم. كان يقضي الوقت في لياليه البيضاء بالسهر في الملاهي. زار محل الحلاقة مرات عديدة ليقص شعره، وكان أول الزبائن. كان يجلس ويتأمل الحلاق الذي قد نحل جسمه مع الوقت، يفتح الراديو ويصف الكراسي قبل

أن يناديه ليجلس على أحدهم. وكلما لفّ الحلاق الرداء الأسود حول رقبته وفوق صدره، خفق قلبه بشده، ثم يبدأ بجّز ممرات من الشعر حتى لا يبقى شيء فوق رأسه.

وطوال ذلك الوقت، كان داني يتأمل الصور على الجدران. منشورات لانتخابات الحي، صور لتصفيف شعر لم تكن تعجبه، كان دائماً يطلب من الحلاق أن يحلقه كله.

والحلاق لم يتجاذب أطراف الحديث معه. لم يسأله أبداً إن كانت الغرفة مناسبة. مرة واحدة سأله بصوت ناعم يشبه الهمس ولا يشبه أبداً ذلك الزئير المرعب قبل سنوات:" هل ترغب بحلاقة ذقنك أيضاً؟"

لم يرفض هذا العرض مطلقاً. فكر بأنه سوف يعطي الحلاق فرصة لينظر لوجهه عن قرب، ليتذكره. وكم توقع أن ترتجف يدا الحلاق حين يقترب منه، وعلى العكس كان جسده هو ما ينتفض، مقدمة رأسه ورقبته تغرقان في العرق غاسلاً كريم الحلاقة الأبيض على ذقنه. كان الحلاق يقدم له المناديل ويحذره من الحركة الكثيرة ولا إلا تسبب لنفسه بجروح.

وأخيراً أتت الفرصة التي لطالما انتظرها، حين كانت زوجة الحلاق في رحلة دينية، صعد الدرجات للطابق الأول، وأخذ معه كشّافاً ليضيء له الطريق لغرفة نوم الحلاق.

سألته عمته في الحلم:" ماذا فعلت؟"

وقف هناك واستمع للحلاق يتنفس. كان يشخر، ومع كل نفس يبدأ بإصدار نخير كصوت الخنزير منتهية بمواء كالقطط. قرّب وجهه من وجه الحلاق آملا أن يوقظه ذلك، ليخيفه قبل أن يخنقه. حين كان طفلاً، سمع الكثير من القصص كيف يخنق السجناء بقضايا سياسية خلال نومهم، كانت

وجوههم تتورم وأعينهم تخرج من محجريها. كان يرغب أن يفعل نفس الشيء للحلاق، أو ربما اكتفى بضغط المخدة على وجهه، أو ببساطة أن يوقظه ويسأله:" لماذا؟"

نظر إلى لأسفل، إلى وجه الحلاق، ذلك الوجه الذي صغر عبر السنين، ثم فقد رغبته في قتله. ليس لأنه جبن في آخر لحظة بل لأنّه كان يشعرُ بجسارة حمقاء. وليس لأنه شعر بالشفقة بل لكونه كان غاضباً جداً. كان شعوراً مختلفاً، شعوراً غير قابل للقياس. كان يخشى أن يكون مخطئاً، أن يؤذي الرجل البريء، وأن يجعل من المرأة البريئة أرملة والطفلة البريئة يتيمة. كان على الأغلب يدرك أنه لن يعرف أبداً لماذا – لماذا رجل واحد لديه القوة ليدمر حياة عائلة كاملة.

ارتجف وصب منه العرق حتى أغرقه، فخرج خفيةً من غرفة نوم الحلاق. وحين عاد لغرفته في الأسفل، بحث عن رحلات لبورت-أو-برينس، ماتزالُ ذكرى الحلاق وهو يصوب المسدس تجاهه تطارده مازال الخوفُ يتملّكه من أن يصدق بوعده و أن يطلق النار عليه إن هو تكلم كما فعل مع والديه.

صحا داني على صوته وهو يقول قصته. كانت عمته مستيقظة، كان يستطيع رؤيتها في الظلام. بدت كأنها جالسة باستقامة على سريرها المتنقل، واضعةً تحتها المبولة لتريح نفسها. انحت للأمام ودفعت المبولة أسفل السرير، وسألته:" داني، هل كنت تحلم بوالديك؟ لقد كنت تناديهم بأسمائهم."

قال:" كنت أناديهم بأسمائهم؟" كان مستغرباً، لأن الحلاق هو من كان يجب أن يناديه باسمه.

قالت:" لقد كنت تنادي والديك بأسمائهم للتّو."

كان قد ظلّ هناك، في الحديقة الأمامية المحترقة، راجياً أن يأتي أحد والديه و يخمد لهيب هذه النيران من حوله. كان لا يزال في الباحة الخلفية، ناظراً لسيارة الحلاق تسرع مبتعدة بينما عمته تزحف على بطنها حيّة مثقلة عمياء. كان في غرفته في بروكلين مع الحلاق، يراقبه في نومه. والآن صوت عمته يأتيه كالصدى، ككل الأشياء التي كانت لديه ولا يستطيع الاستمتاع بها بعد اليوم – صوت أمه وضحكة أبيه.

قال وهو يمسح العرق من على جبينه بظهر يده:" آسف إن كنت أيقظتك."

قالت عمته بصوت يطفو باتجاهه كسفينة في الظلام:" كانت يجب علي أن أتركك تقول لي ما الذي حضرت هنا لتقوله." " هو باختصار كأنك تتسلق هذه الجبال، وفي منتصف الرحلة تنتبه أنك فقدت شيئاً ثميناً وأن عليك أن تعود وتتفقده. بالنسبة لك، لا مشكلة فمازلت شاباً وقوياً، ولكن بالنسبة لي سوف يأخذ من عمري وجهدي."

سمع صوت صرير السرير حين استلقت عليه وتمددت. استلقى على الحصير أيضاً وقال لها بالفرنسية:" عمتي استينا"

ردت عليه:" نعم، داني"

" هل كان والدي منخرطان في السياسة؟"

قالت:" يا داني!"

قال:" أرجوكِ ..."

قاطعته:" ليس أكثر من أي شخص فينا."

سألها:" ماذا تقصدين؟"

قالت:" لم يفعل والديك ما يشين، داني! أو أي شيء على الإطلاق. لا أعرف كل أسرار أخواني، ولكني متأكدة أنه دفع ثمن غلطة شخص آخر."

سألها:" غلطة من؟"

قالت:" أم با كونين"

ظن أنها قالت أسماً، لوبين أو فيرمين، فسألها ليتأكد:" غلطة من؟"

أعادت عليه:" أم با كونين"

" لا أعرف، داني. ربما غلطتنا جميعاً. هناك اعتقاد أنك إن قتلت شخصاً تحصل على علمه، تحصل على كل شيء كأنه. ربما أرادوا أن يأخذوا كل ذلك العلم لنفسهم، لا أعرف، داني! كل ما أعرفه هو أنني متعبة جدّا الآن. دعني أنام."

قرر أن يتركها لتنام، لا بد من أن تأتي فرصة أخرى ويتكلموا بها. عادت للنوم متمتمة بشيء غير واضح، ثم دخلت في صمت عميق. حين استيقظ في صباح اليوم التالي، كانت عمته قد ماتت.

كانت ابنة الشيخ أوز هي أول من بدأ النحيب، معلنة وفاة العمة للوادي كله. جالساً بجوار الجثة، على حافة سرير العمة المتنقل وبجوار رأسها، جلس داني مصارعاً ألماً آخر في بطنه. هرعت ابنة الشيخ أوز للنجدة، وصنعت له شايا مهدئاً، بينما كانا ينتظران وصول الجيران.

لم يريح ألمه الشاي، ولم يكن ينتظر منه الراحة. جزء منه كان شاكراً لهذا الألم، هذا العذاب الجسدي صارفاً انتباهه عمّا يحدث. وسريعاً بعد نواح ابنة الشيخ أوز، حضرت بعض نساء القرى المجاورة. وقتها فقط حين تعرف على اسم ابنة الشيخ أوز، أو على الأقل كنيتها (تي فانم) (المرأة الصغيرة)، كما

صرخت به النسوة وهن يمطرنها بالأسئلة.

" ماذا حدث، تي فانم؟"

"تي فانم، هل ماتت في نومها؟"

"هل وقعت، تي فانم؟"

" تي فانم، هل كانت تتألم؟"

"تي فانم، لم تكن مريضة!"

قالت تي فانم بصوت صارم ورزين:" لقد كانت كبيرة جداً بالسن. حان وقتها."

لم يلتفت إليه أحد. ولم يكن ليعرف ماذا يقول لو سألوه على كل حال. بعد آخر حديث بينه وبين عمته في منتصف الليل، اعتقد أنها نامت. وحين صحا صباحاً كانت ماتزال في فراشها، وعيناها مغلقتان، يداها مرتاحتان على بطنها وأصابعها مجدولة. حاول أن يجد نبضها، ولكنها كانت هامدة. قرّب وجهه من أنفها ليحس بنفسها، ولكن لا نفس. خرج من المنزل ووجد تي فام جالسة على عتبات المدخل، منتظرة وقت صحوهم لتصنع لهم الإفطار. كان الألم قد بدأ في بطنه. دخلت تي فام وتأكدت بنفسها أن العمة قد ماتت، بعد ذلك صرخت نائحة بصوت عالٍ يضاهي أصوات الإنذار التي قد سمعها في نيويورك.

قد امتلأ منزل العمة بالناس، كل شخص أخذ دوره في التأكد من أن الحياة قد غادرت جسد العمة، وحين تأكدوا من موتها، شرعوا في توزيع مهمات الدفن والعزاء. بعضهم ذهب ليحضر ستائر أرجوانية وسجى بها باب المنزل في علامة أن هذا البيت في حالة عزاء. والبعض الآخر ذهب ليبحث عن مغطس لم يستخدم من قبل ليغسلوا فيه الجثة. وبعضهم كان

يبحث عن فستان مناسب لترتديه العمة في الصناديق تحت السرير، والبقية ذهبوا للنجار ليصنع كفناً.

انشغل بعض الرجال بالرجل وبألمه.

قالوا:" هذا ألم الصدمة."

" ألا ترون كيف لا يستطيع الكلام؟"

" لا ينظر إليها، إنه ينظر للأرض."

قالت تي فام مواجهة لتحليلاتهم:" لديه مغص في بطنه." وأحضرت له كوباً من القهوة المملحة، شربها دفعه واحدة.

قال أحدهم:" ربما يجب أن تستلقي على ظهرك."

قال آخر مقاطعاً:" ولكن أين؟ ليس بجوارها طبعاً."

سمع صوت الشيخ أوز وهو يصرح من فوق رؤوس الرجال المحيطين به:" يبدوا أنه كان يعرف أنها كانت سوف تموت."

" زارها في الوقت المناسب. الدم يشعر بالدم. ودمها استدعاه ليراها قبل أن تموت. كان سيشعر بالخيانة لو أنها ماتت دون أن تودعه، كما مات دون توديعه والديه من قبل."

كانوا يتكلمون عنه كما لو أنه لا يفهم لغتهم، كما لو أنه مثل كلود. كان يتمنى لو يخف ألم بطنه قليلاً، ليقف من حافة السرير ولا يهتم بمراسم الدفن بنفسه، أو على الأقل شاركهم الاستعدادات. ولكن كل ما يود فعله هو أن يستلقي بجوار عمته، يريح رأسه المتعب على صدرها، ويلفّ يديه على جسدها، كما كان يفعل حين كان صغيراً. كان يود أن يغمض عينيه حتى يستيقظ من هذا الحلم المزعج حيث يتكلم به الجميع سواهما.

وفي منتصف النهار، شعر بتحسن يكفيه أن يقف بجوار الشيخ أوز وبعض الرجال وهم يحفرون قبراً في ضريح العائلة. مايزالُ ألمه موجوداً، ومازالَ يشعر بتوعك، وكانت حركاته أبطأ من الباقين. أعلن الشيخ أوز أن قسيساً بُروتستَانْتِي سوف يحضر صباح اليوم التالي يبارك الجنازة. رغب الشيخ أوز أن ينقل الجنازة إلى الكنيسة في القرية المجاورة، ولكنه رفض. قال إنّهُ متأكد من أنّ عمته لن تعجبها فكرة أن تسافر كل هذه المسافة فقط لتعود كي تُدفنَ في باحة منزلها.

قال الشيخ أوز:" أخبروني أن الكفن جاهز، سوف ترتاح فيه خلال مراسم العزاء."

في المنزل، كانت تي فام وبعض النسوة يجهزن العمة، غسلوا جسدها وألبسوها ثوباً أزرق كان قد أرسله لها في عيد الميلاد المجيد السابق مع بوبو. كان قد رأى الفستان على فاترينة أحد المحلات في جادة نورستاد واختاره لها متذكرا أن الأزرق كان لونها المفضل. كان الفستان جديداً، مازال مغلفاً ولم تقم بارتدائه. وقبل أن يغادر الغرفة، رأى تي فام تمد مقصاً صدئاً مع الفستان إلى أحد أكبر النسوة سناً والتي باشرت بقص ثلاث فتحات في البطانة الداخلية للثوب. وحالما وسمت العجوز الفستان بهذه العلامة، ناحت النسوة وولولن، صرخت إحداهن:" إستينا، هذه ثوبك الأخير. لا تسمحي لأي أحد أن يسلبه منك. حتى وإن رأيت بين الموتى من لا يستر عورته شيء، هذا فستانك أنت، لا تعطه إلى أحد."

كان قد سمع عمته تتكلم عن هذه المراسم، وسم آخر لباس للميت ولكن لم يراه من قبل. لم يسم أحد ملابس والديه لأنه تم دفنهم بسرية وسرعة. والآن في جيبه ثلاث قطع من القماش قُصّت من البطانة الداخلية لثوب عمته الأخير، وسوف يحملها معه للأبد كما يحمل بعضهم خصلاً من

الشعر أو أظفار.

لطالما اندهش بخليط الابتهاج والحزن الذي يميز مراسم العزاء في بوجور، بعض الضيوف يلعبون الورق والدومينو والبعض الآخر يحتسي الشاي وينوح. ولكن أكثر شيء كان يعجبه الوقت المخصص لحكاية قصص عن الميت، لكل معزي قصة يرويها عن أول التعارف أو آخر لقاء، قصص تجلب الغصة أو البكاء. بدأ الناس من قرية عمته يتلون القصص عنها. حكوا كيف صنعت قهوة بالتراب بدل البن المطحون، وكيف أنها هي من ساعد في توليد التوأم الثلاثي الوحيد في القرية، منقذة حياة الأطفال الثلاثة وأمهم.

قال الشيخ أوز:" في المدينة ولادات كهذه تتطلب غرف عمليات، ولكن هنا لا نحتاج لأطباء المدينة، إستينا كانت دائماً تعرف ماذا تفعل."

قال رجل آخر وهو يقدّم صبياً:" هذا أحد الأطفال اللذين ساعدت بإحضارهم إلى العالم."

وقال آخر:" وهذا صبيّ آخر."

قال شاب:" لقد ولّدتني، ومنذ أن توفت أمي كانت تعاملني كأم لأنها الوحيدة التي شهدت قدومي إلى هذا العالم بالإضافة إلى أمي."

حكوا عن بنطالها المطرز بالورود. وكيف حين كانت شابة كانت ترتديه دائماً على أمل أن يجذب لها زوجاً. وتكلموا عن أحلامها، وكيف كانت تود أن تكون خياطة لملابس الأطفال لتكسوا نفس الأطفال اللذين تساعدهم وقت الولادة. ولو استطاع الكلام، لقال لهم كيف عالجت نفسها بنفسها من آثار الحروق باستخدام لبخات الأعشاب، ولو استطاع الكلام لتكلم عن تضحياتها وكيف قضت جلّ حياتها في حمايته. لقال عن عدم رغبته في تركها والذهاب إلى نيويورك لولا أنها أصرت أن يبتعد وأن يرحل عن المكان الذي

قُتل فيه والديه.

وصل كلود متأخراً، وصل وقت تمكن التعب من الحضور، كانوا متحلقين محلقين وباكين، وقت ينكشف الغطاء عن الأعين الشبه نائمة مدركين سبب العزاء الليلي، وقت لا يمكن تجاهل الستائر الأرجوانية وحقيقة الموت.

قال كلود:" آسف يا رجل، عمتك كانت امرأة طيّبة ونادرة، أنا جد آسف." وانحنى ليحضن داني، فارداً كتفيه العريضتان أمام رأس داني ولكنه ابعد رأسه بخنوع. ربما بسبب ما قالته عمته عن كلود، أنه قتل أباه، ولكن بالتأكيد لم يكن يود أن يلمسه.

فهم كلود الرسالة وابتعد بدوره، خرج لرواق المنزل واقترب من مجموعة من الرجال الواقفين بجانب السور، ولكنهم أيضاً أشاروا إليه بعدم الاقتراب.

مشى داني إلى داخل المنزل، ووجد مجموعة من النسوة جالسات بقرب الكفن الخشبي البسيط. مايزال لا يستطيع إطالة النظر في جثة عمته في الكفن وحسد هؤلاء النسوة على السنوات العشر التي قضوها معها حين رحل لنيويورك. سحب سجادة السعف التي كانت فراشهُ طيلة الليلتين الماضيتين، وأخذها لأبعد ركن عن الكفن.

قالت تي فانم، من الممكن أن يأتي الموت فجأة هكذا. من الممكن لشخص كبير بالسن كعمته أن ينام وهو في منتصف حديثه وأن يستيقظ ميتاً. لم يكن ليصدق ذلك لو لم يراه بأم عينيه. الموت إما يأتي مسرعاً غاضباً، أو أن يكون بطيئاً ومملاً بعد مرض طويل. ربما كان الشيخ أوز على حق وأن الدم ينادي على الدم. ربما استدعته هنا لكي يكون شاهداً علي موت من نوع جديد، موت هادئ ومسالم. وربما لم يكن الحلاق هو من قتل والديه، أو لم يكن

حقيقياً فعلاً، مجرد شبح ظهر ليدله على طريق العودة.

لم يستطع النوم والنسوة جالسات بقرب جثة عمته يراقبنها، وتي فام تأتي كل ساعة بكوب جديد من الشاي الذي من المفترض أن يشفي آلام بطنه للأبد.

لم يعجبه اسمها، وكان يشعر بالحرج من استخدامه. كان أقرب إلى كونه لقبٌ عام يعطى لبنات مثلها وليس خاصية تميزها أو اسماً تتفرد به. سألها:" ما أسمك؟"

نظرت إليه بذهول، كما لو أنها شكت بقواه العقلية وبأن المرض قد أوهن ذاكرته.

أجابت:" تي فام."

قال:" لا أريد اسمك الحقيقي، اسمك كاملاً."

قالت:" دينيس أوغستي."

النسوة الجالسات بجوار كفن عمته أرهفن سمعهن للمحادثة وأملن رؤوسهن باتجاه المتحدثين.

سألها:" كم عمرك؟"

قالت:" عشرين."

قال:" شكراً"

قالت له مستخدمة تعبيراً قديماً ورسميا:" بل أنت تستحق"

بعد ذلك لم تتفادى النظر مباشرة إلى عينيه، كما لو أن حزنه وألم بطنه ومعرفته باسمها قد صيرهما نظيرين.

نهض من مكانه، ومشى باتجاه الرواق خارج المنزل حيث الكثير من جيران عمته قد توسدوا الأرض وناموا. كان القمر بدراً والهواء عليلاً، وفي البعد يمكنه سماع صوت شلال الماء، صوت قد يختفي عن أذنيك مع طول السماع وتفقد بهجته. اتجه إلى ضريح العائلة، خلع قميصه وبدأ بمسح المدخل والجدران. كان الضريح نظيفاً، قد نظفه الرجال أول لنهار، أزالوا الحشائش والأوراق والأحجار الصغيرة حين حفروا قبر العمة. ولكنه أراد أن يتأكد أنه نظيف.

سأله كلود من على بعد خطوات:" هل تحتاج أي مساعدة؟" كان جالساً في الرواق مع بعض الرجال.

رمى داني قميصه على الأرض، تسلق الضريح وجلس على سطحه، جسد عمته سوف يسكن أحد المكانين الباقيين. وقال:"أعذرني على ردة فعلي سابقاً؟"

قال كلود:" لا عليك، أتفهم. سوف أكون نجساً جداً لو أنني غضبت منك. أن تعيش ألماً عميقاً الآن. لا عليك يا رجل، أتفهم."

قال داني:" لا أستطيع وصف هذا الشعور بالألم. إنه شعور جديد. شعور لم يضعوا له اسما بعد."

قال كلود:" أعرف يا رجل، إنه شعور حقير."

وبالرغم من عضلاته المتورمة ووشومه الكبيرة، بدا كلود عاجزاً، كلاجئ ضاع في البحر، أو طفلاً يبحث عن والديه في مركز تسوق، وربما هكذا تصوره داني، لكي يجعله أقل إرهاباً في عينيه فلا يخافه.

قال داني:" سمعت أنك قتلت والدك."

لم تكن الكلمات بتلك القسوة حين خرجت من فمه، لم تكن بقسوتها

وهي تدور برأسه. وضع كلود كلتا يديه في جيبي بنطاله وأزاح بنظره بعيداً في بساتين الموز.

سأل وهو يعيد نظره إلى حيث كان يجلس داني فوق الضريح:" هل من الممكن أن أجلس؟"

قال داني:" لم أقصد أن أؤذيك، فعلا الموضوع ليس من شأني."

قال كلود بنبرته الحادة:" نعم قتلت الشيبة الكبير. الموضوع أصبح معلوماً للجميع هنا. أتمنى أن أقول لك إنّهُ كان حادثاً، أتمنى أن أقول لك إنّهُ كان نجساً وأساء تربيتي بالضرب فاضطررت أن أدافع عن نفسي. أتمنى أن أقول إني كنت أكرهه، لم أحبه قط وأنه لا يهمني. كان عمري أربعة عشر سنة وكنت مدمناً، دخل غرفتي وأخذ ما كان عندي من هذه النجاسة. لم تكن لي، كنت أحتفظ بها لشخص آخر. كنت متهوراً، وكنت أريد ما أخذ بشدة. كان لدي مسدس أستخدمه لكي أحمي نفسي في الشوارع. هددته به، ولم يعطني ما ليس له، فقتلته."

كان الحزن في صوت كلود أقل ممّا توقع داني سماعه. ربما كان كتوماً هو أيضاً. ربما لم يتعلم أبداً كيف يحزن على ما فقد، ولم يواسي أحداً حزيناً من قبل. وربما موت أحد الأبوين مبكراً جداً في الحياة سواء بيد الشخص نفسه أو بيد الآخرين يميت المشاعر في داخل الشخص.

قال داني:" أنا آسف" وخمّن في داخله أنّه ربما كان يجب عليه اختراع كلمات أخرى بدل آسف لتدل على نوع الأسف المقصود.

قال كلود وهو يمسح بظهر يده ظلال دمعة على وجهه بحركة سريعة:" آسف؟ أنا أكثر الحقراء حظاً. لقد فعلت جريمة شنعاء تجعلني أود أن أعيش باقي حياتي كملاكٍ. لو لم أكن قاصراً، لحكم عليَّ بالسجن المؤبد، وربما

حكموا بالكرسي الكهربائي. ولو كان في السجن مُتسع، ولو كان الضباط في ذلك السجن يفهمون شيئاً أصلاً، لكنت الآن في زنزانة صغيرة مع ألوف من الناس وهكذا لن أكن أقف قبالتك ونتحدث."

رفع كلود يديه للسماء، رافعاً صوته، كما لو أنه كان يدعو النجوم صارخا:" بالرغم من كل شيء فعلته، وبالرغم مما حلّ بي، أنا أكثر الحقراء حظاً على هذه الأرض اللعينة. هناك شخص ما في مكان ما يحفظني ويرعاني."

بقي قرابة الساعة قبل الفجر وهو موعد دفن العمة. كان القمر في أفول، مُعلناً الغياب ليظهر في مكان آخر. فكر داني أن الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله لأجل عمته الآن هو أن يتكلم مع كلود. ولم تكن مهمة صعبة إطلاقاً فكلود ينتمي إلى نفس القبيلة. كان كلود بالانيت، متكلم بالليل، واحد من هؤلاء اللذين يستطيعون أن يحكوا كوابيسهم بصوت عالٍ، أن يخرجوها من داخلهم. سوى أن كلود محظوظ جداً، كان باستطاعته أن يحكي كوابيسه لنفسه وللآخرين في الليل وساعات النهار حين يختفي القمر تماماً عن الأنظار.

6

حائكة فساتين الأعراس

كانت بياترس ساينت فورت في قيلولة الظهيرة حين وصلت الصحفية المتدربة إلى بيتها الجديد في فار روكوي في كوينز. أتت لتجري معها مقابلة خاصة بمناسبة يومها الأخير كحائكة ملابس أعراس.

شكل المتدربة الخارجي كان متميزاً وبدا واضحاً جداً من جدائلها الأفريقية الطويلة بلون العنبر، وحلق ذهبي على فتحة أنفها اليمين. إنها هايتية أمريكية.

طرقت الصحفية مطولاً على الباب قبل أن تفتح لها بياترس التي ظهرت بثوب نوم أخضر طويل وخفين على شكل أرانب. فتحت بياترس نصف الباب واتكأت بجسدها اللين القصيرعلى المدخل، فركت النوم من على عينيها وعطفت كتفيها إلى الأمام كشخص قضى كل حياته يبحث عن أشياء على الأرض.

قالت المتدربة:" اسمي آلين كاجوستي، كلمتك بالأمس" وأكملت بنبرة متسائلة:" أخذت معك موعدا كي أقابلك اليوم في الساعة الثانية؟"

قالت بياترس وهي تزيح قبعة النوم من على رأسها الشبه مثلث:" أها، نعم."

سألت آلين:" هل أستطيع الدخول؟"

قالت بياترس بصوت جهوري آمرةً، بالرغم من صغر جسدها:" طبعاً، تفضلي هنا إلى أن أتجهز للقاء."

بعد نصف ساعة ظهرت بياترس، أجمل وأصغر سناً، مرتدية فستاناً بنفسجي اللون قصيرا وشعرا بنيّا مستعارا ومتموجا. وضعت جانباً ملفاً كانت تعمل عليه لمجلتها عن الممثلة جابريل فونتينو - قال لها مرة رئيس المحررين في المجلة السيد ماجوري فولتير:" مثل هذه المقالات المبهجة هي ما نحتاج أن نركز عليه أكثر."

رفعت آلين نظرها باتجاه بياترس، كانت تجلس على أريكة مغطاة بالبلاستيك بجوار النافذة، وقالت بتهذيب:" هل نبدأ؟"

قالت بياترس:" بالتأكيد، ولكن أولاً سوف أحضر لك بعض القهوة."

وقبل أن تتمكن آلين من رفض أو قبول العرض، كانت بياترس قد اختفت خلف الباب المتحرك الذي يفصل بين غرفة الجلوس وبقية البيت. الفرصة سانحة الآن كي تتأمل آلين الأشياء حولها وتدون بعض الملاحظات.

كانت غرفة الجلوس خالية إلا من أريكة وطاولة زجاجية وبعض الصناديق المغلقة في أحد الزوايا، مما جعل وصف المكان للمقالة مهمة سهلة، على أحد الجدران صورة للمسيح عيسى، لم يكن أبيض أو أسود ولكن كان ثمّة لون يجمع بينهما، وأسفل منه صورة بلا رأس لعارضة ترتدي فستان عرس مطرز بالدانتيل.

نادت آلين من غرفة الجلوس:" أساعدك؟"

ردت بياترس:" لا تتحركي، لن أتأخر!"

وتبعاً لساعة آلين، أخذت بياترس ٢٠ دقيقة أخرى لتجهز القهوة. ظهرت بياترس أخيراً، فقررت آلين أنها لن تتركها تختفي عن ناظريها مجدداً هذه المرة حتى تنتهي المقابلة.

قالت بياترسوهي تراقب آلين:" قولي لي، أليست هذه أطيب قهوة تتذوّقينها في حياتك؟"

وفعلاً كانت قهوة طيبة. كان في منزل آلين ماكينة صنع اسبريسو باهضة الثمن. وحتى الآن لم تتمكن من صنع كوب قهوة واحد يضاهي هذا الكوب الذي صنعته بياترس. ماكينة الاسبريسو كانت هدية تخرج من الجامعة من صديقتها الثلاثينية، أرسلته لآلين من ميامي والتي كانت تعمل في إدارة قسم علم النفس في جامعة فلوريدا العالمية.

في مكالمة متأخرة من آخر أسبوع للاختبارات كانت الصديقة قد سألت آلين عن ماذا تريد بمناسبة تخرجها، قالت آلين المجهدة من السهر أنها تريد أن: تتوقف عن شرب قهوة غير جيدة، وأن ألا تأكل طعاماً مجمداً، إضافة إلى أن تفعل شيئاً مهماً في حياتها.

فأرسلت الصديقة لآلين جهاز صنع الإسبر يسو، وبطاقة هدية بقيمة ثلاثمائة دولار لمطعم خمس نجوم، وكتبت على البطاقة:" والباقي، عليك اكتشافهُ بنفسك."

قهوة بياترس جعلت آلين تشعر باسترخاء، متجاهلة نصيحة رئيسة التحرير:"لا ترتاحي مع الضيوف."

قالت لها ذلك مباشرة بعد أن عرضت عليها فرصة التدريب. تذوقت آلين طعم الكحول في القهوة، ولكن لم تستطع أن تميز نوعها. فقد صنعت بياترس القهوة بطريقة احترافية تغطي نكهة المشروب الكحولي الذي أضافته، ولكن

مازال تأثيره واضحاً.

شعرت آلين بخدر في أصابع يديها وقدميها، وشعرت بالراحة باتجاه بياترس، بدت كصديقة تعرفها أو يجب عليها أن تتعرف عليها أكثر، مثل صديقتها البروفسورة في ميامي الباحثة دوماً على انتصارات جديدة على الصعيد الشخصي أو المهني.

سألتها بياترس:" هل تودين أن تعرفي سري؟"

لم تكن آلين سريعة في فهم أن ما تتكلم عنه بياترس هي القهوة. فوضحت بياترس:" هل تودين أن تعرفي لماذا طعمها طيب جداً؟"

قالت آلين:" نعم، أثرتِ اهتمامي."

قالت بياترس وهي تسكب لنفسها كوباً:" السر في الوقت، دائماً لا أتعجل، سواءً في تجميل نفسي، أو في تحضيرِ قهوتي، أم في حياكة فساتين الأعراس."

أدخلت آلين يدها بداخل حقيبتها وأخرجت جهاز تسجيل صوتي ووضعته على طرف الطاولة الزجاجية بينهما، وفكرت لو أن بياترس تأخذ وقتها في صنع الفساتين كما تفعل في صنع القهوة وارتداء ملابسها، لكانت العرائس عمّدن أطفالهن قبل أن يتسنى لهن أن يرتدين فساتين العرس.

قالت آلين:" هل تسمحين لي بالتسجيل؟"

قالت بياترس كما لو أنها هي من يعمل المقابلة:" أولاً ذكريني لما هذه المقابلة؟"

قالت آلين:" كما ذكرت لك بالأمس، أنا كاتبة لدى مجلة الجالية الهايتية الأمريكية الأسبوعية، وقد صنعت فستان زواج لرئيسة التحرير ماجوري

فولتير، هل تذكرينها؟"

رفعت بياترس يدها إلى ذقنها وحاجبيها بتركيز وتمعن كمن يرسم ماجوري في الغرفة.

أكلمت آلين:" ماجوري كانت حزينة حين علمت أنك ستتوقفين عن حياكة الفساتين، وطلبت مني أن أكتب قصتك."

في الحقيقة، ما قالته ماجوري كان:" سمعت أن المرأة التي صنعت فستان زواجي سوف تتخلى عن هذه المهنة، اذهبي وتكلمي معها، ربما نستطيع أن نحصل على مقالة صغيرة من هذا الموضوع."

قالت بياترس بنظرة قانطة:" لا أتذكرها. ولكني صنعت الكثير من الفساتين، لكثير من الفتيات. على كل حال كان من الأفضل لو كتبتِ هذه المقالة عني قبل أن أتوقف. كان ذلك سوف يساعدني على الحصول على زبائن إضافيين، ليتسني لي التقاعد مبكراً."

هبّت آلين عند هذه النقطة لتبدأ المقابلة، ضغطت على زر التسجيل وسألت:" هل تسمحين أن أسألك كم عمرك؟"

قالت بياترس:" كبيرة، جداً."

حاولت أن تخمن، وقالت:" أربعين؟" بالرغم من أن بياترس بدت أكبر بكثير، في أواخر الخمسين على الأقل.

رمت بياترس رأسها إلى لخلف وهي تضحك بصخب، تاركة لوجهها حرية التلوي بحيث لو كان وجهها قطعة من القماش لاحتاج ساعات من الكيّ ليصبح ملساً مرة أخرى.

أكلمت آلين:" هل كنت تحبين أن تتقاعدين مبكراً؟"

قالت بياترس:" كل شيء يحدث في وقته المقدر له. هذا ما أقوله لفتياتي اللاتي أصنع لهن الفساتين حين يشتكين من أن قطار الزواج أتى مبكراً أو متأخراً. على فكرة، هل أنت متزوجة؟"

قالت آلين:" لا."

قالت بياترس وهي تحتسي رشفة من كوب القهوة:" لا تقلقي. لن أعطيك محاضرة عن عظمة مؤسسة الزواج."

قالت آلين:" هل من الممكن أن تخبريني لماذا قررت الاعتزال الآن، بعد كل هذه الخبرة و هذا الوقت؟ لك فترة طويلة في هذا المجال، صحيح؟"

قالت بياترس رافعة رأسها عالياً:" عندما كنت في هايتي، في ذلك الوقت كنت أطرز كل خيط بنفسي، لم أكن بحاجة إلى أية مساعدة، فأنا لا أحتمل وجود أناس في منزلي لوقت طويل، لذلك كنت أفعل كل شيء بنفسي. أما الآن فقد أصبح ذلك صعباً، فأنا متعبة."

قالت بياترس ذلك بنبرة فخورة، بالرغم من حاجتها وكبر سنها لم تحاول أن تحرك مشاعر تعاطف أو شفقة، وقد أعجبت آلين بذلك كثيراً.

قالت آلين:" هل لك أن تخبريني كيف تصنعين ثوب عرس؟"

تنحنحت بياترس: "هممم، حسناً" أتبعتها بسعلات ناشفة قوية وسريعة لتصفي حنجرتها، سعلاتها كانت كسعال مدخن شره.

أكملت:" فتياتي " وحين أقول فتياتي فأنا أقصد الفتيات اللاتي أصنع لهن الفساتين- حين يأتين هنا حاملات صوراً لعارضات طويلات ونحيلات في فساتين تكلف آلاف الدولارات، يأتين ويقلنَ "أمي" أطلب منهنّ أن يناديننني كذلك احتراماً يقلن أمي، هذا فستان أحلامي. جزء من عملي

يجبرني أن أقول لهن دون أن أجرح مشاعرهن أنهن قصيرات أو بدينات أو يحملن أطفالاً في بطونهن، من المستحيل أن يرتدين فستاناً كهذا. وحتى لو كلفني مالاً، أنا لا أصنع ما أصنع لأجل المال، حين ترتدي أي من فتياتي أحد فساتيني، فإن الجميع في الزواج سوف ينظر إليها، وبالتالي ينظر إلي. أنا الفستان."

فكرت آلين، بما أن الحديث قد أخذ مجراه، ماذا عساها أن تسأل أيضاً لتحصل على جواب طويل. فسألت:" هل سبق لك الزواج؟"

قالت بياترس:" لا تسألي امرأة بعمري سؤالاً كهذا، أبداً."

قالت آلين مبررة:" قد يرغب القراء أن يعرفوا إن كنت قد صنعت فستانا لنفسك. كما أنك أنت من بدأ وسألتني سابقاً ...!

قاطعتها بياترس:" من المقبول أن تسألي آنسة، ولكن مع امرأة بعمري، احتفظي بسؤال كهذا لنفسك. لم أرغب أبداً أن يسألني أي أحد هذا السؤال. ولذلك أطلب من جميع فتياتي أن يناديننني ب أمي."

كتبت آلين على ورقتها:" لا تذكرين هذا الموضوع."

وسريعاً، امتلأ أحد جهتي شريط التسجيل، وحين قلبت آلين الشريط على الجهة الأخرى الفارغة، وقفت فجأة بياترس واقترحت أن يخرجا خارجاً في الحي لكي تراه.

قالت آلين في محاولة للاعتراض:" لكني لا أرغب بذلك الآن."

ولكن بياترس وقفت وبدأت بالمشي فعلاً في اتجاه الباب.

كان عصراً مشمساً بالرغم من هبوب الرياح. كانت هنالك سناجب وطيور على شجرة الدردار العظيمة أمام منزل بياترس. وفيما عدا مركز

الرعاية بالأطفال في آخر الشارع، بدت كل البيوت متشابهة، واجهات من الطوب الأحمر، أسطح مثلثة، وشبابيك بثلاثة أجزاء في الدور الأول، وجزأين في الأدوار العلوية. هناك بعض العتبات من الشارع باتجاه الباب، وجزء من الأرض في مقدمة البيت، بعض الناس زرعوها بالنباتات والآخرين حولوها لموقف سيارة إسمنتي.

وبينما كانتا تمشيان في الحي، أشارت بياترس إلى بيوت بعض جيرانها، معرفة بهم بأعمالهم أو جنسياتهم، دون أن تذكر لها أسماء. على اليسار كان بيت الخباز الإيطالي وزوجته ضابطة في الشرطة. وعلى الشارع المقابل، كانت بيت طبيب أسنان من غيانا وابنته مديرة في البنك. وعلى أسفل الشارع، كانت بيت الأخصائي الاجتماعي من الدومنيكان، وبعده بيت المدرس الجامايكي، وأخيراً بيت حارس السجن الهايتي.

هاجت حالة سعال بياترس مجدداً أمام منزل حارس السجن، حين هدأت قليلاً كان وجهها أحمر وعينيها رطبتان.

سألت آلين:" أين يعمل؟" متخيلة أنه يقطع مسافة طويلاً يومياً ليذهب لأحد الإصلاحيات في شمال نيويورك.

ردت بياترس:" كنت أعرفه في هايتي."

أشارت بأصابعها باتجاه النافذة الأمامية لمنزل حارس السجن، ولم تقل شيئاً آخر.

بدا لآلين كأن بياترس تشير بأصابع اتهام. فكرت آلين بنفسها هل كان صديقاً قديما؟ عدواً جديدا؟ أم حبيباً راحلاً.

فسألت:" هل بينكما حديث؟ هل أنتما أصدقاء؟"

قالت بياترس شاهقة:" أصدقاء؟؟" ثم مضت مبتعدة، وهي تلوح بيديها

باتجاه البيت متشائمة، كانت تريده أن يختفي.

حين رجعت المرأتين إلى عتبة بيت بياترس، ذكرت بياترس نفسها أنه يجب عليها أن تقص الأطراف العليا من هذه الشجرة الكبيرة، ثم مشت باتجاه المطبخ. نظرت آلين حولها مجدداً في غرفة الجلوس، لكن هذه المرة باحثة عن معلومات تدل على هذا السجان الغامض، بحثت عن صورة، عن رسالة حب أو حتى كراهية، عن أي ذكرى.

عادت بياترس ومعها المزيد من القهوة الساخنة، وسألت آلين وهي تجلس ومعها كوب نظيف:" هل تدرسين لتفعلي ما تفعليه الآن؟"

قالت آلين:" ليس تماماً. درست الآداب الفرنسية." ثم تابعت موضحة:"كتب ومقالات كتبها فرنسيين خلال قرون."

ولكن هذا التوضيح لم يوضح أي شيء فعلاً، كما لم يوضحان أي شيء لوالدي آلين سابقاً. كان والدي آلين يديران مركز رعاية للأطفال في قبو أحد الكنائس في مدينة سمرفيل في ولاية ماساتشوسيتس. فسكتت آلين.

لم تكن ترغب أن تقول لبياترس إنّ سبب عملها كصحفية متدربة هو المال. كان هذا أول عمل تحصل عليه بعد أن هجرتها صديقتها. كانت تحتاج لعمل يبدو جدياً في حال قابلت صديقتها أو أحد أبويها.

سألت بياترس دون تفكير:" حين كنت تدرسين هذا الشيء، الفرنسي، هل تعلّمتِ أي شيء مفيد؟"

حدس آلين وكل ما تعلمته من ماجوري فولتير يخبرها أنها الآن قد فقدت السيطرة على المقابلة. ولكن بصراحة كانت مستمتعة بهذا الاهتمام الذي لم تحصل على مثله منذ وقت طويل.

كان من الصعب عليها أن تتذكر المئات من الكتب التي قرأتها أثناء الدراسة. ما كان حاضراً في ذهنها، غير أستاذة الجامعة، كان فلماً عن تجربة الانطباع العميق كانت قد شاهدته في حصة نفس ١٠١.

في الفلم كان هناك طفل رضيع وضع على سطح زجاجي وتحته صورة لأخدود، كان الطفل يحبو على السطح الزجاجي ويبكي، كان واضحاً أنه كان خائفاً بالرغم من أنه لم يرَ أخدوداً في حياته من قبل ولا يعرف شعور السقوط فيه. في ذلك الوقت، اعتقدت آلين أن التجربة قاسية و لم تستطع أن تشاهد بقية الفلم، ولكن بالرغم من ذلك لم تستطع أن تنسى القليل الذي شاهدته.

بعد أن انتهت من قص حكاية تجربة السطح الزجاجي والأخدود، انتبهت آلين إلى صندوق الخياطة الخشبي على فخذي بياترس التي كانت تبحث عن شيء بداخله. كان مقسماً إلى أربع حجرات وفي كل حجرة أدوات خياطة مختلفة: كتشبانات، إبر و دبابيس مغروزة في مخدات واقية، وأشياء عتيقة بدت كما لو أنها سافرت عبر العصور. حين وجدت بياترس ما تبحث عنه تنهدت الصعداء، كان كتشباناً ذهبياً وحفر عليه بخط صغير جداً اسمها و أطرافه زينت بنقوش زهور برية.

قرّبت بياترس الكتشبان من الحلق على أنف آلين، ثم قامت بتجربته على على أصابعها العشر، بالتوالي. سألتها آلين في محاولة لأن تكمل اللقاء:" ماذا سوف تفعلين حين تتقاعدين؟"

قالت بياترس وهي تفرك الكتشبان بين يديها كما لو كانت تبقيه دافئا:" أسافر، مجدداً"

سألتها آلين:" لماذا؟"

أعادت بياترس الكتشبان إلى الصندوق ثم وضعت الصندوق بما فيه على الأرض. غطت عينيها بيديها، وتدريجيا أزاحت أصابعها كما لو كانت تكتشف العالم من جديد.

قالت بياترس وصوت غطاء الأريكة البلاستيكي يصر تحتها:" كنا نسميهم تشوكيتلا روزي. يأتون لمنزلك. غالباً في الليل، ولكن أيضاً يأتون في أول ساعات الصباح، حين يبدأ الندى يتجمع على الغصون والأوراق، يأتون ليخطفوك. كان واحداً منهم. حارس السجن كان واحداً منهم."

خلعت بياترس صندلها ورفعت قدميها في وجه آلين لكي ترى أسفلهما، كانت جلدتها خفيفة و بيضاء شفافة كبشرة طفل مصاب بالبرص.

أكملت بياترس وهي تضع قدميها على الأرض بداخل الصندل:" دعاني للخروج معه للرقص في أحد المرات. كان لدي خطيب، فرفضت. فأخذني ووضعني في السجن. ربطني إلى عامود وجلد باطن قدمي حتى خرج الدم منها، ثم أجبرني أن أعود للبيت مشياً بلا حذاء. على طرقات القار وتحت شمس الظهيرة اللاهبة. هذا الرجل، تبعني هنا، ويسكن على شارعي بجوار بيتي."

وقفت بياترس وجمعت أكواب القهوة الفارغة ووضعتها على الصينية لتحملها، وقفت آلين لتساعدها، ولكن بياترس دفعت يديها بعيداً.

طرأ على آلين سؤال، كان سؤالاً لابد منه، وربما كان مهينا بعض الشيء، سألت:" هل أنت متأكدة أنه هو نفس الشخص؟"

أزاحت بياترس الشعر المستعار ذو اللون الأحمر من على رأسها، كاشفة عن خصلات بيضاء بلون القطن من الجدائل المحبوكة بقرب من الجمجمة والمشدودة بقوة خلف الرقبة. رفعت يدها إلى أعلى رأسها وحكّته كمن يود

أن يشعل ناراً.

قالت غاضبة:" لا يمكن أن تنظري لوجه كهذا وتنسيه. لا يوجد إنسان مثله على هذا الأرض، وحتى لو كبر بالعمر وتغير، فسأظلُّ أعرف من هو."

كانت آلين جالسة بداخل سيارتها الواقفة أمام منزل حارس السجن معها دفتر الملاحظات وجهاز التسجيل. قالت مخاطبة ماجوري فولتير،على الهاتف:" أتوقع أنها أقرب للجنون والغرابة."

كان صوت ماجوري مستعجلاً وفضاً بعض الشيء، ردت بحدة:" أنا في اجتماع حالياً مع مصورين، ولدي صاحب إعلان غاضب على الخط الآخر، والمطبعة تأخرت بنسخة هذا الأسبوع، ألسنا كلنا غريبين ومجنونين بعض الشيء؟ أعرف أنك فخورة جداً بحصة نفس ١٠١ التي درستها في الجامعة، ولكن لم أرسلك هناك لتحللي نفسية المرأة، ارجعي بالقصة التي أرسلتك من أجلها: حائكة فساتين أعراس تتقاعد. ببساطة."

من خلف مقعد السيارة الأمامي، تأملت آلين النافذة الأمامية لبيت الحلاق، وشجرة الدردار من بيت بياترس تطرح أوراقها، كانت شجرة الدردار الوحيدة في الحي، وكانت تهتز مع هواء العصر العاصف، ومع كل هزة كانت تطرح المزيد من الورق في غمضة عين. كانت بياترس جالسة عند عتبة باب بيتها تنظر إلى الشارع، ولكن غالباً كانت تنظر إلى الأوراق المتناثرة. كان منظراً عجيباً ولكن بنفس الوقت جميلاً، تطلق الشجرة بعض الورق في الهواء، ثم تسقط على الأرض ببطء كما لو حُملت على أجنحة الحماية. كانت صورة تخليد اللّقاء مناسبة جداً لأن تكون خاتمة المقال، ولكن فكرت آلين بأنه لن يكون مبتكراً، في النهاية كان الفصل خريفاً.

كانت آلين تنوي أن تذهب مباشرة إلى المكتب لتكتب سبقها الصحفي:

تقاعد حائكة فساتين أعراس ببساطة،إذا نجا المقال من مقص رئيسة التحرير ماجوري فولتير، فقد يتحول إلى تقرير مختصر أو حتى إعلان من خمسة سطور.

ولكن قبل أن تدير مفتاح السيارة، رفعت نظرها متأملة بيت حارس السجن، تفكرت لو كانت القصة تكمن هنا، قصة أكبر وقد تفرض احترام ماجوري فولتير. لفت انتباهها شيء أسود مربع ومعدني، كان صندوق الرسائل، فسحبت المفتاح من السيارة وتأملته.

كان مثبتاً على الطوب الأحمر، أسفل من رقم المنزل، كان ممتلئاً بالرسائل والأوراق، يبدو وكأنه لم يلمس منذ وقت طويل. خرجت آلين من سيارتها، وقطعت الشارع، وببطء صعدت الدرجات إلى مدخل البيت، كان هناك نافذة صغيرة في أعلى الباب ومغطاة بورق من نفس لون الباب. قلبت خلال محتويات صندوق البريد، بحثت بينها بسرعة على أسماء أو عناوين. وجدت أغلبها إعلانات لمحلات تجارية، تخفيضات في السوبرماركت، مغسلة الحي، مطاعم، ومجلة نسائية. كلها لم توجه لشخص معين كلها كانت موجهه إلي" المستأجر" نزلت آلين العتبات وتأملت المنزل من بعيد، النافذة الأمامية كانت مرتفعة جداً، عليها لتطل إلى الداخل كما أنها كانت مغطاة بالبلاستيك الغامق من تحت الستائر.

على جانب المنزل، كان هناك نافذة أخرى مغطاة أيضاً بستارة، ولكن كانت أقرب للأرض والستارة كانت أخف من تلك التي على النوافذ الأخرى، وكان هناك فتحة صغيرة بين إطار النافذة والستارة المنسدلة مما قد يسمح لها بالنظر داخلها.

تحركت بخفة واعتيادية كي لا تجلب الانتباه لما تفعله. إذا رآها أحد من الجيران، سوف يعتقدون أنها زائرة وليست متطفلة. وحين رفعت جسدها

باتجاه النافذة، خطفت نظرة أخيرة باتجاه الشارع لتتأكد من خلوه.جمعٌ من الصبية المراهقين عبروا الشارع، ضاحكين ولاعبين وغير منتبهين لما يدور حولهم.

انتظرت حتى يعبروا المنزل، أصواتهم اختلطت مع أصوات السيارات في الشارع، ثم وقفت على أطراف أصابعها، حانية رأسها، ومادة رقبتها، ونظرت إلى داخل المنزل. ومن حيث كانت واقفة، استطاعت أن ترى جزأً من غرفة يبدوا أنها كانت غرفة الطعام، خمنت، من خلال مقارنتها هذا البيت ببيت بياترس، أن غرفة الجلوس لابد أن تكون أول غرفة في بداية البيت. كان هناك سلالم خشبية للطابق العلوي، وغرفة الطعام كانت خالية. الجدران كانت بلون أبيض ساطع، كما لو أنها طُليت للتو، والأرضية الخشبية كانت تلمع كما لو أن أحداً قد طلاها بالورنيش ولم تنشف بعد. على كل حال، لا يبدو أن هناك من يسكن في هذا البيت.

سمعت آلين صوت سيارة تتوقف أمام مدخل المنزل المجاور، فابتعدت عن النافذة فوراً. مشت لمقدمة المنزل حتى أصبح بإمكانها أن ترى بياترس مرة أخرى جالسة عند عتبة بابها، تحيك.

قال لها الجار الملاصق للبيت:" هل تبحثين عن أحد؟"

فكرت آلين أنه لابد أن يكون المدرس من جاميكا.

استشعرت اللطف في صوته حين سألها:" هل أنت صديقة دولي؟" فتأكدت أنه المدرس.

استفسرت آلين:" دولي؟"

أعاد سؤاله بابتسامة عريضة على وجهه كما لو أنه أراد منها أن تؤكد:" هل أنت صديقة دولي؟"

سألت آلين:" ألا يسكن هنا رجل؟ ضابط إصلاحية بالتحديد؟"

قال الرجل وهو يلعب بمفاتيحه، يرميها من يد لأخرى:" لم يسكن أحد هنا من بعد دولي رودريقيز. وهذا قبل سنة من الآن، أعرف أنها تحاول أن تبيع البيت، ولكن ذلك صعب جداً على امرأة تعيش في بوقوتا. يجب عليها أن تعود هنا وتجلس لفترة لتبحث عن مشتر بنفسها."

قالت آلين:" شكراً لك، لم أكن أعرف ذلك."

قال الرجل:" لا مشكلة"

واستمر بالتلويح مودعاً حتى وصلت لبيت بياترس، ثم دخل بيته. شعرت أنه اكتشف كذبتها.

فكّت بياترس ضفائرها، حتى بدا شعرها الأبيض الكث كسحابة غاضبة فوق رأسها. جلست آلين عند آخر العتبات حيث وضعت بياترس خفيها على شكل أرانب وهي تحكي بصمت آخر فساتينها. لم تعلق بشيء كما لو أنها لم تكن تريد أن تقطع تركيزها، بعد أن انتهت من خياطة حشوة الفستان، ارتاح وجهها حتى بدت بلا حياة تماماً كشجرة الدردار التي تتجمع حولها الأوراق.

قالت وهي تجمع أطراف الفستان حولها حتى بدت كحيوان كبير مغطى بالشاش:" ها، لقد عدتِ."

قالت آلين:" البيت فارغ."

لم يبدو أن بياترس كانت مصدومة كما توقعت آلين. أو حتى محرجة لأن آلين تكلمت مع جار السيدة دولي رودريقيز.

قالت بياترس وهي ترفع يديها في الهواء مؤكدة:" طبعاً البيت فارغ.

هذه هي خطته ليختفي عن الأنظار، في البيوت المهجورة، وإلا فإن الشرطة سوف تتصيده وتضعه في السجن ليكفّر عن أفعاله."

أزاحت بياترس الثوب من فوق حضنها ووضعته أرضاً بجانبها ناظرةً إلى الشارع و منتظرةً مرور بعض السيارات قبل أن تتكلم مجدداً.

قالت بياترس:" أتوقع أنه سيجدني في كل مكان أنتقل إليه لأنني أخبر جميع فتياتي بمكاني الجديد ، في حال أرادوا زيارتي مرة أخرى. ولذلك دائماً يجدني، لا شك في ذلك. ولهذا السبب لن أرسل عنواني الجديد إلى فتياتي بعد اليوم، ولن أحيك الفساتين مجدداً، حين أنتقل هذه المرة فلن يعرف مكاني."

ترعرعت آلين فقيرة في سومرفيل في ماستشرسيتس، ولم تتخيل أبداً أن تقابل أناس مثل بياترس. رجال ونساء ملأت مأساتهم الجليلة كل الفراغات في حياتهم. ربما كان هناك المئات، أو حتى الآلاف من الناس يعيشون مثل بياترس. رجال ونساء يبحثون عن أجزائهم الضائعة في الآخرين. ربما آلين نفسها أحدهم، هؤلاء الناس هم ما يلهم آلين للكتابة الآن، ولا يهم رأي ماجوري فولتير. وإن لم يعجبها ذلك، فسوف تستقيل وتبحث عن عمل في مكان آخر. ربما تعود لمدينتها سمرفيل، وتظهر لوالديها حقيقتها. وربما تهرب إلى فلوريدا لفترة، لتتجنب وجبة مطعم الخمس نجوم. ولكن الآن كل ما تريد أن تفعله هو أن تجلس مع بياترس وأن تسمح بمرور بعض الوقت ، لكي تسمح لنفسها بأن تتأمل أوراق الخريف وهي تتساقط ببطيء من شجرة الدردار غارقة في شمس المغيب الذهبية.

7

ذيل القرد

تكومت أنا وأمي تحت سريرها الصغير بعد أن اخترقت حجر صغير اللوح البلاستيكي الذي وضعته على نافذة غرفتنا الأسبوع الماضي كطبقة حماية إضافية ضد بعوض الزقاق. كانت مرتعبة من كل هذه الإثارة في الخارج، كانت تحاول أن تخرج الهواء من رئتيها بين هجمات الفُوّاق المفاجئة. أغمضت عينيها وتحسست المسبحة على رقبتها، وبين كل شهقة هواء وفواق دعت:" يا يسوع، يا مريم ويا يوسف القديس، أدعوكم أن تحموني أنا وميشيل."

يبدو أن أصوات زحف الحشود المتدفقة عبر الزقاق بين محطة مياه مونسيور كريستوف وبيتنا هي ما جعل السرير يهتز وليس جسدي أو جسد أمي. سمعنا أصواتاً تصرخ:" أخرجوا يا ماكوتوس! أخرجوا يا ماكوتوس." مجبرين المتطوعين في مليشيا الدفاع الوطني على الظهور من مخابئهم.

لقد تغير بلدنا تماما بين عشية وضحاها. كان مغشياً علينا تحت نظام دكتاتوري برئاسة رجل قصير وسمين يبلغ الرابعة والثلاثين وزوجته الفاتنة. تسللوا خارج البلد في منتصف أحد الليالي - شاهدت الصور في التلفاز بعيني قبل أن أصدق الأخبار- كانت الزوجة جميلة بشعرها البني الطويل المعقوف تحت قبعة بيضاء وأطراف أصابعها المنمقة والمرتبة بعناية تحمل سيجارة طويلة، أما الزوج فكان يقود سيارة العائلة البي أم دبليو

متجهين إلى مطار يحمل أسم أبيه الراحل الذي ورث عنه الدولة بعمر التاسعة عشر. ركبوا في طائرة أمريكية سوف تحملهم إلى منفاهم في فرنسا. وانتهى عهد الزوجين الرئاسيين، بالنسبة له استمر خمسة عشر عاماً وبالنسبة لها ستة سنوات زواج.

غير أن رحيلهم قد يَتَّم الكثير من رجال المليشيا الموالين وجنود الحرس الرئاسي الذين لازموا الزوجين ودافعوا عنهما بكل الأعمال الوحشية. والآن يبحث السكان عن هؤلاء الوحشيين بتصميم جيش في منتصف أعتى معاركه.

ابن عمي فافال، الذي ترك المنزل عند الفجر ليلحق بشاحنة ذاهبة إلى المحافظة المجاورة، أجل رحلته ليعود ويطلعنا على ما يجري، وقال لنا أنه في طريقه إلى مركز الحافلات رأى مجموعه من الناس قد ربطت أحد هؤلاء المليشيا إلى عامود وصبّوا البنزين أسفل حلقه ثم أضرموا فيه النار. ربما قطيع الناس الذي يمشي على الزقاق الآن لديه نفس الهدف الانتقامي. على الأغلب يبحثون عن رجل اسمه ريغيليوس ويسكن قريباً منا. لديه ابن عمره ثمانية عشر عاماً، اسمه رومين. كان بطلي وأفضل صديق لي في ذلك الوقت.

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى اتجه الحشد إلى بيتنا. كان علي أن أذَكّرَ نفسي أن هؤلاء الرجال و النساء، صغارا و كبارا، لا يقصدون أي ضرر لأناس مثلنا: أمي، فافال و أنا.

فافال كان متيقناً من أن الأذى لن يطالنا، كان واقفاً خارج المنزل يراقب الحشد، كما لو كان أي موكب احتفال عادي يمر. أما أمي فمبدأها في التعامل مع الحياة قائم دائماً على الهرب، كانت تقول:" من الصعب على المصاعب أن تجدك وأنت تحت سريرك." (نعم أعرف أنه مبدأ ضعيف ومن سهل جداً إثبات نقيضه) فضلت أن نختبئ تحت السرير. والحجرة الصغيرة التي ثقبت

نافذتنا، عززت من موقفها.

كنت خائفاً جداً، وكنت في الثانية عشر من عمري. وحسب كلام أمي فقدتُ أبي قبل ثلاثة أشهر من ولادتي لسبب وصفته لاحقاً بشكل غامض على أنه "سياسي"، مما يجعلني رقماً آخر من هذا الجيل من الأولاد الذين بلا آباء، كلنا فقدنا آباءنا سواءً للموت أو لحياة النكران، منهم من رحل لمحافظة أو بلد آخر، أو حتى لمنزل آخر في الشارع المقابل ويرفضون الاعتراف بنا.

مات الكثير من الآباء في سجون الديكتاتور، وكثيرون تخلوا عنا ليخدموا نفس النظام.

خفّ الفواق عن أمي، وظنت أن الحشود قد ابتعدت مسافة آمنة عن منزلنا لكي تخرج من تحت السرير. مسحت عرق الخوف من على جبينها بطرف تنورتها، وتلت بعض الصلوات مشيرة بعلامة الصليب على صدرها قبل أن تسحب نفسها من تحت السرير، ثم تقف لتنتظر خروجي، جلست على حافة السرير تنفض الغبار الأبيض من على ركبتيها.

قالت أمي فوراً، مسترجعة طبيعتها القوية:" كنت أعرف أن الفتاة لم تكن تمسح تحت السرير." ربما أرادت أن تمحو من ذهني صورتنا ونحن خانعين في صمتٍ تحت السرير رعباً وجبناً.

"الفتاة" التي تقصدها أمي هنا اسمها روزي وهي قرابة بعيدة، حضرت من القرية لتساعدنا في أمور المنزل من طهي وطبخ وتنظيف، في المقابل، وعدت أمي والدي روزي، الفلاحين البسطاء أن ترسلها إلى المدرسة. في الحقيقة كان التعليم الوحيد الذي حصلت عليه روزي يتوفّرُ فقط عندما لا تجد لها عملا داخل المنزل، فتجعلها أمي تقف على ناصية الشارع لتبيع المشروبات الغازية وتتكلم مع الناس العابرين. ولأني كنت أحب روزي

بجنون - كنت سأتزوّجها لو لم أكن أكبرها سناً- لم ألمها للحظة على الغبار المكوم تحت السرير، ولكني كنت أذكى من أن أدافع عنها أمام أمي والتي كانت ستحول حنقها من روزي علي.

جيشان المشاعر هذا بسبب روزي ورحيل رئيسنا المخلوع والحشود التي عبرت الزقاق جعلني أشعر بالجوع. ولكن كل ما أردت فعله في تلك اللحظة هو التوجه إلى بيت رومين والتأكد من أنه بخير. ومثلنا، رومين ووالدته لا يوجد لديهما سبب يجعلهم يخافان الناس الغاضبين. كانوا يبحثون عن والد رومين، ريغيليوس. كان قد فعل بهم أفعال شنيعة من ضرب، سرقة الأموال والممتلكات، ووضع العديد من أقاربهم إما في السجن أو القبر. وبالإضافة إلى هذه الجرائم، كان ريغيليوس قد تخلى عن رومين عندما كان عمره شهراً واحداً. لم يناده رومين ببابا من قبل، كان يناديه ريغيليوس، ولكن كأي شخص آخر، وهو اسم عائلته الذي لم يتمكن رومين من يتسمى به حتى.

***

التقيت رومين حين كان صغيراً. وأصبحت أمي وأمه صديقات تتبادلان الزيارات في نهاية كل يوم. كنت أذهب مع أمي في كل زيارة تقوم بها، وبينما تجلس الأمهات في الداخل يتحدثن، نخرج أنا ورومين لنلعب الكرة في الخارج.

على عكس أغلب الأولاد الأكبر سناً، لم يكن لرومين الكثير من الأصدقاء. كما أنه لم يكن يستاء من اللعب مع طفل مثلي. في الواقع، أحياناً يبدو أنه يعجبه اللعب معي. كثيراً ما كان يظهر أمام منزلنا ظهيرة أيام الأحد، ليطلب من أمي السماح لكي يأخذني معه لنشاهد فلم الكونغ فو أو لنركب

الدراجة في ساحة التشانز دي مارز.

بعد مدة، اختلفت أمي مع أمه لسبب لم نعرفه لا أنا ولا رومين. لم تعد تذهب أمي لزيارتهم، وتوقف رومين عن زياتنا. أصبحت لقاءاتنا قليلة جداً، ومن فترة لأخرى نرتب لقاءً لنشاهد فلماً عن الكاراتيه، وخاصة إذا كان فلماً جديداً لبروس لي.

كان رومين وحيداً، ككل الأطفال بلا أخوة. وربما لهذا السبب كان دائماً يهتم بي. يتدخل لو كنت في شجار مع أطفال الحي الآخرين، ويعطيني بعض المال من محفظة أمه لأشتري حلوى أو آيس كريم، ودعاني لبيته أكثر من مرة حتى حين لا تكون أمه موجودة. كانت خادمتهم أوبيرتي تعد لنا ما اشتهيه من أكل وحلويات منزلية، وكان يقرأ لي من كتب لم أقرأها يوما وكتّابٍ لم أسمع بهم من قبل. وبالرغم من عدم فهمي لما يقوله، كنت ممتناً له لأنه كان يكلمني كنظير له، كرجل.

حين أتذكر كل هذا الآن، أدرك كم كنت بحاجةٍ إلى شخص مثل رومين في حياتي. لابد أنه احتاجني أيضاً. في الحقيقة كان صديقي الوحيد، فروزي وفافال كانا دائما مشغولين بطلبات والدتي الكثيرة. عندما خرجت أنا وأمي خارج المنزل أخيراً، وجدنا فافال وروزي يعلقون على الموكب الذي عبر للتو.

قبل أن تدرك روزي أنني وأمي كنا ننظر إليها، انحنت روزي لتلتقط بعض الزهور والحشائش التي نثرتها الجموع حين عبروا، واستنشقت عبيرها رغم من أنها كانت متسخة بالطين والغبار.

فافال أيضا مشى إلى الشارع وجمع بعض من الزهور وعلب البيرة والرّم الفارغة. ولكن أمي، واضعة حداً لتأملاتهم، أمرتهم أن يعودوا للمنزل

ويجدوا شيئاً نافعاً ليفعلوه. تمكنت روزي بطريقة ما من مقاطعة أمي لتلفت انتباهها إلى أن الحشد قد كسر صنبور ماء في محطة مونسيور كريستوف، وأن المياه المجانية تتدفق من الصبور على الأرض أسرع من تدفق الدم من رقبة خنزير ذبح تواً. برز حشد آخر مختلف، حشد مليء بالخادمات والخدم وأطفال فقراء وأطفال الخدمة من الذين باعهم آبائهم بسبب الفقر. كان معهم أنواع وأحجام مختلفة من القناني والقوارير والدلاء لجمع هذه المياه الثمينة. عندها أمرت أمي روزي وفافال بالاستعجال لجمع أكبر قدر ممكن من المياه وإحضارها إلى لمنزل.

و أنا واقف بجوار أمي، حاولت أن أحسب مقدار خسارة مونسيور كريستوف. في الدقيقة الواحدة، كانت كل صنابيره الستة تضخ عددا كبيرا من جالونات الماء من خلال المقابض المكسورة.

في العادة، كان يبيع دلو الماء بعشرين قرشا للجميع ما عدا والدتي، التي استطاعت أن تشتري منه بسعر أرخص قليلاً. وحين لا يوجد مشترين للكاسافا، والمشروبات الغازية، والخبز والمانجو وحتى قبعات القصب، كانت أمي تطلب من روزي أن تبيع الماء بالكوب على الناس العطشى في الشارع.

الآن مونسيور كريستوف، وهو رجل أجهم بنفس طولي وبلون القرفة، كان يحاول أن يغلق الصمام الرئيسي ليوقف تدفق المياه من الصنابير الستة. لكن يبدو أن أحداً ما أخذ المفتاح مما أجبر مونسيور كريستوف وبعض الرجال معه على إغلاق الصمام بالقوة. قال لي مونسيور كريستوف حين رآني واقفاً ين محاولاته اليائسة:" ميشيل، تعال هنا. نحتاج مساعدة."

فكرت في نفسي أن عصراً جديداً قد أتى. فعدد الناس الأحياء المتظاهرين اللذين يسيرون في الشوارع بالرغم من أنه لم يكن موسم احتفال دون أن

يطلق عليهم الماكوتوس (المليشيا) النار، يؤكد ذلك. وعليه ما الحق الذي يملكه هذا المواطن الذي يكنز المياه ليأمرني بأن أفعل أي شيء؟

ومع ذلك، مشيت باتجاهه، طبعاً الدفة القوية التي تلقيتها من أمي ساعدتني في حسم قراري. بالإضافة، هناك دائماً احتمالية لأن تعود الأمور لما كانت عليه من قبل - من الممكن أن يذيع التلفاز صوراً للزوج الرئاسي عائداً ومن الممكن للحشود المعارضة أن تتناثر - أيضاً هناك أشخاص لديهم محلات تجارية في منطقتنا، من أمثال مونسيور كريستوف الذي كان ومازال قوياً من خلال السيطرة على الماء أو الخبز أو الحاجيات الهامة بغض النظر عما يحدث على الصعيد السياسي.

كرهت مشاركة مونسيور كريستوف عملية إغلاق الصمام، لأنّ ذلك يعني تأخر زيارتي لرومين. على كل حال، لم أشعر أني كنت أساعد، كان هناك الكثير من الصبيان والرجال الأقوياء يقدمون أفكاراً ويستعملون أدوات سباكة يحملونها دائماً في جيوبهم. بدوا كأنهم مستمتعين بالمهمة أكثر مني. رغبت أن أترك الماء يتدفق. ربما كان هناك الكثير من الدماء السائلة على أراضٍ مختلفة في البلد ذلك الصباح، دماء ميليشيات على أيادي ضحايا سابقين، ودماء ضحايا سابقين على يد مليشيات يقاتلون لحماية حياتهم. ربما كان هذا الماء بمثابة التطهير الذي يقدم للآلهة نيابة عن جميع القتلى، مهما كانت ميولهم السياسية.

ولكنني لم أفكر هكذا في ذلك الوقت. كل ما كان يشغل تفكيري ببساطة هو أن أذهب لأزور صديقي. الآن كرجل ثلاثيني، تتدفق في رأسي الأفكار. وأنا مستلقي على سريري بجوار زوجتي الحامل، مراقباً الساعة وهي تتقدم باتجاه منتصف الليل، ونحو موعد ولادتها.

انضممت على مضض إلى مجموعة الرجال المتقرفصين حول صمام

مونسيور كريستوف الغبي، محاولين إغلاقه. لكني قضيت وقتي في مشاهدة المزيد والمزيد من الناس يجمعون المياه العذبة في دلائهم، والمزيد من أطفال الشوارع يستمتعون بدش استحمام ارتجالي تحت الصنابير المكسورة، أحياناً يتم دفعهم جانباً من قبل الكبار حتى يُستخدم الماء لأسباب أكثر أهمية. كانت أمي واقفة على الجهة المقابلة للزقاق تراقبني. وفي كل مرة تلتقي فيها أعيننا، كانت تعطيني نظرة موبخة لأنني لا أساعد أكثر. ومع ذلك كنت أرى أنها فخورة بي، فلأول مرة تراني محاطاً برجال وأفعل ما يفعله الرجال. بدت سعيدة أن مونسيور كريستوف كان يطلب مساعدتي في مهام مثل حمل خرقة أو مفك، وهي مهمات كنت أتناوبها مع توبن، ابن مونسيور كريستوف المعترف به.

كأني بأمي تقول:" عجيب كيف تأتي البركات تباعاً."

وعجيب أيضاً كيف يجعل الأشخاص الأغنياء من هم أقل منهم حظاً يشعرون بالأهمية فقط من خلال إشغالهم بعمل ما. وبقدر ما أحببت أمي، كنت مستعد أن أبادل ابتسامتها بكلمة، كلمة واحدة أو حتى إهانة من رومين.

حانت لي فرصة للهرب حين ذهبت أمي لتساعد روزي و فافال لجمع المزيد من الماء. كانت تمشي على الزقاق حاملة معها دلوين صغيرين ممتلئين، ثم دخلت إلى المنزل لتضعهم. أعطيت توبين ابن مونسيور كريستوفر، وهو صبي شاحب البشرة يبلغ من العمر اثني عشر عاماً. المفك البراغي الذي كنت أحمله. وفي اللحظة التي كان فيها مونسيور كريستوفر مركزاً على ربط الصمام، ركضت.

شعور مختلف خيّم على حينا. كان الناس يتجولون مذهولين، ويتبادلون بعض المعلومات التي جمعوها من الراديو أو التلفاز أو من بعضهم البعض.

ومثل روزي، الكثير كانوا يجمعون النباتات من الأرض ويلوحون بها في الهواء. بعض الرجال ارتدوا عصابات رأس حمراء حول رؤوسهم، و في أيديهم عصي و فروع أشجار كبيرة يأرجحونها في الهواء، ويصبون البيرة وشراب الرّم على رؤوس بعضهم. والبعض الآخر كانوا يرقصون ويقفزون متوقفين بين فترة وأخرى صارخين بعبارات كبتوها في صدورهم طويلاً:" نحن أحرار" أو " لن نكون سجناء للأبد."

أجراس الكاتدرائية القريبة تدق دون توقّفٍ، والعديد من الناس يهتفون من خلال النوافذ وخلف مقود السيارات بأن قبر الرئيس الأب الذي ورث البلاد لأبنه قد تم نبشه. كانت هناك إشاعة في وقت مبكر أن الابن قد حمل عظام الأب معه إلى المنفى، ولكن الناس الذين فتحوا قبر الأب أكدوا أن لديهم العظام والجمجمة، فساروا بها في أنحاء المدينة محتفلين.

الجرافيتي في كل مكان: اللعنة على الرئيس الراحل وزوجته، اللعنة على الفقر، اللعنة على المعاناة، واللعنة على كل ما يمكنك أن تتخيله. ومن أخبار الإذاعة المرتفعة من كل بيت، فهمت أن بيوت المسؤولين الحكوميين السابقين وقصر الرئيس وزوجته قد تم نهبها، رائحة الكيروسين و المطاط المحترق تعبق بالمكان، كانت مسألة وقت فقط قبل أن تستبدل رائحة المطاط برائحة الأجساد.

تم إغلاق الأبواب بإحكام في منزل والدة رومين. وتذكرت حين وصلت هناك أن والدة رومين في رحلة تجارية لتشتري بعض القماش من جزيرة كاراسو القريبة. أم رومين كأمي ذات عقل تجاري، غير أنها كانت تعمل على نطاق أوسع من أمي.

جاءت عمة روبين فيستا إلى الباب وطلت من طرفه لتتأكد أنه أنا. كنت في حالة حب مع فيستا أيضاً، انتشى لرؤية عنقها وساقيها الطويلتين اللتين

عرضتها بحرية في تنانيرها القصيرة. سمحت لي فيستا بالدخول بعد تردد. أرادت مني أن أعطيها وصفاً مفصلاً عمّا يحدث في الشارع، ففعلت. ولكن في النهاية كل ما أرادت فعله حقاً هو أن تعرف إن تم القبض على ريغولوس أم لا.

قالت:" لا أعتقد ذلك."

أزهر صوت رومين من داخل غرفة نوم فيستا، قائلاً:" هذا الرجل الكبير بالسن قد رحل بعيداً عن هنا." في الغرفة كان هناك طاولة وراديو مشغلاً رسالة مسجلة من الرئيس المخلوع.

أعلن الديكتاتور بصوت متعالٍ يشبه صوت والده: "لقد قررت أن أنقل أمانة مصير هذه الأمة إلى الجيش."

كانت خطابات أبوه الطويلة تبث باستمرار على الراديو، في الذكرى السنوية لوفاته. والآن أُعلن أن ستة رجال أغنياء أغلبهم ضباط في الجيش، سيتولون السيطرة على البلاد.

قالت فيستا:" سيكون الأمر كما كان، لن يتغير شيء."

كان رومين واقفاً في الزاوية كالصخرة يستمع للإعلان في المذياع، أشار لي بأن أمشي من خلال الستار الدانتيل الأبيض الذي يفصل غرفة فيستا عن بقية البيوت. كان واضحاً أنه لم يغتسل، يغير ملابسة أو يمشط شعره منذ آخر مرة رأيته فيها، أي قبل ثلاثة أيام. لم يحلق ذقنه وكان حافي القدمين، حاكاً ساقه الهزيلة من فوق الجينز المستورد الذي يرتديه. بدا كأن عينيه الغائرتين في الحمرة تحاربان لأجل ومضة، يبدو أنه لم ينم كفاية أيضاً.

كان بيت أم رومين ذو الطابقين والجميل جداً هدية عن طيب خاطر له، كان يقول إنَّ البيت كالتعويض لأنه مجبرٌ على التسمي باسم عائلتها. حين

دخلنا إلي الغرفة الزهرية، وجلسنا على الأريكة، لحقتنا أوبيرتي و سألتنا إن كنّا نرغبُ في شرب شيء ما.

قال رومين:" لاحقاً" وأشار لأوبيرتي أن تخرج.

لكنها تجاهلته، وأحضرت لنا كوبين من عصير الليمون الطازج وقطعة كبيرة من الخبز بالزبد، على صينية ملونة بصور شواطئ كارسوا مكتوبٌ عليه أسماء أجنبية مثل باربرا، ماريو وجيرمي.

ونعم، كنت في حالة حب مع أوبيرتي أيضاً. أحياناً، كنت أحلم أن أوبيرتي وفيستا وروز يأتون إلى غرفتي التي أتشاركها مع أمي، طالبين من أمي أن تخرج، ثم يبدآن في القتال فيما بينهن من سوف تنال شرف أخذ عذريتي.

تقلبت زوجتي على سريرنا، محاولة لئلا تنقلب على ظهرها، كان الجانب هو المكان الوحيد الذي تستطيع النوم عليه هذه الأيام. و أنت أيضاً يا ابني، نائم على جانبك، كما أتخيلك، مستريحاً في انتظار رحلتك الوشيكة لنا (ربما سوف تقول لي بالتفاصيل ماذا كنت تفعل بالداخل.)استمع لأمك وهي تقول لي الآن:" ميشيل، هل مازلتَ تتكلم إلى هذا الشريط؟ اذهب إلى النوم، إن أتى الطفل غداً، سوف أحتاجك مستعداً."

واستمع لي أنا، أبوك وأنا أقول لها:" دقيقة واحدة فقط."

ثم استمع مرّة ثانية وهي تقول في نبرة فيها القليل من الهزل، كما آمل:" أتمنى لو أني كنت أحد هؤلاء النساء اللاتي تحلم في أن تنام معهن."

***

الآن نعود لرومين.

لم يشرب رومين عصير الليمون الذي أحضرته أوبريتي. كان يرتجف

وأصابعه تهتز قليلاً كلما رفع قطعة الخبز باتجاه فمه. وضع بقية الخبز على الصحن، ثم وقف ومشى في أنحاء الغرفة بوتيرة حادة، وقف وضغط وجهه على الجدار، كان قريباً جدا من ضرب جبهته عليه، ثم مشى باتجاه التلفزيون الكبير على الطاولة، مد يده كما لو كان يريدُ تشغيله ولكنه تراجع. رجع إلى الأريكة وجلس، ثم التقط كأس عصير الليمون وشربه دفعه واحدة، حدق في الزجاج وكان هنا طبقة سميكة من السكر البني التي ترفض أن تذوب.

سألته:" متى سوف ترجع أمك."

قال:" خلال يومين."

رفع نظره من على الكأس ثم اقتبس مقوله من فولتير كما هي عادته حين يُقَدّم له شيء فيه الكثير من السكر: " هذا هو ثمن أكلهم للسكر في أوروبا."

حينما كان يحضر لاختبارات البكالوريا، تشتت انتباه رومين جداً بجزئيّة الأدب الفرنسي، كان يقرأ كتبا كاملة عن مقطع صغير رآه في أحد دروسه. كان متأخراً عن بقية الصف، محاولاً قراءة جميع ما كتب عن الموضوع حتى يتقنه. وفي نهاية المطاف، تخلى عن المدرسة تماماً كي يدرّس نفسه بنفسه. في محاولة لتوضيح سبب تركه للمدرسة، ذكر لوالدته مقولة من شخص آخر - في وقت لاحق عرف أنها مقولة لسقراط-:" اعرف نفسك وسوف تعرف عالم الآلهة."

والآن، حين نظر إلى عصيره المحلّى وقال اقتباسه من فولتير:" هذا هو ثمن أكلهم للسكر في أوروبا." قلت له:" حسناً، يا صاحب الجلالة،" أشعر بالغبطة لأن والده لم يكن الشيء الوحيد في ذهنه.

قال:" أشاركك كلمات فولتير، لأخبرك أنهم في أوروبا يأكلون السكر المخلوط بدمائنا، بينما أنت هنا تسخر مني بوصوف استعمارية."

اعتقدت أن هذه المحادثة أحد محادثات رومين الاعتيادية، وعليه قلت:" يبدو أن هناك الكثير من السكر في هذا الكأس، هل معنى ذلك أننا نشرب دمنا أيضاً؟"

ضحك وقال: غبي جداً، كأنك خنزير صغير قرر أن يسأل أمه لماذا أنفها كبير جداً وقبيح، اسمح لي أن أقوم مقام هذه الأم وأقول لكم: خنزيري، ولدي الحبيب، يوماً ما سوف تجد الجواب بنفسك.

ضحكنا سوية، ثم قال بعد أن عبس فجأة:" هل تعلم، لم تعد أخبار الإذاعة أو التلفاز تستهويني، الخالة فيستا تتفرج عليها طوال الوقت، أما أنا فلا."

قلت له:" لماذا تشاهد التلفاز أو تستمع إلى الراديو، إذا أردت أن تعرف الأحداث فانزل إلى الشارع."

كنت أشعر بالغرور والوقاحة، كنت أغامر كثيراً، وأفعل أشياء ترفضها أمي، مثل زيارة رومين. شعرت أني أفضل منه لأول مرة، وشعرت أنني أستطيع أن أقول له، أخيراً، عن أشياء تجري في عالمنا.

قال في تجاهل تام لمحاولاتي:" أعلم أنه لا ينبغي على أن أشعر بهذا الشعور، لكني قلق على ريغولوس، وأعلم أن هذا الرجل الأشيب لن يجلس في زاوية منتظراً منهم أن يمسكوه، يبدو أن الناس مثله يموتون في النهاية، موتاً بطيئاً مؤلماً."

سألته:" متى كانت آخر مرة رأيت فيها ريغولوس؟"

قال:" في الثامن عشر من مايو الماضي. كان يمشي في موكب احتفالية اليوم الوطني، على أرض القصر مع كل الماكوتوس الآخرين، ذهبت لمشاهدة ذلك العرض الغبي فقط لأكتشفه."

كل ما استطلعت قوله:" ربما لن يجدوه. لديه الكثير من النساء، وأحدهن سوف تخفيه لديها جيداً، وربما عبر الحدود لجمهورية الدومنيكان."

قال رومين موافقاً على مضض على كل هذه الاحتمالات:"ربما."

ربما يتمكن ريغولوس من البقاء على قيد الحياة، وربما تمكن من إيجاد طريقة ليبزغ من كل هذه المصاعب والمصائب والخطايا كرجل جديد، ربما يعترف بكل أولاده ويعطيهم اسمه، ويقبلونه، يرجو منهم العفو، لما فعله بهم و بوطنهم الأم.

برزت والدتي في ذهني مرة أخرى. أعتقد أنها تبحث عني بشراسة الآن، آمرة روزي و فافال بالانضمام إلى عمليّة البحث. أتوقع أنها كانت تفكر أني أتجول مع المتضاهرين، في محاولة لمعرفة أين سيذهبون بعد ذلك، من سوف يصيدون وماذا سيفعلون به.

سأل رومين:" مابك؟"

اعترفت:" أنا قلق على والدتي، ربما تكون قلقة علي الآن."

قال:" إثنا عشرة عاماً ومازالت طفل أمك. سوف أجعل منك رجلاً اليوم، وسوف نفعل ما يفعله الرجال مثل ريغولوس، سوف نهرب."

لم نخبر فيستا إلى أين نحن ذاهبون. ركضنا ببساطة من أمامها، و تمتم رومين أننا سوف نعود سريعاً.

صرخت فيستا حينما كنا نركض عبر باب البيت:" عودا إلى هنا حالاً. هل تعرفان أي جنون يحدث في الخارج؟ عودا حالاً."

كنا نعدو بعيداً حين سألت رومين:" إلى أين نحن ذاهبون؟"

قال رومين:" لو كان لدينا وجهة معينة، فما نفعله هو رحلة وليس هرباً."

أغلب المحلات التجارية بجوار منزل رومين أغلقت أبوابها، بالرغم من أن الشوارع كانت مزدحمة بالناس. في الطريق إلى موقف الحافلات، وجدنا أنفسنا في وسط جنازة وهمية حيث حمل مجموعة من الرجال تابوتين خشبيين، واحد للرئيس والآخر لزوجته. بعض الرجال في الحشد ارتدوا ملابس القسيس وبعض النساء ارتدين السواد نائحات باكيات بينما كنّ يمثلن أنهن في غيبوبة من شدة الحزن. وكان من بين المشيعين الوهميين بضعة رجال في زي جينز أزرق، الذين زعموا أنهم هم من فرقوا شمل الماكوتوس.

شققنا طريقنا بين الحشود ودخلنا زقاقاً أهدأ على جانب الطريق. وجدنا سيارة أجرة هنا، قفز بداخلها رومين وقال:" نود الذهاب إلى فندق لا سينساتيون."

قال السائل:" لن يكون ذلك سهلاً."

قال رمين:" خذ كل الطرق الجانبية التي تعرفها، وسوف ندفع لك جيداً."

سائق التاكسي أكد لنا أنه من المستحيل الهرب مما يحدث خارجا، سواء إلى الفندق، أو خارج المدينة، أو حتى خارج الدولة. إلى أي مكان ذهبنا، وحتى في أضيق الشوارع، كنا نراهم يلوحون بالأعلام ويمزقون الصور القديمة للرئيس وزوجته، ويحملون حاويات من الكيروسين آملين في العثور على أحد الماكوتوس ليعاقبوه.

وحينما وصلنا أخيراً إلى ما يسمى بواحة الفندق، أشار لي رومين بالدّخول وانتظاره في الحديقة بينما ينهي الحساب مع السائق.

مشينا باتجاه الباب الرئيسي سوية لنجد أن جميع الغرف محجوزة من قبل بعض الصحافيين الأجانب اليائسين المتوقع وصولهم خلال الأربع

والعشرين ساعة القادمة. كان رومين يعول على صديق دراسة قديم يعمل الآن حارساً في الفندق، كان أمرا متوقعاً من أن يجد لنا غرفة نختبئ فيها حتى تهدأ الأوضاع. كان هروبنا ممولاً من أم رومين التي تركت لنا مبلغاً كبيراً من المال عندما سافرت.

و من المثير للدهشة، حتى لنفسي، أنني رغبت فجأة في العودة للبيت. اشتقت لوالدتي، ماذا لو أنها كانت قلقة جداً حتى الجنون؟ ماذا لو أنها تسير في شوارع المدينة الآن تصرخ باسمي؟ ماذا لو اعتقدت أني مت و أن جسدي قد وضع في مقبرة جماعية؟ لم نجد صديق رومين، و الفتاة الجميلة الواقفة خلف مكتب الاستقبال في الفندق كانت تنظر إلينا بغضب، نظرة من لم يكن ليعطينا غرفة حتى لو توفر الكثير.

لم يكن هناك ما يمنعنا من أن نجلس هنا لفترة، ونشرب شيئاً. وبعد ذلك كنا سنعود للمنزل. مشينا خلال اللوبي، إلى مظلة كبيرة بجانب حمام السباحة على شكل قلب. سألنا رجلا مرتدياً بدلة وربطة عنق عمّا نود شربهُ. طلب رومين كولا فطلبت مثله. من الغباء جداً أن نقطع كل هذه المسافة فقط لأجل كأس من الكولا.

نظر رومين إلى أعلى باتجاه التلال خلف الفندق وخلفها سلسلة جبال عالية جداً على بعد المدى. مرت سحابة ضخمة فوق أقرب وأبرز واحد مون لوبيتال، ثم فجأة تشتت السحابة وأصبحت السماء شديدة الزرقة كزهور الذرة مجدداً.

لمحني رومين وأنا أحدق في الجبال، فقال:" تخيل لو أن هناك جبل اسمه مستشفى، يجب علينا أن نختبئ فيه."

لقد فشلت مغامرتنا الصغيرة في الهرب، فكيف بالهروب أكبر إلى الجبل؟

وبالرغم من ذلك قلت: "حسنا"

في حين كنا نحتسي الكولا، متأملين السائل الأسود الفوار يتسلق رويداً عبر قشة الشرب، مشى اتجاهنا رجل بعمر رومين، وجلس بجوارنا. بدت على رومين ملامح الراحة حين رآه. كان الرجل ذو مظهر متميز، حليقاً نظيفاً و متوتراً. مد يده للسلام على رومين، و لكنه أشار باتجاهي بالتحية فقط، ثم أعطى بعض المعلومات حول الوضع السياسي الجديد، وكيف أن الفندق سوف يفقد الكثير من الزبائن المخلصين، مثل فتيات الهوى و الماكوتوس الذي يطلبون خدماتهم بالعادة.

قال رومين ببساطة: " لابد أنه وضع صعب جداً، يا صديق."

ثم نظر الرجل باتجاهي ثم باتجاه رومين مجددا، كان يرغب أن يقول شيئاً ولكن لم يكن متأكداً من وجودي لسماعه. أخيراً قال رومين:" لا بأس يا رجل"

عندها أدركت أنّ هناك سبب أكبر لزيارتنا لهذا الفندق. ومثل كل شيء آخر في حياة رومين، هذا أيضاً لم يكن بسيطاً.

" يمكنك أن تخبرني أمام الرجل الصغير. هل هو هنا؟"

قال الرجل بنظرة آسفة ومتعاطفة:" آسف يا رجل، لم يأت هنا، ربما ذهب لمكان آخر."

توجهت عينا الرجل نحو البركة على شكل قلب، ثم تململ على كرسيه:" المكان مشغول جداً، آسف لم تستطع الحصول على غرفة، كان يجب علينا أن نستغل الفرصة."

تركنا عند هذه الجملة، وسار بعيداً. أبقى رومين رأسه إلى الأسفل، و أبقى على احتساء الكولا، وبالرغم من صغر سني فهمت ما يحدث. اثنا عشر

سنة لصبي مثلي، صبي دون أب، وصبي بأم تحاول أن تحميني من العالم حتى أجبرتني أن أخرج إلى العالم و أكتشفه بنفسي، مثل عشرين عاماً لأي صبي آخر.

قال رومين:" كان يحضر النساء هنا أحياناً. كنت اتبعه وأعتقد أنه سوف يأتي هنا اليوم."

سألت:" من؟ أبوك؟" لا أعرف لماذا قلت ذلك، كان سؤالاً غبياً أسأله دائماً.

قال رمين حانقاً:" لا، أبوك، كريستوف."

لا أعتقد أنه يدرك لماذا اعترف بذلك، كان غاضباً وكانت أعصابه ملتهبة. و على كل حال كنت قد شككت بالأمر. لا يدرك الناس حولي أني كنت فطناً، كنت انتبه لهمساتهم من الجارة في الحي التي همزت أكثر من مرة إلى أنني أشبه توبين، ولد الزوجة، الولد الشرعي، توبين نفسه كان يكرهني و يرفض أن ينظر إلي مباشرة، و حتى أمه، الزوجة الشرعية كانت ترفض أن تأتي إلى محطة المياه لتتفادى مواجهة أفعال زوجها الشنيعة و النتائج الحية من تلك الأفعال.

وبالرغم من ذلك كان مؤلماً جداً بالنسبة لي أن أُذَكّر بوجود أبي الذي عمل في مكان قريب جداً من بيتي ولم يناديني يوماً بابني. ولم أعرف يوماً لماذا كانت أمي تعاني جداً في الحصول على لقمة العيش بينما كان بإمكانها أن تطلب منه، لماذا كان عليها أن تجبر روزي أن تعمل كأمة لنعيش ونأكل. ولم أفهم أبداً لماذا لم يعرض كريستوف بعض المال على أمي لتطعمني وتكسوني، لماذا كل ما فعله هو أن يبيعها ماء بسعر مخفض، ولماذا لم يعطها الماء بلا مقابل، بما أنه ماء وأنه من الأشياء الضرورية لي، كابنٍ له، أن أعيش عليه.

جلست مع رومين وزجاجتين من الكولا، لم يشكّل إعلانه أن كريستوف هو أبي صدمة بالنّسبة لي، وبالرغم من ذلك بكيت. كنت أشعر بألم العار، بأن أكون سراً شائناً. حاول رومين أن يمد يده وأن يضرب رأسي، ولكني صددت رميه. وكنت أرغب في أن أحطم أحد زجاجات الكولا على رأسه، ولكني كنت أعرف أنه سوف يمسك بيدي قبل أن أصل إليه. كان قد جلبني إلى هنا ليجعل مني رجلاً، هل هذا ما كان يقصد؟ هل كان يعتقد أن رؤية والده القاتل مختبئاً في حنايا هذا الفندق الفقير خائفاً على حياته من الحرق سوف يمثل لي نوع الرجال اللذين يجب أن لا أكون مثلهم؟ وهل كانت طريقته الفضة والحادة في إعلان أن كريستوف هو والدي أسلوبه في أن يحذرني من أن أكون رجلاً مثل كريستوف؟ أو هي طريقته الاعتيادية لإجباري على قبول ما يوشك أن يفعله إن هو صدمني أولاً؟

بدا لي أن رومين كان على وشك المغادرة دوني. قال لي:" التاكسي في الخارج ينتظرك، سوف تتمكن من رؤيته والدتك."

كنت غضباً منه جداً لأسأله عن وجهته. ولم أكن مهتما.

قال:" سوف أغادر البلد الليلة."

أتذكر أني سمعت نفسي أقول بين شهقات البكاء:" ولكنك لم تفعل شيئاً يستحق الهرب." ولا أذكر الآن إن كنت أبكي على رومين، أو ريغولوس أو كريستوف أو نفسي.

قال رومين:" لا أستطيع البقاء."

قالت له:" ماذا عن أمك؟ عن ريغولوس؟"

قال:" سوف أتواصل مع أمي حين أصل لوجهتي. أما ريغولوس، فلا يشكّل مشكلة بالنسبة لي.

بدا واضحاً جداً وقتها من الطريقة التي كانت تهتزُّ فيها يده و عبوسه حتى كادت قطرات العرق تختفي تحت طيات جبينه، أن ريغولوس كان دائماً مشكلته، المشكلة الأكبر في حياته.

قال:" انطلق فوراً، التاكسي في انتظارك."

نهضت ببطء، ومشيت مبتعداً، أعد كل خطوة على السلالم المؤدية إلى بهو الفندق، ثم الخطوات المؤدية إلى سيارة الأجرة، جلست في المقعد الخلفي و أغمضت عيني ومعه أغلقت عقلي عن كل الضجيج و الأغاني و الحشود في الشارع، كانت السيارة تمشي ببطء وكانت الطرق خطرة ولم يكن يهمني أي شيء.

ومع كل ما كان يحدث، بالرغم من سرقات بيوت المسؤولين والقتل و الحرق و الرجم للماكوتوس، و بالرغم من الجثث المكومة في مشارح المدينة و بالرغم من المقابر الجماعية للماكوتوس على أطراف العاصمة، سوف يكون من القسوة بمكان أن تعاقبني أمي، ولذلك لم تفعل. في المقابل زعقت في روزي وفافال لعدم مراقبتهم لي عن كثب و للسماح لي بالابتعادِ عن نظرهم.

قالت أمي بنظرة شديدة ولكن حنونة بنفس الوقت:" بعد فترة بسيطة من اختفائك، تمكن مونسيور كريستوف من أن يغلق صمام الماء، ولكن ليس بعد أن ترك لأصحاب الحي الفرصة لأن يأخذوا كفايتهم، فيما لو ساءت الأوضاع واضطررنا إلى البقاء في بيوتنا لأيام أو أسابيع، مثل تلك الأيام حين كنا تحت الأب قبل أن تولد."

سألت باستغباء:" الأب؟"

كنت أعرف أنها تقصد الأب الديكتاتور، أب الرئيس الحالي، ولكن بطريقة ما أردت أن أعطيها فرصة الكلام، بالرغم من أنّني كنت شبه متأكد

من أنها لن تتكلم أبداً.

وعلى الرغم من أن الوقت كان باكراً، كان هناك بعض الضوء في الخارج، ذهبت إلى السرير، تاركاً لأمي حرية الاعتقاد أن ما يضايقني الآن المشاكل السياسية في البلاد ولا شيء آخر، سوف أدع أمي تحتفظ بسرها، ولن أدعها تبدو كاذبة.

تلك الليلة، نمنا على أصوات إطلاق النيران، بعيدة أو قاب قوسين وأدنى منّا. نمت ووالدتي على الأرض على الجانبين متقابلين من غرفتها. عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي، كان لدى فافال المزيد من الأخبار ليقولها، هذه المرة كانت روزي تستمع معنا. رصدت مجموعة من الشبان اليافعين ريغولوس وهو يحاول التسلسل لمنزله في جنح الليلة يأخذ بعض ممتلكاته، أحاطوا به من جميع الجهات، وقبل أن يتمكنوا منه، أطلق على نفسه النار باتجاه رأسه.

بقيت على الأرض، ملتوياً على نفسي، وكان الأمل يتملّكني أملٌ أن يكون رومين قد ابتعد بعيدا جدا ولم يعد في وسعه سماعُ هذا الخبر.

وكما كنت مستلقياً هناك، تذكرت شيئاً قاله لي رومين قبل ثلاثة أيام، في الوقت الذي كانت تدور فيه الشائعات عن أن الرئيس وزوجته سوف يفران من البلاد. ولكن الرئيس ظهر على شاشات التلفاز نافياً الإشاعات قائلاً إنه: "ثابت كذيل قرد".

لم أعرف الكثير عن القرود في ذلك الوقت، سوى مثل نقوله كثيراً أنك إذا علمت القرد كيف يرمي الحجر، فسوف يرمي أول حجرة على رأسك. لذلك طلبت من رومين أن يخبرني عن ذيل القرود.

قال إن القرود بذيول قصيرة تعيش قريباً من الأرض، والقرود بذيول

طويلة تفضل أن تعيش قريباً من السماء فوق الأشجار. وبعض قرود الأشجار لديها ذيول أطول من أجسامها ليستطيعوا التأرجح من شجرة لشجرة. ضحكنا سوية، محاولين تخيل أي ذيل قرد تصور الرئيس نفسه.

قال رومين:" كان قرداً قصير الذيل، ولكن ذيله الآن طال ولذلك يبحث عن شجرة أخرى."

كان يبدو من المستحيل أن يتخلى رجل ورث عرش الرئاسة الأبدي في سن التاسعة عشر عن عرشه بعد خمسة عشر عاماً للأبد. كم يبدو مستحيلاً أن يختفي رومين من حياتي ولا أسمع أخباره بعد الآن.

***

الآن، أمي ميتة. في أحد الأيام توقف قلبها بسبب قيل إنه سكتة قلبية، ولكن ما أؤمن به يتمثّلُ في أنّ قلبها كان يموت قطعة فقطعة بصمت بسبب حبها لكريستوف الذي لم يبادلها المشاعر يوماً. لا يوجد عندي دليلٌ قاطع لهذا، لأن أمي كانت على الدّوام محافظة وكتومة ولم تبح لي بأيٍّ من أسرارها.

بعد وفاة أمي بفترة وجيزة، غادرت هايتي بعمر العشرين، وأعطيت بيت أمي لروزي وفافال. لا أعرف ماذا حدث لرومين منذ يوم الفندق، انتقلت عمته فيستا من الحي بعد وفاة ريغولوس مباشرة. ولم تعد والدته أبداً من الرحلة التجارية. لا أعرف حتى إن كان حياً أم ميتاً.

8

نائحة الجنائز

الأسبوع الأول

رِزيا، صاحبة مطعم آمبينس كريول، المطعم الهايتي الوحيد في شمال غرب منهاتن، تقرأ خطاباً طويلاً من دليل الصف:

"بعد أربع كعكات وسبع دمعات، فجّر آبائنا هذه البهارات...."

غريب جداً، ولكن رِزيا تتحدث الإنجليزية دون لثغة، كل الكلمات خرجت من فمها مثل هتاف عصافير محذرة في يوم عاصف.

كانت زِريا تحمل معها دائماً منديلاً من الشاش الأبيض في جيبها الأمامي، وكان المنديل، كلما انعطف يميناً أو شمالاً مع الحركات المفاجأة، يرسل رائحة جوز الهند، يبدو المنديل طائرة ورقية تستخدمها لإرسال الرسائل الخفية للأماكن البعيدة.

وبالرغم من رائحة جوز الهند، كان الهواء بداخل الصف مكتوماً وكريهاً. توقف مكيف الهواء عن الطنين قبل فترة فقط ليستمع لنا نتحدث.

ماريسيل، بجسدها الذي يشبه قلم الرصاص بالرغم من البذلة الفرنسية الثقيلة التي كانت ترتديها، تقف في خط مستقيم، وبصوتها الرخيم الذي بدا

كأنه صادر من شخصين، نطقت اسمها. نطقته بسرعة لدرجة اعتقدنا أنه أقصر من العادة، كما لو أنها حولت اسمها إلى لقب فقط لتظهر أنها من طبقة اجتماعية أعلى.

طُلب منها أن تعيد نطق اسمها، وبعد المرة الثالثة نطقت كل مقطع من اسمها على حدة فاندمجت الأصوات لتكون كلمات جميلة ماري سيل، ماري، ماري السلام. تجعلك ترغب في أن تضيف:" صلي لأجلنا" وأفعل تحت أنفاسي المكتومة.

لا أستطيع التوقف عن تأمل الطريقة التي تلوي بها شعرها السميك كلما فتحت فمها، وأستطيع أن أرى ناصيتها ترتفع وتنخفض مع كل حركة.

تمنيت لو أني أستطيع الغناء لأقدم نفسي. ربما نظر لي الجميع أخيراً. ولو استطعت الغناء لغنيت أغنية " الأخ تيموني"، أغنية كان يغنيها أبي صياد السمك كلما اعتقد أن هناك عاصفة قادمة.

في البداية، سوف أطلب من جميع من في الصف أن يتظاهر بالتجديف معي، ثم أبدأ الغناء:

أخي تيموني

جدف معي

جدف جيداً

ألا ترى أن المشاكل قادمة؟

أخي تيموني

جدف معي

ألا ترى أنّ الرياح عاصفة؟

ويجب أن نعود

لم تكن هذه المرة الأولى التي استنجدت بها بالأخ تيموني. أو على الأقل، ليست أول مرة أحاول فيها. سألت أبي مرة، من هو الأخ تيموني؟ لم يكن يعرف. ربما كان صياداً مات في البحر، فمعظم الأغاني التي يغنيها الناس كانت لأناس ماتوا في البحر.

حينما وقفت لأتكلم، قررت الأستاذة أن تحوّل تعريفي بنفسي إلى شبه تحقيق.

قالت لي بصوت هامس، فاتر:" وماذا تفعلين؟"

رغبت في أن أقول: " لا أفعل شيئاً" على الأقل ليس بعد. تم نفيي من بلادي، لذلك أنا في هذا الصف بعمر الثانية والعشرين.

وحينما انتهينا من تعريف أنفسنا، جاء وقت المعلمة. قالت:" أنا اسمي جوان، يمكنكم مناداتي بجوان. إذا أوليتم الدراسة الاهتمام الكافي ودرستم بجد، فإن الاختبار سوف يكون بسيطاً جداً، وسوف تصبحون من خريجي البكالوريا في وقت قصير."

كانت شابة، ممتلئة الجسم، بصدر منبسط، كانت تجلس على المكتب وساقيها المكشوفان الأبيضان كلون الحليب تتدلى أمامنا. لم يبدو أنها تستوعب حجم الوعد الذي قطعته لنا. أن نحصل على البكالوريا في وقت قصير؟ أنها مثل أولئك المحامين الذين يعدون المهاجرين الجدد بالبطاقات

الخضراء خلال أسابيع.

رِزيا تناديها ب "صاحبة الحلمة المسطحة" عندما تلاحظ حجم نهديها الصغيرين تحت فستانها الصيفي عاري الذراعين. وكانت تنادي ماريسيل ب "الأم العذراء" وتناديني ب " نائحة الجنازة." في الحقيقة لقد كنت أحد القلائل الذين امتهنوا الغناء والنواح في الجنائز قبل أن آتي هنا.

الأسبوع الثاني

عندما كنت فتاة صغيرة في لوغان، كنت ألعب أنا وأمي لعبة الهاتف. كنا نربط حبلاً طويلاً بعلبتين فارغتين من علب الحليب المكثف ونغني لبعضنا من على مسافة بعيدة.

أحياناً كنت أختبئ في منزلنا تحت طاولة خشب عتيقة، وهي جالسة في الخارج، ونتلكم مع بعضنا دون حاجة إلى الصراخ.

وفي أيام الكرنفال، كنا نستخدم نفس الحبل الطويل للعب والرقص، كنا نقفز فوق الحبل ثم ننحني تحته. كنا نظن دائماً، أو كانت أمي تظن دائماً، أننا كنا نغزل الريح ونضفرها في جدائل سميكة ملونة مثل قوس قزح الذي كان فوق رؤوسنا أحيانا.

وكلما تعبت من اللعب، تنظر والدتي إلى السحب فوقها وتقول:" انظري فريدا، بابا يستمع لنا الآن هناك فوق، إنه يأكل جوز الهند مع الله، وهذا ما يصنع لنا سحابة من جوز الهند."

كنت أعتقد أن عقلها ذهب حين تقول أشياء كهذه. بعد فترة، طرزت

سحابات على قطعة قماش بخيط قرمزي اللون.

كان والدي ينظر إلى غروب الشمس، متأمّلا حركة الغيوم حولها باحثا عن الكيفيّة التي سيكون عليه البحر في اليوم التالي. الغروب بالشفق الأحمر العقيق يعني أن البحر سيكون هادئا، ولكن الغروب بالشفق الأحمر القاني يعني أنه لا رحلة في البحر غداً.

الأسبوع الثالث

الأزرق هو اللون الوحيد الذي كنت أراه حين أخرج في رحلة في البحر مع والدي. ولفترة طويلة نسينا أن هناك ألوان أخرى، أوه، لا لحظة، تذكرت الأصفر، اصفرار الشمس وقت الغروب.

عقبت زِريا وهي ترفرف على نفسها بمنديلها الجيبي، خانقتنا برائحة عطر جوز الهند:" أصفر كلون زهور عباد الشمس وزهرة القطّيفة؟"

أضافت ماريسيل:" المخملية زهرة بألف حياة."

كانت تنفخ في سيجارة الجولايس الطويلة والنحيفة، تاركة أثر أحمر الشفاة الأحمر الفاقع على طرفها.

قالت رِزيا:" أصفر مثل حبيبي، رجل بألف كذبة."

عندها أرتنا المعلمة صورة لحقل كامل من عباد الشمس وقالت:" انظروا كيف لا توجد أي بقعة ميتة في هذه الصورة."

ولكن الحياة مليئة بالبقع الميتة.

اعتدت على ارتداء الفساتين السوداء فقط، لكي تناسب عملي في الجنازات حيث كنت أنوح. والآن أرتدي الملابس المستعملة، هذا الفستان يبدو أنه من الستينات، ملون كقوس قزح وعلى رأسي ربطة حمراء لتضيف بعض الحياة على بقعتي الميتة.

الأسبوع الرابع

كانت فكرة رِزيا أن نذهب مع ماريسيل إلى مطعمها بعد الصف.

لم نكن نستوعب تماماً مايحدث في هذه الصفوف، ولكوننا الوحيدين من هاييتي، كنا نظن أننا قد نتمكن من شرح الدروس لبعضنا البعض، مثل القواعد النحوية للزمن الحاضر التام والتي في البداية كنت أعتقد أنها تعني زمناً لا شائبة فيه.

في صالة الطعام، غطت الأغطية البلاستيكية المزخرفة بالزهور الطاولات، ولكن زِريا كشفت عن طاولة لكي نتمكن من الشرب على سطحها الخشبي الجديد. وغطت اللوحات الملونة الجدران من حولنا، صور لصبيان يلعبون بالبلي أو الطائرات الورقية، الرجال يرمون بشباكهم في المحيط، والنساء تمشين حافيات إلى السوق وفوق رؤوسهم سلاسل كبيرة. كان هناك مروحة مغبرة وقديمة فوق رؤوسنا، قالت زِريا أنها لا تفتحها إلا حين يحرق الطباخ الطعام وتحتاج الغرفة إلى التهوية.

شغّلنا المروحة وجلسنا إلى الطاولة الصغيرة الخشبية، كانت ركبنا تتلامس. فقط ماريسيل سحبت كرسيها أبعد قليلاً، واضعة بعض المسافة بيننا وبينها.

كنت أول من بدأها في أحد الليالي، كنا نشرب الرَّم وكان أصفر اللون كالبول من مخزن زِريا، ولكن ماريسيل لم تشرب سوى النبيذ الأحمر، قناني صغيرة من البينو نوار، جلبتها معها.

قلت:" كنت ألعب لعبة الهاتف مع أمّي .... ونسيت كل الألوان سوى الأزرق عندما كنت أذهب للبحر في رحلة صيدٍ مع أبي.... وطُلب مني أن أغني في القصر الرئاسي. ...."

كنت أظن أن الكشف عن بعض التفاصيل من حياتي قد يدفعهم إلى الكشفِ عن بعض تفاصيلهم أيضاً ونقوم بدفن أحزاننا وخساراتنا سوية، وحين نخرج سنمشي بخفّة بعد أن نفرغ القليل من الحمل الذي سنحملهُ.

الأسبوع الخامس

قبل اعتقال والدي، كان رئيس الجمهورية يعبر بسيارته السوداء اللامعة مدينتي الصغيرة في عشية رأس السنة، وكان يرمي من نافذة السيارة أكواماً و أكواماً من النقود.

غلفت أشعة الشمس نفسها حول هذه النقود الجديدة، مما يجعها تتوهج كالزجاج. عندما سمعنا بزيارة الرئيس للمدينة، نظفنا منزلنا بأكمله، مسحنا الغبار عن الطاولة الخشبية العتيقة، وقرر والدي البقاء في البيت و عدم الذهاب للبحر فيما لو اختار الرئيس أن يخرج من سيارته و يزور بيتنا ليقدم لنا عطايا إضافية، كيساً من الرز أو رطلا من الفاصوليا الناشفة، ربما غالوناً من زيت الذرة، أو حتى وعداً مستقبلياً في إدخالي كلية الطب أو أحد المدارس الزراعية في داميان. أي شيء يشتري به ولائنا للأبد، حتى حين تمضي

السنوات، ثلاثين أو أربعين عاما، بعد أن يموت بفترة طويلة، سأذكره بالخير و أقول:" كانت الحياة صعبة، ولكنه الرئيس الوحيد الذي أعطانا كيساً من الأرزّ، وبعض الفاصوليا، و غالونا من الزيت للطهي، كانت أول وآخر مرة يعطيني فيها رجلٌ من السلطة شيئا ما."

كما لو أن كيس الرز هذا، أو رطل الفاصوليا ذاك، أو حتى ذلك الغالون المليء بزيت الطهي، كانت ميداليات ذهب وفضة وبرونز توزع في ألعاب الفقر الأولمبية.

الأسبوع السادس

شجرتان تبعدان عن بعضهما بعشرة أقدام.

كتبت الأستاذة هذه الجملة على السبورة، ثم التفت ناحية وجوهنا المحتارة. اعتدنا على الحرارة الخانقة بداخل الصف، كلنا ما عاداها.

في كل مرة تأتي إلى الصف تأتي متخففة بقطعة ملابس أقل، وماتزال تعرق كثيراً جداً لدرجة أنها كانت تغطي يديها بغبار الطباشير كي لا تترك أثر يديها على السبورة.

شجرتان تبعدان عن بعضهما بعشر أقدام، الشجرة الأطول، طولها خمسون قدماً، وظلها طوله عشرون قدما. ظل الشجرة الأقصر خمس عشرة قدما. والشمس مشرقة من خلف الشجرتين بنفس الزاوية، كم طول الشجرة القصيرة؟

يبدو ذلك أحد الألغاز العصية، التي من الممكن أن تأخذ حياة كاملة

لحلها. تفكيرنا مشغول بالكثير من الأمور لنكتشف حلّا لهذا النوع من الأسرار.

قالت رِزيا وهي تسند مقدمة رأسها على طاولة المطعم:" لسنا آلهة!"

بدأت قيعان كؤوسنا تترك آثاراً مستديرة على الخشب المكشوف، دوائر متداخلة ومتلامسة.

ثم أكملت: "من نحن لنعرف الطول الذي يجب أن تكون عليه الشجرة؟"

الأسبوع السابع

طبخنا الليلة وجبة عشاء كاملة. تولت ماريسيل قلي البلانتين وانتهت بحرق على مفصل أصبعها الأوسط. وطبخت رِزيا لحم الماعز، بينما طهوتُ أنا الأرز مع البازلاء.

تحدثنا عن كل الأسباب التي جلبتنا إلى هنا.

ماريسيل رحلت لأن زوجها الرسام كان قد رسم لوحة غير جميلة للرئيس، والتي كان قد تم عرضها في أحد المعارض. أحد ما أطلق عليه الرصاص بعد أن غادر المعرض.

بالنسبة لي، فقد رحلت لأن أمي طلبت مني ذلك، لأني رفضت أن أغني في القصر الرئاسي، ولكني أيضاً رحلت لأن أبي اختفى قبل فترة. كان لديه كشك يبيع فيه السمك في السوق، وفي أحد الأيام جاء أحد الماكوتوس ليستولي على الكشك بينما زميله استولى على والدي وأخذه بعيداً. وعندما

عاد والدي، لم يبقَ في فمه سناً واحداً. ليلة واحدة فقط هي كل ما احتاجوه ليحولوا والدي إلى رجل أشيب قبيح بلا أسنان. في اليوم التالي أخذ قاربه إلى البحر، وبفم مليء بالدم، اختفى للأبد.

أتذكر تمام اللحظة التي عرفت بها باختفاء أبي. كنت نائمة على السرير عندما شعرت بالشرشف القطني الخفيف يرتفع عن جسدي. حين دخلت أمي، لم تحضر معها أي ضوء، ولكني استطعت رؤيتها بوضوح، جزء من ضوء القمر كان ينعكس من الدموع التي سقطت على وجهها.

همست:" بابا عبر المياه إلى الجانب الآخر."

وفي ذهني بزغت صورة أبي ضائعاً في البحر، مجدّفاً أبعد وأبعد حتى أصبح مثل ورقة شجر تطفو على قمة الأمواج البعيدة. ومنذ ذلك اليوم بدأت الغناء، لعله يسمعني وأنا أغني أغنياته من على قمة الموجة التي تحمله.

أما رِزيا، فهذه قصتها: عندما كانت صبية، لم يستطع والديها رعايتها، فأرسلوها للعيش مع عمتها التي كانت تدير ملهى ليلي. سكنوا في شقة من ثلاث غرف خلف الماخور، وهناك قضت رِزيا أغلب وقتها.

في أحد الليالي بينما كانت نائمة، دخل رجل يرتدي زياً رسمياً، حاولت أن تختفي في السرير، ولكن لم ينفع، فأغمى عليها.

قالت رِزيا وهي تبعدُ بخار القدور عن وجهها:" أستطيع دائماً أن أجعل نفسي في حالة إغماء حين أخاف. وحين استيقظت في صباح اليوم التالي، لم أجد ملابسي الداخلية، لم أتكلم مع عمتي بالموضوع، ولكن على فراش موتها طلبت مني المغفرة، قالت أن الرجل هددها بالسجن إن هي لم تمكنه مني في تلك الليلة."

الأسبوع الثامن

تقلب ماريسيل صفحات الجرائد باحثةً في طياتها عن الأخبار التي تخصنا. قرأت تقريراً عن جماعة من المنفيين المسلحين، ميليشيا تكونت في نيويورك، كانوا قد خططوا للغزو. ومقال آخر عن مراسل إذاعة في بورت-أو-برنس قد اقتيد لثكنة عسكرية لاستجوابه. حين تقرأ ماريسيل هذا الأخبار علينا، فهي تقرأها بصوت عميق، موزون وثابت كتلك الأصوات الإذاعية. وحين تمر على اسم شخص تعرفه، كانت تضع الجريدة جانباً، تغمض عينيها ثم تمسح أحمر الشفاه على الجزء الخلفي من يدها.

تقول:" ذهبت للمدرسة مع أخيه." أو " كان والدي ووالده أصدقاء."

الأسبوع التاسع

فشلنا جميعاً في الاختبار التجريبي، ماعدا رِزيا التي حصلت على سبعين بالمائة، وهي درجة كافية للنجاح.

قلت شاكية: " هذه النتيجة غير عادلة، فقد درسنا بقدر ما درست."

قالت ماريسيل وهي تلف يديها المشذبتين حول عنق زجاجة النبيذ:"اسمعوا لنواح مغنية الجنائز الطفلة."

" لديك الكثير من الوقت لإعادة هذا الاختبار وكل الوقت لتشكيل حياتك مرّة أخرى."

كنا نشرب كثيراً، ونجلس إلى وقت متأخر في المطعم. أنا وماريسيل بدأنا نتأقلم مع فكرة أننا لن نحصل على البكالوريا من هذا الصف. فتحت ماريسيل قنينة النبيذ الثانية في تلك الليلة، بينما التزمت أنا ورِزيا بالرَّم. كان يعجبنا الطعم الناري المر وكيف يجعل تفكيرنا ضبابيا على الفور. كنت على يقين بأني أفسد صوتي الغنائي الجميل بكثرة الشرب، ولكن من يهتم؟

بدأ الأشخاص في اللوحات الصغيرة بالتمايل جيئة وذهاباً. أو ربما كان رأسي هو الذي يتراقص؟ تحركت الصور خارج الإطارات واندمجوا مع ظلالنا على الجدران.

قالت رِزيا بصوت غلبه النعاس: " لنتحدث بشيء مبهج."

كان صوتها مبهماً، ناعساً وكانت أكثر ثمالة، فقد شربت الكثير من الكحول احتفالاً بتخطيها الاختبار الذي لم ننجح فيه أيضاً.

سألت ماريسيل:" كيف يمكن لشخص أن يصبح مغني جنازة على كل حال؟"

رمت يدها اليمين خلف كتفها الأيسر، وتناثر رماد سيجارتها على فستاني البرتقالي الذي حصلت عليه من جيش الخلاص.

أول مرة غنيت فيها أمام الناس كانت في مناسبة عزاء والدي، غنيت "الأخ تيموني"، كان لحن الأغنية يرتفع ثم يهبط مجدداً كأمواج المحيط. غنيتها بالرغم من دموعي، وبعد أن انتهيت قال لي الناس إنّ تنهداتي تذكرهم بعباب البحر. ومن تلك اللحظة أصبحت مغنية ونائحة في الجنازات، وفي كل مرة يكون هناك جنازة في لوغان، يطلب مني أن أغني أغاني أبي، وأحياناً

ارتجل من مخيلتي، واقفة هناك بجانب النعش، وأمام عائلة المتوفى، في بيت الجنائز أو في الكنيسة.

في بعض الأحيان، كنت أغني الأغاني المعتادة مثل "أمنا ماريا" أو "العطايا المذهلة" إذا طلبتها العائلة.

قالت رِزيا بفم يملئه الرز:" قولي لنا شيئاً مبهجاً، يكفي الكلام عن الجنازات. يكفي!"

قالت ماريسيل وهي تضع كأسها على الطاولة بقوة حتى انكسر قاعه:" جاكي كينيدي جاءت إلى هايتي السنة الماضية."

رفعت رِزيا قطعة الزجاج المكسور، وبإهمال رمته خلفها، وقالت:" من هذه؟"

شرحت ماريسيل:" زوجة الرئيس كيندي. الرئيس الذي سميت كل محلات الملابس المستعملة في بورت-أو-برينس عليه."

قالت رِزيا وهي تشرب مباشرة من قارورة الرَّم:" آها، كان وسيماً جداً"

قالت ماريسيل:" وهي جميلة جداً أيضاً. كانت تتحدث الفرنسية. فقدت زوجها وطفلين، وبالرغم من ذلك ظلت جميلة، لقد جعلت من الحزن جمالاً."

وهي تضع الكأس المكسور جانباً، وصفت ماريسيل لقاءها مع جاكي كينيدي. زوج جاكي الأول، رئيس الولايات المتحدة الذي سميت جميع محلات الملابس المستعملة في بورت-أو-برينس عليه، كان قد مات منذ أكثر من عشر سنوات حين زارت جاكي هايتي لأول مرة. أتت مع زوجها الجديد، الملياردير اليوناني الذي كانت بينه وبين رئيسنا بعض الأعمال.

أول مرة رأت ماريسيل جاكي كينيدي كانت على رصيف الميناء في بورت-أو-برينس، حين خرجت من يخت هائل، كانت ترتدي بنطال برمودا قصير زهري اللون، وقميصًا أبيض، وقبعة من القش، ونظارة شمسية واسعة التي كانت تحمي وجهها ذو الحدود الحادة جيداً.

كانت الرياح قوية، حاولت أن تدفع بقبعتها وجسدها النحيل بعيداً، ولكن ماريسيل تذكرت أن جاكي كانت ثابتة، قاومت الريح ومشت في طريقها.

قالت ماريسيل وهي تمسح الآثار الرطبة من الكؤوس من على الطاولة:" ذهب زوجي للميناء ليرسم صورة لها. سألها ماذا تريد في اللوحة، فأجابت بصوتها الهامس الطفولي أنها تريد الميناء ورائها و سفن الشحن و قوارب الصيد و بعض الوجوه الهايتية على الرصيف. فرسمها زوجي واقفة على الرصيف، و وضعني في الخلفية. إذا حدث و رأيتم اللوحة التي تضم وجه جاكي كينيدي في ميناء بورت-أو برينس، فسوف ترونني."

الأسبوع الحادي عشر

كانت أمي تقول إننا نموت ثلاث مرات: عندما تغادرُ أنفاسنا أجسادنا لمعانقة الهواء مرّة أخرى، والمرّة الثانية عندما نعودُ إلى باطن الأرض والمرّة الثالثة عندما ننسى تماما وإلى الأبد.

أحياناً اسمع صوت نباح كلب، ويذكرني بأصوات الكلاب التي تعوي من حولي، ذلك اليوم حين كنت على الشاطئ انظر إلى قارب أبي يعود من دونه. كان أبي يحب أن يشاهد قتال الديوك، يعجبه حين يجتمع الرجال في

حلقة، متناوبين الشرب من قارورة الرَّم، وهم يتفرجون. كان يقول لي، هذا القتال يثبت أن الحيوانات أذكى بكثير من الرجال، فهم يجمعوننا لمشاهدتهم، هذه الطيور الصغيرة، تتفاخر. ذهب أبي أيضاً ليشاهد قتال الكلاب، ولكن لم تعجبه بذات القدر. لأنه لا يطيق أن يرى كلباً يموت، ولا يستطيع أن يخرج صوت كلب يعوي موتاً من رأسه. كان يقول: على الأقل الديوك صغيرة، وعلى كل حال سوف نأكلها.

الأسبوع الثاني عشر

عندما كنت صبية، كان عندي دفتر صغير صنعته من بعض الأوراق التي طويتها من المنتصف ثم طرزت جانبها بخيط من خيوط أمي ليسهل فتحه كدفتر. بداخله رسمتُ بعض الأشكال، وكانت الأشكال قريبة جداً من بعضها حتى بدت كأنها تقاتل بعضها البعض على الصفحة.

كانت والدتي هي أول من قال إنهم يتقاتلون، كما أنها قالت إنها أشكال مخيفة. فصنعت لي تعويذة من الخرق على شكل دمية، لأنها ظنت أني أرى هذه الأشكال في المنام وأنها تخيفني.

ليلة بعد ليلة، أتعلق في هذه الدمية أكثر، عينها عوجاء، رسمتها أمي على الخرقة البيضاء بالفحم. بعد أن اختفى أبي، لويت عنق الدمية كل ليلة أكثر من الليلة السابقة. وخلال اليوم، رسمت المزيد من الوجوه الصغيرة المزدحمة على صفحات دفتري، لتؤنسني في حال اختفت أمي أيضاً.

على الرغم من أنني غنيت في الكثير من الجنازات، لست متدينة. ولكني أوافق رِزيا في فكرتها أنه يجب علينا أن نشعل بعض الشموع تبركاً لعلنا نجتاز الاختبار الحقيقي.

تقول ماريسيل، أنه يجب أن نصلي للقديس جود، الراعي للقضايا الخاسرة، فصلينا للاختبار ولبلدنا.

تقول ماريسيل:" بلدنا ليس قضية خاسرة بعد، لأنه أنتجنا!"

رفعنا كؤوسنا وشربنا لذلك النخب، مفضلين النبيذ على الرَّم.

شعرت بأنني أشرب الدّم، ودم المسيح الذي نشربه لا رمزيّة فيه في طقوس الأسرار المقدسة في الكنيسة، ولكن دماً حقيقياً، دماً مخمليا، دمنا نحن.

أعطيتهم بعض الخيوط كتذكارات للاحتفاظ بها وتباشير لحسن الحظ. أخذت هذه الخيوط من تطريز والدتي للغيوم الحمراء.

تسألني رِزيا:" لماذا لم تغني في القصر الرئاسي حين طلب منك؟"

أقول مصححة:" أُمرت، لم يطلب مني ولكني أُمرت أن أغني هناك."

تصر رِزيا على سماع الجواب:" لماذا لم تذهبي؟ لربما كنت لا تزالين في البلاد."

كنت قد اتخذت قراراً بأن أتوقف عن الغناء تماما على أن أغني للناس اللذين تسببوا في قتل والدي.

تقول رِزيا:" أليس من المدهش أن جاكي كندي تستطيع أن تذهب لهايتي في أي وقت ترغب ولا نستطيع نحن ذلك؟"

الأسبوع الرابع عشر

سوف يمضي بعض الوقت قبل أن نعرف إن كنا فعلاً نجحنا بالاختبار. ولكن ماتزالُ رِزيا ترتجف من آثار قلق ما بعد الاختبار. نجلس سوية حول الطاولة ومع كل شخص منا بوعاء فيه بقايا حساء اليوم.

ترتدي ماريسيل مجموعة من أساور الذهب، وعندما تحرك يدها كان صوتها يشبه صوت خرخشات صغيرة جداً نضعها في قبور الأطفال لتسليتهم.

تقول:" أخيراً فرّغت حقائبي، احتفالاً!"

حصلت على عمل في معرض فني ليس بعيداً عن مطعم رِزيا، وسوف تبيع فيه لوحات فنية بعضها من رسم زوجها.

احتفلنا معها بعقد يدينا ولوي أجسادنا بين المساحات الضيقة بين طاولات الصف الكثيرة المتناثرة محاولين الخروج.

تسأل ماريسيل بنفس متقطع حين توقفنا في المطعم:" وأنت يا فريدا، ماذا سوف تفعلين؟"

أقول وأنا أغرق في الكرسي:" سوف أعود وأنظم إلى أحد الميليشيات وأقاتل."

كل من ماريسيل ورِزيا تضحكان بصوت عالٍ جداً، وهذا كل ما يمكنني

سماعه لوقت طويل، لا صوت المروحة في الأعلى ولا صوت تدفّق الرم والنبيذ من القوارير في الكؤوس.

قلت معترضة:" لاحظوا أننا مانزال نعيش في السبعينات، انظروا لفيديل كاسترو يقاتل ومعه نساء."

استمروا بالضحك والشرب.

تقول ماريسيل منحنية للأمام ومتشبثة ببطنها لكيلا تنفلق ضحكاً:" الموضوع ليس هذا، ولكن إن انضممت للمليشيا سوف نقرأ عنك في الأخبار قريباً."

تتوقف رِزيا عن الضحك لتمسح مقدمة رأسها الرطبة بمنديل جيبها المعطر الذي يبدو الآن كما لو أنّه شارةُ استسلام:" إن قاتلتِ مع المليشيا، فسوف تموتين، ثم من سيغني في جنازتك؟"

هدأت الغرفة، تلقي ماريسيل رأسها للخلف وتفرغ كأس النبيذ كاملاً في فمها، ثم ترمي به إلى الجانب الآخر من الغرفة. نشاهده وهو يطير ثم يهبط على الجدار متناثراً إلى قطع صغيرة.

تقول رِزيا وهي تحضر مكنسة والجاروف لتجمع الشظايا:" هيه! لا تحطمي مطعمي. إذا لم يكن لدي هذا المكان فسوف أجن مثلكما."

تقول ماريسيل محاولة أن تقف:" لسنا مجنونات."

ثم تكمل موجهة الكلام لي:" لماذا لا تفعليها يا فريدا؟ لماذا لا تغني لجنازتك الآن؟"

يأتي صوت رِزيا من حيث كانت تكنس الزجاج المتناثر:"سوف نساعدك"

تنحنحت لأبين لهم أني مستعدة لهذا، مستعدة لأن أغني أغنية عزائي،

ولما لا؟

وهكذا سوف ابدأ أدائي الأخير، كمغنية جنائز، أو كأي مغنية. سأغني الأخ تيموني:

أخ تيموني

أخ تيموني

ها نحن نجدف من دونك

ولكن اعلم أننا سوف نلتقي

تغني معي ماريسيل ورِزيا، نغني حتى بحت أصواتنا، وأحيانا نغير الأخ تيموني إلى الأخت.

وحين استنفذنا كل ما يمكن من أغنية الأخ تيموني، انتقلنا إلى أغنيات ثانية أكثر بهجة. ولبقية الليلة، رفعنا الكؤوس، المكسورة و غير المكسورة على حد السواء، شربنا في نخب الأيام الرهيبة التي تركتنا و الأيام الغير أكيدة القادمة على مهلٍ.

9

كاسر الندى

الأحداث وقعت في عام ١٩٦٧ تقريباً

أولاً

جاء ليقتل القسيس فوصل إلى الكنيسة باكراً جداً. في الحقيقة وصل أبكر بساعتين، قبل أن يبدأ القسيس تحضير مراسم قداس العشاء.

الشمس لم تغرب بعد حين وصل بسيارته السوداء التي أوقفها قريباً مما ظن أنه الرصيف حيث صفّ عديدُ الباعة طاولاتهم بائعين كل شيء، من الفول السوداني المشوي إلى علب السجائر.

أراد أفضل زاوية لرؤية مدخل الكنيسة، في حال سنحت الفرصة لأن يكمل ما جاء لأجله من داخل سيارته دون أن يضطر للترجل منها ويغمس رجليه في الوحل. تحرك من مكانه ليعدل من جلسته بعد أن انتبه للباعة وهم يلمحون جسده البدين وهو محشور بين المقود وظهر الكرسي، كرشه الضخمة نتأت من تحت حزام الأمان لتلمس عصا مبدل السرعة.

فيما بعد، أحد النسوة، التي لم ترغب التصريح باسمها، سوف تقول لممثلي حقوق الإنسان:" كان شكله كالخنزير الجاهز للسلخ. راقبته لوقت طويل، كان رابضاً هناك. حاولت أن أخيفه بعيني العجوز. أنا أنتمي إلى هذه

الكنيسة ولا أرغب بمشاهدة القس وهو يموت."

انتشرت شائعات لبعض الوقت أن القسيس لديه أعداء في مناصب رفيعة. كنيسته التعميدية كانت أكبر الكنائس في بيل-اير، أحد أقدم وأفقر التجمعات السكنية في عاصمة هايتي. قد وصف هذا الحي السكني صحافي أمريكي في مقال لمجلة لايف: "حي عشوائي فقير منتشر على المرتفعات ولكن يُحسد على واجهته البحرية المطلة على ميناء بورت-أو-برانس."

كان اسم الكنيسة لا إقليز بابتيستديزإنج (الكنيسة المعمدانيّة للملائكة)، كما كتب بالطبشور على لوح خشبي عند الباب الأمامي. فوق اللوح كان هناك ما يشبه المسيح عيسى نحيل بوجه مجوف عاجيّ اللون، ويدان برغم الهزال تمتد للأمام ملقية التحيّة على العابرين. في صبح كل يوم أحد، وعند السابعة تماماً، كان صوت القسيس يأتي عبر الراديو في برنامجه الأسبوعي على إذاعة لوميير (التنوير)، كان البرنامج فرصة لمن لا يستطيع القدوم للكنيسة لحضور القداس أن يستمع له في صباحه ويبارك يومه. يبدو أن الإشاعات حول خلافاته مع القوى التي تمسك زمام السلطة قد بدأت بعد أن شرع في إذاعة قداس يوم الأحد.

هؤلاء الذين أخذوا القصر الرئاسي بالقوة يراقبون كل شيء، كانوا منزعجين في البداية، ثم غضبوا جداً لأن القسيس عارض هذا النص: "كلما زادت معاناتك على الأرض، كلما عظمت حسناتك في الجنان."

في حديثه على الإذاعة، نبه القسيس على قصص الرجال والنساء الشجعان المذكورون في الكتاب المقدس، اللذين قاتلوا الطغاة وضحّوا بأرواحهم. بدأ بإضافة "النساء" في حديثه عن التضحيات بعد أن ماتت زوجته قبل ستة أشهر. وفي القداس الصباحي في الكنيسة، كان يفصل أكثر عن حياة هؤلاء الأبطال. قال ممجداً عن قصة الملكة استر التي تدخلت لتوقف مذبحة كانت سوف تحدث لقومها، ودانييل الذي روّض أُسوداً أُطلقت عليه لتأكله،

وداود الذي هزم جالوت وجيوشه، يونس الذي عاش بعد أن لفظه وحش البحر.

قال القسيس بصوت مرتفع: "وماذا سوف نفعل بوحشنا؟"

رغب في تشجيع المتابعين بأن يصدحوا بالأسماء من بيوتهم بجوار الراديو، أو من على صفوف الكراسي المهترئة في حرم كنيسته. كان يعجبه أن يتخيل أن كل من في دولته يصرخ مجاوباً حين يسأل: "وماذا سوف نفعل بوحشنا؟" ولكن يبدو أن الجميع كان يهمس بالصلوات الوطنية المصرح بها والتي كتبها الرئيس بنفسه.

(أبانا الذي في القصر الوطني

ليتقدس اسمك

لتكن مشيئتك في العاصمة كما في المناطق الأخرى

أعطنا هايتي الجديدة

واغفر لنا الأفكار المناهضة للوطن

ولا تغفر لأولئك المعادين للوطن

الذين يبصقون على الدولة

ويتآمرون عليها

واجعلهم يخضعون تحت وزن حقدهم

ولا تنقذهم من الشر)

أعضاء الكنيسة كانوا أكثر المستمعين ولاء لبرنامجه الإذاعي، وحين يُزارون ليلاً ويُجرون للتحقيق في زنزانات التعذيب في الثكنات العسكرية، كانوا جميعا يجاوبون بنفس الشجاعة حين يُسألون عن ماذا يقصد القسيس

حين يأمرهم بقوله:" ماذا سوف نفعل بوحشنا؟"

قالوا:" نحن مسيحيون يا سيدي، وحين نتكلم عن الوحش الذي بداخلنا فنحن نتكلم عن الشيطان، عن إبليس."

المسؤولون عن حقوق الإنسان، عندما يجتمعون في الحانات بعد يوم طويل من إحصاء الجثث سراً وكتابة التقارير المطولة،كتبوا ملاحظين ولاء الناس للقسيس:" هؤلاء الناس لا يحتاجون أن يبحثوا مطولاً عن شياطينهم، شياطينهم ليست خيالية، شياطينهم حقيقية."

ولكن طبعاً ليس كل أعضاء الكنيسة يوافقون القسيس رؤاه السياسية. حتى أن بعضهم قد يقول لك:" لو استمر القسيس على هذا المنوال، سوف أترك المذهب. يجب عليه أن يصون حياته وحياتنا معه."

اختفى ضوء النهار فجأة بينما كان ينتظر، تغير الباعة من حوله، ذهب تجار الصباح ليحل محلهم باعة الليل بائعو المقالي من اللحوم والبلانتين والمزيد من السجائر.

لمح مجموعة من زملائه مرتدين بدلات موحدة من قماش الجينز يتجولون بين الناس. لم يتعرف عليهم مباشرة، ولكن بعد التمحيص عَرِف بعضهم. الذين ميزهم أنهم كانوا يحبون ارتداء تلك البدلات الموحدة، ولكن كان يعتقد أنهم لا يجب أن يلبسوها في مهمات كهذه. ليس لأنه كان يعتقد بأن هناك أي شيء يجب أن يخفى في هذه المهمة، كان شبه متأكد أن أهل الحيّ قد حذّروا القسيس قبل أن يصل أصحاب البدلات، وكان متأكداً أيضاً أن وجوده أو وجودهم لم يكن ليثنيه عن الحضور وبدء مراسم صلاة الليل. لأنه لو بقي في المنزل فسوف يعني أن الشيطان قد انتصر، شيطان مخاوفه على الأقل.

كان بيت القسيس قريب. أربعة منهم وقفوا أمام منزله المتواضع ذو

الغرفتين، ليخطفوه فيما لو حاول الهرب.

كان من الصعب عليه جدا أن يتخيل القسيس خائفا، ربما هو أيضاً صدق خطاباته الدينية. لن يكون القسيس كالآخرين، قال لنفسه، من يخطّطون للهروب في السّاعات الأخيرة قبل القبض عليهم ويهرعون إلى أصدقائهم وأقاربهم ليخفوا بعض الأشياء الثمينة ومن ضمنها أطفالهم.

هناك عدة احتمالات لمثل هذه المهمات. بعض زملاء العمل كانوا يبعدون قدر المستطاع عن أحيائهم التي ترعرعوا فيها حين يتمون مهمة كهذه. والبعض الآخر كان يستلذ العودة للمناطق حيث بيوتهم ويمنعون الأدوية عن المحتاجين، وهناك من يعجبه أن يخفي أثر مدرس الذي قال له مرة أن دماغه كالحجارة التي لا تفقه ولن يتعلم أبداً. وهناك آخرين ممن آثر أن ينقم من الفتيات اللاتي كنّ يعتقدن ويتصرفن كأنهن مهمات، الفتيات اللاتي لم يبتسمن حين كانوا يتحرشون بهنّ في الشوارع. وهناك البعض ممن يرغب وبشدة ضرب الآباء اللذين رفضوهم بسبب عدم توافق النسب. لكنه كان مختلفاً، كان يحب أن يتم المهمات على أناس لم يعرفهم أبدا من قبل، ناس مجهولون عنه ليحيك في مخيلته كل القصص الشريرة المتوهمة عنهم. ليجردهم من إنسانيتهم. مثلا من السهولة بمكان أن يقنع نفسه بما أن مذهبه كاثوليكي فليس من واجبه أن يحب القسيس الذي ينتمي للمذهب البروتستانتي. فهم لا يرقصون، ويجبرون نسائهم على ارتداء فساتين وأغطية رأس بيضاء، ويغنون دائماً أغاني عن الشيطان مستوحاة من الإنجيل. كل هذه الأسباب تجعله يقدم على فعلته مرتاح الضمير، لا يهم أين ومتى يقوم بها.

أقنع نفسه وبسهولة أن ذبح القسيس عمل نبيل. لأنه وسوف يطهر جزء كبير من هذا الحي وسوف يحرر الكثير من الرجال والنساء والأطفال من خرافات القسيس وكتابه المقدس الذي شتتهم وجعلهم كالعبيد يتبعون أسيادهم. الصلوات الكتابات المقدسة التي محاها من ذاكرته بعد حفل

تعميده.

بعد أن يختفي القسيس، اعتقد، ربما يرجع الناس في العاصمة بيل-إير إلى رشدهم ويدينون بدين القدماء. يقطعون بحر الظلمات إلى النور كما قطعها أسلافهم ملتوين، نائحين، ومخنوقين بعبراتهم وهم يقطعون بسفن العبيد القادمة من إفريقيا من المضيق الأوسط. في الليلة السابقة، حاول رئيس الجمهورية أن يرسل رسالة أليمة لأتباعه ولأتباع القسيس. الرئيس الذي أصبح يدعى السيد الأعظم ومجدد أراضي الآباد صرّح في الراديو أنه سوف يتم إعدام تسعة عشر ضابطاً من حراس القصر الجمهوري، والذي يُعتقد أنهم حاولوا خيانة الرئيس. قرأ أسمائهم بنفسه بطريقة عسكرية وبعد كل أسم كان يقول" غائب" ثم في الأخير وبكل هدوء الجبابرة قال:" كلهم غائبون، كلهم تم إعدامهم بالرصاص."

وهكذا أصبح أي قرار من القصر الرئاسي عبارة عن اختبار ولاء، وتحذير أن القادم سوف يكون أسوأ.

بالنسبة للمبشر، فقد تم تحذيره. قبل ستة أشهر، ابنة أحد القساوسة المناوئين للمبشر دسّت السم في حلوى قدمتها لزوجة القسيس في اجتماع نسائي. بعد وفاة زوجته، أخذ القسيس بقايا جثمانها لقريتها لتدفن في ضريح العائلة.

فكر كثيراً في أن يبتعد عن هذه الحياة وأن ينتقل إلى فلوريدا أو نيويورك، أن يتعرف على المجتمعات الهايتية في المهجر، ويبقي عيناً منتبهة على الأحداث في موطنه، وأن يتغلغل في حلقات المثقفين المنفيين، حيث سمع أنهم يجتمعون في المتاحف الفنية أو المقاهي يشربون القهوة بالرم ويناقشون شؤون الثورة. قد بدأ فعلاً في جمع النقود ليتخذ هذه الخطوة، حاملاً بعضه في جيبه، وبعضه في الخزانة الحديدية في مكتبه، والبعض الآخر بين ثنايا مرتبة سريره في البيت. ولكنه لم يستطع أن يقدم على هذه الخطوة حتى يتبع الأوامر، يثبت ولاءه

ويقتل القسيس. توقف عن التفكير بهذه الأمور، وركز على مهمته. أخرج رأسه من نافذة السيارة الشبه مفتوحة وطلب من أحد الصبيان الجالسين تحت المصباح يتذاكرون أن يذهب ويشتري له علبة سجائر.

بسبب نقص حاد في الزنك حين كان طفلاً فقد حاسة التذوق. ليس بإمكانه أن يفرق بين الحامض والحلو، أن تلدغه حرارة الفلفل، أن يستلذ بأغلى وأفضل نوع من أنواع الرَّم. وهكذا عوضا عن التذوق بالشم والسمع، فيأكل الطعام بسبب أن رائحته أو صوته يعجبه، ويدخن السجائر القوية.

لم يبلغ بعد سن الثلاثين، ولكن صوته كان أجش، وكأن حنجرته دائماً تزأر ولا يستطيع تهدئتها. ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عن سجائره أو عن الضباب المؤقت الذي تخلقه حوله، كما أنه لا يستطيع أن يتخلى عن عادة الشرب. كان يشرب على الأقل كأساً من المسكر حين كان يلعب الورق أثناء حراسته في السجن.

أحياناً خلال "مقابلاته" مع السجناء، كان يقنعهم بأنه لن يقتلهم إذا فازوا عليه بلعبة ورق. بريقُ الأمل في أعينهم، حين يسمعون مثل هذا الكلام، يعجبه، فلم يرَ مثله في عيون البشر، أو قد يشبه البريق في عيون شخص جلس فوقه ويديه ملتفتان حول عنقه محاولاً شنقه، والضحية المسكين ينازع الروح ويرفس برجليه فاتحاً عينيه وباحثاً عن نفس.

في الليلة السابقة، حلم أنه هُرِّب من هايتي وهو يرتدي ملابس راهبة قبل أن تسقط الحكومة. ظن أنها إشارة من الآلهة بأن عليه أن يتراجع عن قرار الرحيل. ولكنه لا يريد أن يشيخ في هذا المكان. وعلى كل حال، حين صدر القرار بشأن القسيس، عليه أن ينفذه.

عاد الصبي بعلبة سجائر، حاملاً كتاب التاريخ تحت إبطه، وحزمة نقود بحجم يده وقدمها للرجل. أعطاه الرجل بعض النقود تكريماً لماض لا

يستطيع إنكاره.

كان والداه فلاحين أصحاب أرض. أرسلاه إلى مدرسة دينية يديرها كهنة من بلجيكيا. يذهب لنفس المدرسة أطفال من طبقة اجتماعية أعلى، يملك أهاليهم مصانع للسكر والفانيلا في الجنوب في مدينة لوغان. إلا أن عائلته خسرت أراضيها بعد أن ربح السيد الأول الحكومة عالم ١٩٥٧، حيث قرر بعض الضباط أن هذه الأرض هي الأصلح لبناء بعض البيوت الصيفية للعسكريين. وتبعاً، أصيب والده بالجنون، واختفت أمه فجأة. الإشاعة تقول إنها ركبت سفينة متجهة إلى جاميكا مع جارها وحبيبها الأول، والذي اختارت أن لا تتزوجه سابقاً بسبب قلة حيلته وفقره، فلم يكن لديه سوى قطعة ملابس واحدة، و حذاء مستخدم، لا مال لا بيت لا ماشية ولا أرض. تحسن حاله بشكل عكسي مع تدهور حال والده، وبما أنه اختفى في نفس الوقت الذي اختفت فيه أمه، فكان من البديهي أن يُظن في أنهما اختفيا سوية.

بعد رحيل أمه، وفي سن التاسعة عشر، التحق بمليشيا (المتطوعون في سبيل الأمان الوطني). كل ذلك بدأ حين جاء مجموعة من المتطوعين لقريته ليضعوا الناس في باصات ويأخذوهم للعاصمة للمشاركة في المظاهرات لصالح الرئيس. احتاجوا لأجساد تستمع لخطاب الرئيس في اليوم الوطني. أراد الناس أن يعودوا لبيوتهم ليحضروا قبعاتهم ولكن المتطوعون نبهوهم أنه لا وقت لذلك، وفي المقابل أعطوهم قبعات من الورق طبع عليها اسم الرئيس.

في الطريق للعاصمة في صباح ذلك اليوم، دخن أول سجائره، وشرب أول ثلاث كؤوس بيرة منزلية الصنع. أحد الرجال في الباص كان يحاول أن يخدر مشاعره قبل أن يصلوا إلى العاصمة ويشاركوا في المظاهرات، أعطاه السجائر والبيرة. شعر لحظتها أنّهُ قد تحول من شرنقة إلى رجل بالغ.

حين وصلوا إلى العاصمة، تبع القطيع إلى باحة القصر الرئاسي المزينة

بدقة عالية. انبهر بالمنظر اللامتناهي للبشر الواقفين أمام أكبر قصر وأبيض قصرٍ رآه في حياته. يجمل القصر شرفات واسعة وقف بداخلها رجالاً ببنادق أوتوماتيكية وزيّا موحداً مرتدين أحزمة ذهبية. يشبهون في ملابسهم قادة التحرير الذي رأى صورهم في كتاب التاريخ حين كان طفلاً. وأخيراً ظهر الرئيس، بدا كحارس مقبرة بملابسه وقبعته السوداء، على حزامه حمل مسدساً وعلى كتفه علّق بندقية.

حين رأى وجه الرئيس لأول مرة، وجه رمادي شاحب تزينه نظارة، قرر أنه لن يعود لبيته بعد اليوم. وكأنه أخيرا صدق عتاب والده المستمر بأنه لا يصلح لحياة الفلاحة، بأنه لن يعمل في الحقل يوماً ما ولن يتقن حمل أكياس الطحين على كتفيه أو المنجل في يديه.

مضت ساعات وهو يستمع إلى خطاب الرئيس، بدا كأنه يقرأ كتاباً باللغة الفرنسية من مئة صفحة، بطلاقة وفصاحة لافتة للانتباه. ومن كاملِ الخطاب استطاع تذكر بعض السطور. إذا حاول أي شخص أن يعرقل مصالح الرئيس فسوف يضربه بيد من حديد، وأن هايتي سوف تغرق بالدماء كما لم يُشاهد من قبل. سوف يحرقها بالنار من الشمال للجنوب ومن الشرق للغرب. لن يعرف الناس للشمس شروقاً أو غروباً، كل ما هناك لسان طويل من اللهب يلعق السماء.

وتذكر أيضاً المرأة السمراء الواقفة بثوب أزرق بحري بجوار الرئيس، زوجة الرئيس، كانت جديدة وصغيرة كسمكة ملونة تسبح عكس التيار، وتنظر دون اهتمام باتجاه الجموع. فكر في نفسه إن كانت تحمل مسدساً تحت فستانها، وفي الحقيقة لن يفاجأ ذلك. ظلّ نظره متسمراً على الرئيس وزوجته طول الوقت.

بعد الساعة الثالثة، الرابعة، والخامسة من وقت الاستماع إلى الخطاب، وجد نفسه يحلم. كما لو كان يرى قطيعاً من النسوة بأجنحة محلقين حول

قبة القصر، كما لو كنّ عرافات تتراوح ألوانهن من لون القرفة، للعسلي، البرونزي وأخيراً أسود فاحم. كان يسمع حسيسهن الغاضب بالرغم من صوت الملك. كان يحكي هذه القصة لكل امرأة يجلبها لفراشه، وكن يردون عليه:"من الصعب تصديقك، فأنت لست بالرجل الحالم."

***

وقف الصبي مطولاً متجمّدا في مكانهِ، بالرغم من أنه أعطاه المال. فسحب خمسة دولارات وأعطاها للصبي. وفجأة شعر بالوحدة، فقرر أن يتجاذب أطراف الحديث مع الصبي. جزء منه تمنى لو يحتوي ذلك الطفل ويشتري له مستقبل، تمنى أن يشتري لكل الصبيان مثله مستقبلا. ليس مثل مستقبله، وليس مثل طريقه الذي رسمته له الحياة، بل نصيب آخر وقدر أفضل.

سأل:" ماذا تدرس؟"

أجاب الصبي:" التاريخ."

فطلب من الصبي أن يقرأ عليه درس اليوم. تأتأ الصبي وبدا محرجاً، كأنه تذكر العقاب وضرب اليدين الذي ينتظره من المدرس إن هو أخطأ. طلب من الصبي أن يريه يديه، فهو الدليل السريع ليعرف إن كان طالباً نجيباً أم لا.

كانتا يدا الصبي مشققة ومعّلمة، ولكنه التمس العذر له. ربما كان صبياً نبيهاً ولكن لم تتوفر له البيئة المناسبة للدراسة، مثلاً لا يوجد ضوء مناسب في بيتهم، أو أن كتابه تنقصه بعض الصفحات، أو لم يذكره أحد بأكل فطوره.

أعطى الصبي مزيداً من النقود ليذهب، وتابع الصبي وهو يشتري لنفسه حلوى وعلبتين من السجائر بنكهة النعناع. استنشق وزفر الصبي بقوة وكثرة حتى تكونت حلقات من الدخان حوله. ثم اشترى لنفسه لحماً مشوياً

وبطاطا مقلية وتشاركها مع الصبية الآخرين الجالسين تحت ضوء مصباح الشارع يسنون أقلام الرصاص بمطواة حادة وهم يتذاكرون درس اليوم.

نفس الصبي سوف يقول لصحفي من مجلة لاموند: " رأيناه واقفاً هناك كل العصر. اشتريت له بعض السجائر. وأعطاني مالاً زائداً فاشتريت به عشاء، حلوى وبعض السجائر وتشاركتها مع أصدقائي." وطبعاً لن يتذكر الصبي علبتي السجائر بنكهة النعناع التي اشتراها لنفسه.

خنقه الدخان، فحاول أن ينسى الصبي ويركز على ما يشتهيه الآن، يشتهي قارورة من الرَّم. اشتاق للعبة الدومينو، للعبة الورق، كلمات عذبة، وساق مكشوف ليمرر يده عليه، رقصات حميمية، وفتاة تلمع حزامه ببطنها. ولكن عليه أن ينتظر حتى يموت القسيس. تذكر كيف كان جائعاً بعد خطاب الرئيس الطويل، وحين تقدم نحوهُ رجلٌ من المليشيا مرتدياً الجينز وسأله إن كان يرغب بالانضمام لجيش الرئيس- المتطوعون. أعطوه بطاقة هوية، بذلة جينز زرقاء، وقبعة من نفس القماش، مسدس، وميزة أن يشارك في جميع احتفالات اليوم الوطني.

لم يعجبه الزي الموحد، شعر أنه يبدو كراقص في فرقة شعبية. وعليه طلب إن كان يستطيع أن يرتدي الملابس الاعتيادية. ذهب ليتبضع في محل ملابس غال، وصاحب المحل كان متشوقاً لمساعدته في اختيار بعض القطع لأنه عرض عليه بطاقة عضويته مع "المتطوعون". على البطاقة كتب " تطوعت لأحمي الأمن القومي، سواء كان من حضي أو لسوء حظي، في كل الحالتين حظك بيدي."

وبهذه الكلمات، أطعمته المطاعم ببذخ، كان يأكل أكثر مما يجب عليه خلال اليوم وكان يعجبه أن يرى جسده يكبر كما كان شعره ينمو بالقوة والتسلط. صاحب المنزل، وكان طبيباً، أعطاه غرفتين من الطابق السفلي بمنزله مجاناً. وامرأة متزوجة من الطبقة البرجوازية نامت معه على مرتبة

سريره التي ملأها بالنقود الورقية. و العذراوات من كل طبقات المجتمع أتين وذهبن. وجميع الناس من لوغان الذين احتقروه و عائلته في الماضي، الآن يأتون إليه صاغرين يطلبون منه العفو و المساعدة.

كانوا يرتدون أفضل مالديهم، حين يقدمون إليه ليقابلوه. كان مكتبه صغيراً ومظلماً بداخل أحد الزنزانات في الثكنة العسكرية في العاصمة. وكانوا يدعونه بالرقيب، أو العقيد، أو حتى اللواء، بعضهم قد يبالغ و يناديه بالرئيس المصغر.

كانوا يقولون:" مضت عشرة أيام منذ أن رأيت فيها ابني." " اختفت ابنتي رغماً عن إرادتها."

وفقط عندما يرغب، كان يستطيع أن يحل مشاكلهم ببساطة كتابة مذكرة صغيرة لرئيس الشرطة في لوغان. الجميع يفترض أن رتبته أعلى من الباقين في لوغان لأنه كان في العاصمة ولأنه يستطيع الكتابة والقراءة. كان يذهب إلى لوغان أكثر من مرة خلال الشهر، ليزور والدهُ الذي تجلى جنونه مؤخراً في ذهابه إلى السوق عارياً وهو يقبض على الصخر في كلتا يديه.

في أحد المرات عندما كان في لوغان، ذهب وتحدث مع كل من المسؤولين اللذين استولوا على أرض والده في السابق، قال لهم جميعاً:" نحن جميعاً نفس الشيء الآن، ولكن لن أنسى ما فعلتموه في والدي. أنا من يأتي لأجله الجميع في العاصمة. الفم المغلق لا يقبض على الذباب ولن أقول لكم أكثر من ذلك، ولكن عليكم الانتباه مني."

وعلى الرغم من بساطة كلامه، فقد استعاد والده المنزل حيث ولد هو ووالده، كما أن طلبات ردّ الجميل والمحاباة توقفت من قريته لمدة من الوقت.

الطريقة التي كان يجري بها التحقيقات في زنزانته الخاصة في الثكنة العسكرية أكسبته سمعة طيبة بين زملائه. كان أكثر من جّرب العديد من

وسائل التعذيب الجسدية والنفسية على السجناء.

أكبر خطر جابهه في وظيفتهِ هذه، ما كتبه الروائي جاك أليكسيس وهو أحد أكثر ضحاياه شهرة. كتب عنه مرة بالفرنسية:"أن تصبح شرطياً محترماً، أي أن تعدم الكثير من الأرواح."

بالنسبة له، هذه الوظيفة تشبه مثل أي وظيفة أخرى، كان يجد متعة في استجواب السجناء وتعليمهم ألعاباً جديدة، وحين يخطئون أو يخسرون كان يعلق مشابك الغسيل على آذانهم، وحين يسمح لهم بالفوز يزيل هذه المشابك. كان يرغبُ في اقناعهم أن انتصاراتهم الوهمية هي ما قد ينقذ حياتهم.

كان يحب أن يجلدهم بسوط من جلد البقر المظفر، وأن يقفز على ظهورهم المتصدعة كما يقفز سِكير على الترامبولين، أو أن يخبط صخراً خلف آذانهم حتى لا يتمكنوا من سماع الأوامر بالرغم من الصراخ، وكان يحب أن يربط كتلا من الخرسانة ووازنها كالميزان على خصيان الذكور وأثداء النساء.

وبعد ثلاثة عقود من هذه الأحداث، تم إجراء مقابلة مع إحدى سجيناته لعمل فلم وثائقي، كانت المقابلة في مطعمها الهايتي الصغير في ميامي، وكانت تتلعثم لمدة ساعة قبل أن تتمكّن من الكلام، كانت محدودبة الظهر في الثمانين من عمرها. لم تستطع تذكر اسمه أو شكله، ولكنها كانت تقسم أنها لا تستطيع إخراجه من رأسها.

كانت تقول:" أعلم ما يقولون، الأسماك لا ترى الماء، ولكن هذا الرجل كان يرى الماء بوضوح، كان يناديني باسمي، كان ينحني قريباً من أذني ويهمس: "فاليا، لا تجبريننني على أن أطمس آثار أنوثتك، فقط أخبريني أين يختبئ زوجك ولن أقطع أعضائك الخاصة" طبعاً لم يقلها هكذا، أرفض أن أنطقها بنفس الطريقة التي نطقها بها. كان يربكك ثم يحاول تهدئتك بالكلمات، ثم يربكك مجدداً. كان يعتقد أنه كان الله."

ثانياً

قال القسيس وهو يدفع قطعة الخبز برشفة من الشاي بالزنجبيل:" أثق بربي جيداً، وأضع حياتي بين يديه."

كان القسيس يرتدي أفضل حلله، رداء أبيض وصدرية، رداء الآحاد، ويزينه خط أحمر وربطة عنق.

كان رجلاً أنيقاً وبهي الطلعة، بالرغم من طول يديه ورجليه المبالغ به. لم يكن جسمه متناسباً. جلس إلى طاولته التي صممها وصنعها بنفسه من خشب الكابلي الأحمر الثقيل. صنعها لكي يأكل وجباته عليها مع بقية أعضاء الكنيسة والمهتمون بشؤونها. وجلس حوله ثلاثة من مساعديه اللذين كانوا يستميتون في إقناعه بأن يلغي قداس المساء ويذهب لبيته.

قال الرجل الأكبر بينهم:" دع الأتباع يأتون إليك الليلة." كان بناءً ويعرف القسيس منذ الصبا، منذ أن كان عمره أربعة عشر.

قال أحد المساعدين الأصغر سناً، لينل نويل، وأخ المساعد الثالث، جويل نويل: " تستطيع أن تقيم قداساً كاملاً هنا في البيت."

منذ أن بدأ ببرنامجه الإذاعي وماتت زوجته، مرت عليه حالات لأناس يتعاطفون معه، كان يسمي تعاطفهم "خوف بغطاء المحبة،" وتَعَلَّم أن أفضل طريقة لتخفيف خوفهم أن يبقى هادئاً وأن يتلو عليهم آيات من الإنجيل. وبهذا ينقذهم من خوفهم ومن أوهامهم المتمثلة في كونهم سينقذون حياته.

ولكن الشيء الذي لم يفهموه، أو لم يرغبوا في الإقرار به، أنه قد قرر أن يضحي بحياته لوطنه، وأنه قد نذر روحه للجنات، فلا هدف من الهرب أو الاختباء. إذا أراد المسؤولون أن يمسكوا به، لن يوقفهم أحد. يستطيعون دخول منزله، وسحبه خارجاً من داخل حمامه أو من على طاولة طعامه أو من فوق سريره. لن يسمموه كما فعلوا مع زوجته.

في الليلة السابقة، تسعة عشر حارساً من حراس القصر قد أعدموا. أعلن الخبر الرئيس بنفسه على الإذاعة. إذا كانت هذه العقوبة للأولياء السابقين للحكومة، فما ترى سوف يحل به؟

في الحقيقة كانت تراوده أحلام موته بكثرة لدرجة أنه لم يعد خائفاً من موته. رأى مرة كأنه يُدفع من على قمة أكبر الجبال في بورت-أو-برينس، ومرة كأنه يُجبر على شرب جالوناً كاملاً من مسحوق المبيض، وأن يُشعل فيه النار كما حدث لجان دارك، وأخرى أن يُقطع رأسه كما حدث ليوحنا المعمدان. وفي كل أحلامه كانت تنفخ فيه الروح مرة أخرى ويبعث من جديد.

حينما رُمي من فوق قمة جبل لوبيتال، نبتت له أجنحه فارتفع للسحاب، وحين شرب جالوناً من المسحوق المبيض دخل وخرج من جسمه كالماء الزلال، وحين رُبط إلى الأخشاب المتأججة باللهب، جلس على النار ولم يؤذهِ لهبها، بل حرقت الأربطة عن ساعديه وكاحليه، وأعمى الدخان أعدائه حتى مشى من بطنها حُرّاً. وحين نُحر كيوحنا المعمدان، انحنى والتقط رأسه ثم أعاده بين كتفيه كما لو كان لعبة.

في تلك الليلة على طاولة الطعام، وكما كل مرة يمر فيها بموقف صعب مثل تلك اللحظة حين كان صبياً وفقد أخوه الصغير لغضب البحر أو اللحظة التي فقد فيها زوجته قبل أشهر. ذكّر نفسه باعتقاده الخاص عن الحياة وأنها لا تحتاج لمن يدافع عنها في الخفاء ولا من يستسلم لها بهدوء، بل أن تجابهها بشجاعة، في وضوح العراء، وإن كان لابد لك من أن تفقد حياتك، فلتفقدها على طريقتك.

وقف من على كرسيه، وحمل معه الإنجيل، نسخة صغيرة ومغلفة بجلد عتيق، ضغطها على راحته كما لو كان يود تبديد أي شكوك حول خروجه للقداس الليلة.

قال لمساعديه:" حان موعد القداس، لا ترافقوني الليلة في الطريق للكنيسة، اسلكوا طريقاً آخر، سوف أمشي وحدي."

المساعد الأكبر مد يده بسرعة واندفاع باتجاه القسيس الذي بدوره اعتقد أن المساعد على وشك أن يصفعه أو أن يشير للآخرين أن يمسكوه ويثبتوه أرضاً، ولكن كل ما فعله المساعد أن أزاح خيطاً أسود من على كتف القسيس. وبالرغم من براءتها، بدت محاولة إزاحة الخيط كخدعة للوقت لعل القسيس يبقى وقتاً أطول ولو للحظة معهم في المنزل. مسّ القسيس يد مساعديه بالإنجيل لكي يبتعدوا عن طريقه ويفسحوا له المجال.

لم يبقَ ما يمكن فعله فتنحى المساعدون عن طريقه وتركوه يعبر الباب للخارج. أقفل باب بيته ومشى باتجاه الجسر الخشبي العتيق فوق جدول الماء الذي كان يفصل بين بيته والشارع الرئيسي الغير المعبد، وتبعه المساعدون بتردّد.

كان الشارع مُغِماً وأغبر وصاخبا كالعادة. وكان هناك مصباحاً واحداً فقط مضاء، ولكن الشارع بدا أكثر إنارةٍ من العادةِ. لوّح مُحيّياً جاره الشيخ على الجهة المقابلة، رجل يبيع الخبز المغموس بزبدة الفول السوداني على أمام منزله. وصدحت أغنية وطنية تمجد الحكومة من راديو في المنزل المجاور لبيت الشيخ. كان منزلاً وبنفس الوقت محل حلاقة، جلس بداخله شابان يلعبان الورق وطفل محلوق الرأس. لوح لهم القسيس أيضا بتحية وردوها عليه.

هل من الممكن أن يكونوا جلاديه؟ أحد اللذين قيل له بأنهم سوف ينتظرونه في الشارع مثلا؟

قطعت حبل أفكاره امرأة تبيع الذرة المشوية أمام محل الحلاقة، نادته:" كيف حالك اليوم، يا قس؟"

وكما هي عادته حين تحييه كل صباح أشار لها بلطف أنه بخير، ولكن في هذه المرة أخذ خطوة للأمام قليلاً وانحنى باتجاهها.

لمح القسيس شاب وفتاة كان قد زوجهما. ولمح أنهما كانا يحملان الدفاتر قريباً من صدرهما حين عبرا من جواره. كانت الزوجة تدرس السكرتارية والزوج المحاسبة. عجل والديهما بزواجهما حين علما أن الفتاة قد حملت من الشاب، ولكنها عانت الإجهاض بعد الزواج مباشرة.

حين توقفا لتحيته، قالت الفتاة:" كيف حالك يا قس؟"

سألها:" كيف حال الدراسة؟"

أجاب الزوج الشاب:" صعبة جداً، يا قس. لدينا الكثير لتتعلمه ونفعله للنجح. ولذلك لا ترانا في موعد الصلاة اليومي."

مايزال المساعدون الثلاثة يتتبعون أثر القسيس، لم يحاولوا أن يَتَخَفَوا عن أنظاره، تحميهم دماثة ولطف الناس المحيين، هم أيضاً كانوا جزءاً من هذه التحايا، مشيرين بأيديهم ورؤوسهم للناس.

وقفت أرملة كان القسيس قد وظفهما في السابق لتهتم بنظافة ملابسه، وسألته متى يجب عليها أن تأتي لتأخذ المتسخ منها. وقالت له:" يا قس، أنت لست لطيفاً بنفسك. تظل على نفس الملابس لفترات طويلة كي لا تزيد على مشقة العمل."

ضحك القسيس وأكمل طريقه باتجاه بيت ماسح الأحذية. حين لا يمسح الأحذية، كان يجلس عند عتبة الباب على كرسيه المنخفض يراقب الشارع. كان أحد الكثيرين من الذين تآمروا بسكب القاذورات من فوق سطوحهم على رؤوس بعض المتطوعين اللذين حضروا للشارع ليعتقلوا بعض طلبة الفلسفة اللذين مثلوا مسرحية في انتظار غودو لصمويل بيكيت في أحد مسارح الجامعة.

تذكر القسيس نصاً من المسرحية:" كلنا نولد مجانين، ويبقى بعضنا كذلك إلى لأبد."

بعد ليلة عرض المسرحية، أطلق المتطوعون النار على كل المنازل القريبة من المسرح، ولكن الحمد لله لم يُصب أحد بأذى.

مد ماسح الأحذية يده تحت كرسيه وسحب صندوق أدواته، وقال:" يا قس، يبدو حذاءك مغبراً الليلة."

فرد عليه:" ليون، لا حاجة لحذاء يلمع في وسط الليل."

جادله قائلاً:" ولكن يا قس شخص بمكانتك يجب أن يكون حذاءه لامعاً دائماً."

قال القسيس:" لن يبقى لامعا لوقت طويل."

قال ليون محاولاً إقناعه:" سوف انتهي قبل أن تكمل آمين."

قال القسيس:" ربما غداً يا ليون."

كلمة "غداً" رسمت ابتسامة على وجه ماسح الأحذية، وكذلك المساعدين، فهناك سبب آخر للأمل.

كانت الكنيسة قريبة جداً من الشارع ذو المصباح الوحيد. تجمع بعض الصبيان تحت ضوء المصباح. بعضهم كان يردد ما أخذه في المدرسة صباحاً لأصحابه والبعض الآخر كان يدرس لوحده بصمت. لمح القسيس أحد الصبية الذي لم يتغيب يوماً عن دروس الأحاد مع أمه، وبالرغم من توبيخ أمه المستمر كان يتوسل النقود من الباعة والعابرين. كان عمره عشر سنوات ويحمل عقب سيجارة بيده، وحين انتبه لنظرات القسيس رماها أرضاً واختفى في زقاق مظلم.

وربما في وقت آخر ومناسبة أخرى، سيحكي لمساعديه عن هذا المنظر

قائلاً:" هل تنظرون ماذا يفعل الشيطان بشبابنا، بتلاميذنا الصغار؟"

ولكن كلما اقترب من باب الكنيسة المزينة بصورة كبيرة للمسيح ماداً يديه انصرف تفكيره عن القطيع وانشغل أكثر بالذئاب التي لم يلحظ وجودها. فقد توقع أنها ستتجول أمام الباب بحثاً عنه.

في الداخل أضاء القسيس الغرفة، ورفّ النور من المصباح. تقدم القسيس باتجاه المذبح، وذهب المساعدون ليحضروا المصابيح الاحتياطية في حال طرأ انقطاع في الكهرباء، وسلال الصدقات التي تمرر على الحضور ليضعوا فيها هباتهم، وبعض الماء في كأس ليرتوي منه القسيس حين يلقي خطبته.

مشت الليلة بسلاسة، وتم القداس. لم يحضر أغلب الناس اللذين كانوا يحضرون بالعادة. ولكن بعض الوجوه الجديدة كانت بين الحضور، بعضهم مجرد متجولين أرادوا الراحة على الكراسي بداخل الكنيسة والبعض الآخر أشخاص مثل ليون، ليسوا متدينين ولكن من المهتمين. كان قد سمع أن رجال الميليشيا في الأنحاء، وتوقع حضورهم للدفاع عن القسيس فيما حصل كمين.

وخلال القداس الذي امتد أكثر من العادة، ترنم القسيس بأقصى صوته، وترنح للأمام والخلف، ضارباً بيده على المنبر، وطارقاً بقدمه على الأرض، كان يقفز للأعلى محفزاً أتباعه على مشاركته. كانت الخطبة أقرب لأن تكون شهادة، تذكر فيها تفاصيل موت زوجته.

قال إنه سيتذكر لون عينيها للأبد، في عصر ذلك اليوم لمعتا بطريقة لم تعجبه. ربما بسبب الحساسية التي أصابتها سابقاً والتي كانت تحجب الدمع في القناة الدمعية وعن النزول على وجهها، أو ربما بسبب أن حدقتا عينيها كانتا كبيرتان جداً. أو ربما بسبب مقاومتها انغلاق جفونها الجبري. كما لو كانت أعظم الحروب في حياتها. على كل حال، كان واضحا من طريقة مشيها

في طريقها للمنزل، وكيف استلقت على السرير دون أن تقول شيئاً واضحا أنها سوف تموت تلك الليلة.

كانت أطرافها تتحرك ببطء وبلا توازن. كما لو أنها فقدت السيطرة عليها. كانت قد فقدت قدرتها على الكلام والاستجابة، لم تسمع اسمها حين ناداها وترجاها أن تخبره بماذا حدث لها. تحركت شفتاها ولم يخرج صوتٌ. وبالرغم من كل ذلك، قضى وقته معها على مهل محاولاً فهم ما تريد منه أن يفعل.

صرخ منادياً على جاره، طلب منه أن يأتي بصديقه ومساعده الأكبر، الذي يملك سيارة. أخذوها للمستشفى العام أملاً في أن الأطباء هناك سيقدّموا يد المساعدة لإنقاذها.

وفي خضمِّ هذه المعمعة نسي أن يصلي. ربما لو تذكر الصلاة، لطلب من الإله مساعدتها. فكانت ماتزال على قيد الحياة بالرغم من برودة جسدها. وحين وصل الجار مع المساعد، كانت زوجته قد توقفت عن التنفس. أطلقت آخر تنهداتها تماماً قبل أن يدخلوا الغرفة. سوف يتذكر تلك التنهيدة للأبد، كانت محتقنة وأشبه بالغرغرة، شعر أنها تقول له:" لماذا لا تسمعني؟ لماذا لا تفهمني؟ لماذا لا تستطيع أن تنقذني؟ "

قذفَ هذا الاجتماع النسوي الطارئ الذي دعت إليه ابنة مبشر كنيسة أخرى له علاقة بموت زوجته حيرة في قلبهِ خاصة أن ابنة القسيس هذا لم تظهر أي اهتمام سابق للدين أو الفعاليات الدينية أو معرفة الإله.

تقرير الطب الشرعي أظهر أن زوجته قد ماتت بفعل سم سريع وقاتل، لدرجة أن المحقق في المستشفى العام لم يستطع أو لم يرغب بالتعريف له.

شعر القسيس ببعض العدالة حين اختفت الفتاة التي ظنَّ بأن لها يد في تسميم زوجته، وحينَ بلغه خبر اعتقالها بسبب جنوحها في جريمة أخرى، ولكن شعور الذنب لم يفارقه، ظلّ الشعور بأنه المسؤول عن موت زوجته

يسكنهُ، وأنها ماتت عقاباً لها على الأشياء التي يقولها في الراديو ومن على منبره في الكنيسة. الآن وعلى مسمع من الجميع وقف يرجو المغفرة من زوجته، كان يرجو أن تسمع في الجنان وأن تعفو عنه.

حين سمع الخطاب بعض المؤمنين الحاضرين القداس في الكنيسة، المساعد نويل كان بينهم، تململوا في كراسيهم بحزن وربكة. كانوا خآئفين على حياة القسيس وعلى حياتهم أيضاً. لا شك أنهم كانوا سعداء أن القسيس أخيراً عبّر عن حزنه على فراق زوجته لأول مرة، وأنه ملّح إلى أنه سوف يغير طريقته في انتقاد الحكومة الحالية، ولكن طريقته في التغيير بدت خطيرة في وقت غير مناسب، في ليلة كبرت فيها كلماته وكبر معها أعداءه.

جمع صغير من النسوة وقفن وخرجن مسرعات. تبعهنَّ مجموعة من زوار الشارع الذين لن يفهموا ماذا يحدث تماما ولكن تملّكهم شعور بأنه سوف يقودهم إلى مشاكل كثيرة، أن يصمهم هذا الكلام بخيانة الوطن فقط بالاستماع له.

مسح ليون، ملمع الأحذية، الدمع من على خديه. تذكر ابنه المتطوع، كان يرتدي الزي الموحد ويجر الناس إلى حتفهم الأخير. قد يكون ابنه أحد الرجال المتربصين به، لأنه كما علموهم، المتطوع هو الذي يبدأ بأهل بيته، ولا يتردد في قتل أمه أو أبوه إن خالفوا النظام.

كره ليون ما فعله ابنه، ولكن كان عليه أن يتركه يرجع للبيت لأجل أمه، ولأنه أدرك أخيراً أن السبب في أنه مايزالُ حراً وعلى قيد الحياة وجود ابنه.

أكمل القسيس حديثه عن زوجته، شفتاها بلون الزهر تعكس بريقاً جذباً على بشرتها السمراء، كيف أن الانحناءة بين فمها وأنفها موزونة كصدفة نادرة من البحر، وكيف أن رأس أنفها يغطس في تلك الصدفة كل مرج تبتسم، وكيف أنه كان يفعل كل ما باستطاعته ليجعلها تبتسم كل يوم. بُحّ

صوته وبان عليه الوجع، لقد أحب زوجته منذ أول نظرة، حين زار كنيسة والدها في سن الرابعة عشر، كان وحيداً بلا أهل في تلك المدينة فأصرت على أبويها أن يستضيفاه.

غير مذهبه الكاثوليكي ليتمكن من البقاء معها، و أصبح قسيساً لكي يوافق والديها على زواجهما. الآن هي ترقد سعيدة بجوار والديها في الجنان، وهذا أمر يسعده.

كان يسترجع ذكرياته مع زوجته حين دخلت أخته الكنيسة وغادرتها فوراً. كانت آن، أخته الغير شقيقة، عائدة من درس في التجميل. كان القسيس قد سجلها في ذلك الصباح، بعد ثلاثة أيام من زيارتها له في المدينة. لمحها ولمح النظرة الهادئة على وجهها، فعرف أنها لا تعلم شيئاً عن التهديد وعن القتلة المتربصين به بالخارج وعن احتمالية اعتقاله.

أخته لأبيه ولأم أخرى عاشت كل حياتها في القرية، حتى قبل ثلاثة أيام. وخلال هذه الأيام الثلاثة أعاد على مسامعها تكرار قصة وفاة زوجته كثيراً. لم تطق سماعها مرة أخرى، كانت غاضبة منه لأنه يضيع وقته وجهده في جدالٍ عقيمٍ مع الحكومة، كانت متعبةً من أوهامه كيف أنه يحلم في أن يكون بطلاً لهذه الجموع المتألمة ويحررهم من أوهامهم وهو الذي هجر أهله وأدار ظهره على حياته السابقة، أدار ظهره عن آلامهم وعن أخيه الذي غرق في البحيرة. خرجت لأنها غاضبة ومتعبة ولا تستطيع السماع أكثر، قررت أن تعود للبيت وتنتظره هناك وتخبره برأيها، وأيضاً لأنها كانت جائعة فذهبت لتأكل شيئاً.

دخول وخروج أخته السريع لم يكسر روح القسيس ولم يشتت انتباهه. بل أكمل ذكرياته. وبعد نصف ساعة، وبينما كان القسيس يعدد محاسن زوجته، دخل الكنيسة رجل أسمر بدين بمقدمة رأس مثلثة، وخلفه مجموعة من المتطوعين، مرتدين الزي الموحد من قماش الجينز ونظارات شمسية لامعة تعكس المشاهد كالمرآة. وجه الرجال مسدساتهم وبنادقهم إلى الجموع،

طالبين منهم أن يخفضوا رؤوسهم، وكان الرجل السمين من بينهم يتمايل على الممر باتجاه القسيس حاملاً في يده مسدساً، وحين وصل إليه مسك عنق القسيس بيده الأخرى. أغلق أصابعه الطويلة المنتفخة حول تفاحة آدم للقسيس، ضاغطاً أكثر على حنجرته ليمنعه من الكلام.

كل هذه القوة لم تكن ضرورية حقاً، لأن القسيس الذي أمضى أشهراً في تحضير نفسه لمثل هذه المواقف سعيد جداً أن جسده كان متعاوناً فلا هجمات رئوية غير متوقعة ولا حركات معوية مفاجئة.

انضم بعض المتطوعين إلى الرجل السمين والقسيس على المذبح. اثنان منهم قبضوا على يدي القسيس وثبتوها خلف ظهره. جفل القسيس ألماً لمرة واحده فقط عندما دفعه الرجل السمين ومن خلفه المتطوعون نحو الباب الأمامي.

الشارع بالخارج فجأة فرغ من الناس، كل الباعة والأطفال رحلوا فجأة، وكل الأبواب مقفلة، ولا يوجد أي ضوء في الخارج. تخيل القسيس أن جيرانه يرتجفون من أماكن اختبائهم، ويتساءلون عما إذا كانوا سوف يُزارون هم أيضاً. ولكن هذه الليلة، على ما يبدو، كانت ليلته وحده.

رموه في الجزء الخلفي من الشاحنة، تكوم فوق رأسه مجموعة من رجال المليشيا، رفع رجليه إلى صدره حيث قاموا بدفعه بقوة من جانب إلى آخر وضربه بأعقاب البنادق على مناطق عشوائية من جسده. وجهه الآن مضغوط على صفيح الحديد المتموج على أرضية الشاحنة، أعقاب الأقدام والسجائر انهالت عليه وعلى شعره الذي تفرقع مثل حبيبات صغيرة من الملح الصخري في نار مفتوحة. فجأة شعر بهزات شديدة تسري عبر جسده، يبدو أنها قادمة من أجهزة كهربائية موصولة بقدميه الحافيتين الآن.

شعر بالراحة قليلاً حين بدأت الشاحنة بالحركة في الشوارع الفارغة،

أعطته فرصة لأن يرتاح قليلاً من الاعتداءات. أيادي عديده اكتسحت وجهه، بعضهم بالضرب وبعضهم رفع رأسه، لمح وجوه الرجال الغير مألوفة حوله، العديد منهم بلا نظارات سوداء.

تم لف خرقة سوداء مغبرة حول عينيه، ثم ربطت بقوة خلف رأسه. والآن عندما غُط على عينيه، اشتهى الرؤية.

توقفت الشاحنة فجأة، تبادل الرجال الجالسين بقربه بعض الكلمات مع الرجال الجالسين في الأمام، فهم أن الحديث كان عن أين سوف يأخذونه، ربما أحد الثكنات العسكرية القريبة. قيل له أن هناك ثكنتين، أحدهما فقط يمكن الخروج منها حياً، أما الآخر فكالقبر، لا أحد يتوقع خروجك منه.

اعتقد أنه سمع اسم الثكنة الأولى، و حين أكملت الشاحنة طريقها، أكلمت الضربات انهيالها على جسده لبقية الرحلة. لم يعد يشعر بحركاته، كان جسده يلتوي مع كل ضربة.

توقفت الشاحنة مرة أخرى، و شعر بها ترتفع قليلاً حين خرج منها رجال المليشيا.

سمع صوت امرأة تصرخ:" جان! جان! هل هذا أنت؟"

لو كان اسمهُ جان، لظن أنه مات بالفعل، وأنها زوجته تناديه من الجانب الآخر. وللمرة الأولى حاول أن يخفف القبضة من على معصميه وقدميه ليقترب قليلاً من حيث صوت المرأة.

سمع صوت إطلاق نار. ولكن على من؟ في الهواء؟ عليه؟ على المرأة التي تنادي جان؟

لم يشعر بالانفجار الحار المتوقع جراء الطلقة على جسده. شخص ما جره من ساقيه وسحبه إلى الأمام، مزيلاً من عليه سترته، ثم شعر بنفسه يسقط من فوق الشاحنة وعلى الأرض. سقط على وجهه، ساحقاً جبهته، نقعت عصابة

عينيه بدمائه سريعاً، وفجأة تحول الظلام الأسود إلى حجاب أحمر دافئ.

كان يُسحب من ساقيه إلى فوق الرصيف، ومع كل جذب عنيف للأمام، جزء من جسده يصاب بكدمة، أو ينسلخ. شعر كأن بشرته تتساقط، صوته يتساقط، نظره يتساقط كأوراق الشجر، وهو الذي حاول جاهداً لأن يرتدي ملابس جيده، و أن يكون متحدثاً جيداً، و قارئاً جيداً. ومع كل قطعة لحم تغادر جسده بسبب الحجارة الصغيرة على الأرض أو شظايا الزجاج، كانت هذه الأشياء تغادره أيضاً.

حاول قدر الإمكان أن يمشي ولو بطريقة عرجاء قبل أن يُدفع من فوق درج غير متساوي العتبات، إرتكزت حوافه القاسية بين أضلعه.

على الأرجح، هو في زنزانة ما الآن، لأنه سمع صوت القضبان توصدُ متبوعة بصوت قفل. سمع أصوات أنفاس، بعضها عالٍ و أقرب إلى الشهيق من حوله. رائحة اللحم المتعفن جعلته يعطس. كان هناك بعض الظلال التي تحيط به، تستنشقه كما تستنشق الفئران رائحة الدم. كان رأسه يدور، كذلك الظلال حوله ثم فجأة تلاشى كل شيء.

شعر بخيبة أمل حين استيقظ في منتصف الليل. سائل دافئ اندفع على وجهه وحين فتح فمه ليسد رمق عطشه، أدرك أنه ليس سوى بول. وفكر بعبارة يقولها الرومان قبل الموت في حلبات المصارعة، خطرت في رأسه لتناسب موقفه:" نحييك يا أيها البول، نحن على وشك الموت"

لا توجد عصابة على عينيه، ولكنه جفونه الملتهبة شكلت غطاءً عليهما، غاب في ظلام للمرة الثانية، ولكن هذه المرة أكثر فجائية من السابق.

ثالثاً

انقطعت الكهرباء فجأة من البيت ومن كلِّ أرجاء الشارع.

في الوقت ذاته شعرت آن بنفس الأحاسيس الغريبة التي كانت تأتيها في الطفولة. وبالرغم من السواد الحالك، كانت عينها اليسرى ترّف، أحاطت بها ستارة أخرى من الظلام الحالك، فازدادت غموضاً.

كان وجهها يتزايد دفئا تدريجياً، تحديداً تحت عظمتي الخدين، كما لو كانتا مشتعلتان كشمع تتوق له الآن. صوت رفيع وعالٍ يرن في أذنيها الآن، مثل نايٍ بنوتة موسيقية واحدة، في ذات الوقت الذي تفجرت في أنفها روائح حلوة من زهر البلومريا.

توقعت التشنجات المتتابعة أن تبدأ في أي لحظة، فجلست على الأرض واستلقت على ظهرها، نشرت يديها وذراعيها كنجمة. تخيلت أنها تراقب نفسها من مكان مرتفع فوقها، مثلاً تطفو على السقف وتراقب نفسها مستلقية على الأرض الإسمنتية الباردة كفراشة قد تم تهشيم أجنحتها فاضطررت إلى أن تجلس أرضاً وتموت ببطء، كان نفسها قصيرا وسريعا ومتقطعا. يبس جسدها وشعرت بازدحام داخل فمها، لسانها تورم وانتفخ ناشراً فوق أسنانها حجمه وطعم يشبه مياه بحر مالحة وقذرة.

مرّت لحظات متفرقة من حياتها السابقة أمامها، حادثة بعد حادثة تمر من أمام ناظريها بسرعة عالية كما تخيلتها عرض دمى ضخمة: غرق شقيقها الأصغر، رحيل أخيها عن قريتهم الساحلية، ربما ليتجنب المياه التي أخذت حياة أخيهم، وفاة والديها من الغضب أو الجوع أو كليهما، وانتقالها إلى المدينة لتنضم لأخيها الأكبر، واستمراره في الحديث عن وفاة زوجته، والذي لا يبدو أنه يختلف كثيراً عن هذا الموقف الذي تعاني منه الآن.

ربما كان يجب عليها ألا تغادر الكنيسة قبل لحظات، ولكنه كان يتحدث مجدداً عن زوجته، حديث قد تعبت من سماعه. وبحسب تصرفات أخيها، لم تستطع إلا أن تلومه على وفاة زوجته، كيف يجرأ أن يندد بأصحاب السلطة والقوة على الإذاعة علناً، أمام الجميع، أليس في ذلك خطر على من نحب؟

كانت تتمنى أن تقول له هذه الأفكار، كانت تتمنى أن تسنح الفرصة لمثل هذا الكلام.

ولكن ها هي الآن تموت مجدداً أو أصابها مسّ من نوع ما، لا تستطيع أن تقرر فعلاً ما الذي يحدث لجسدها الآن. لو أنها ممسوسة، لماذا انتظرت الأرواح حتى بقيت بمفردها لتدخل جسدها، لتطوع روحها لرغباتهم كما كانت تطوع الأحصنة في المزرعة حينما كانت طفلة، ليظهروا من خلالها ما يريدون من وحي وإلهام، لا أحد حولها يسمع ولن تتذكر ما حدث لها إن هي أفاقت من هذه النشوة الشبة مميتة.

أو ربما ما يحدث لها الآن هي إشارة أن أخيها قد فشل واستسلم، ربما جسده أو شيئاً ما بداخله كان يموت، و خافت جداً أنها قد لا تراه مرة أخرى.

رابعاً

قيل له أن يطلق سراح القس، جاءه الأمر من القصر الرئاسي مباشرة. غاب عنه تفصيل مهم جداً أن القس قد تم اعتقاله ولم يقتل، و أن الاعتقال تم بطريقة سيئة.

كان من المفترض أن تكون عملية مدبّرة، قالت له رئيسته في العمل روزاليا، امرأة قصيرة وضخمة.

كانت في الخمسينات من عمرها، ومن النساء القلائل في الثكنة العسكرية ذات رتبة عالية. وعلى نحو ما أصبحا صديقين، بالرغم من أنه لم يراها كثيراً، كانت تقضي أغلب الوقت في القصر حيث تستطيع الحديث مع الرئيس مباشرة، كانت تحاول توظيف المزيد من النساء في صفوف المتطوعين. كانت تشارك الرئيس حبه للفولكلور، والتي قالت إنهما كانا يناقشانه كثيراً. وبما أن

الرئيس قد أسمى فرقته من المليشيا المتطوعين باسم الشخصية الأسطورية تونتوناكوت، غول كبير يختطف الأطفال الصغار المشاغبين في الليل ويضعهم في حقيبته المصنوعة من القش، كانت ترغب في أن تسمي فرقتها النسائية باسم الفتاة لولا الأغنية الشعبية المشهورة، لولا فتاة الأسطورية التي تأكل الأطفال.

حين تكلمت مع الرئيس في هذا الموضوع، وهم يشربون الرَّم ويدخنون السيجار الكوبي، ترنمت بالأغنية كما لو كان بحاجة للتذكير:

أيها العصفور الصغير، إلى أين ستذهب؟

إلى بيت الفتاة لولا سوف أذهب

الفتاة لولا تأكل الطفل الصغير

إذا طرت نحوها، ستأكلك

سوف تأكلك كما تُأكل الطير

بالنسبة للبعض، كان غناء هذه الأغنية أمام الرئيس مهيناً، كانتهاك سافر لمكانته، كانت كمن يعين نفسها الشخصية الأسطورية، لولا الفتاة التي سوف تأكل الصغار.

احتوته تحت جناحها واهتمت به، كانت ترى فيه شيئاً من حماستها، لكنها الآن لم تكن تضحك وتغني كالعادة، بل كانت غاضبة.

قالت:" حسب جميع الروايات، تحول الاعتقال إلى مصارعة ثيران. ذهبتم إلى كنيسة مليئة بالناس، بالشهود، بينما كان من الممكن أن تعتقلوه في الشارع، لماذا أحضرته هنا؟"

كان يود أن يقول بأن الشارع كان مليء بالناس أيضاً، فيما بينهم ذلك

الصبي اللعين، ولم يتمكن من الحصول على هدف واضح فاعتقد أنه سوف يتمم المهمة على أكمل وجه هنا في الثكنة.

قالت روزالي بابتسامة تهكمية واسعة جداً حتى بدت كأنها إعجاب: "كنت تريد أن يعاني. أخذت كامل حريتك في هذه المهمة وعصيت الأوامر."

لقد خذلها وخذل نفسه، والآن أصدر القصر قراراً بإطلاق صراح القس. أرادوا أن يطلقوه في منتصف الليل خائفاً وعاجزاً ومذنباً متسائلاً متى سوف يطلبونه مرة أخرى؟ لم يريدوا أن يظهر بمظهر الشهيد.

قالت له وهي تسير مبتعدة:" إنها مسؤوليتك. لقد رأيت حالة وهي سيئة ولا تطمئن، لا يجب أن يموت في هذه الثكنة."

أمرَ أحد المتطوعين الواقفين بالخارج قائلاً:" أحضر لي القس."

وكما اختفى المتطوع من مدخل الغرفة، شعر بالضيق المعتاد في حلقه، كان شعوراً يأتيه دائماً في اللحظات القليلة قبل أن يواجه سجينا ما، هل سيغمرهُ الخوف أم سيكون جريئاً؟ هل سوف يقاوم؟

في هذه الحالة لم يتوقع صراعاً، وقال بأنه سوف يجرب الأساليب المعتادة مع القس، سوف يحاول أن يقنعه بأن يتخلى عن أنشطته و يدعه يذهب لبيته.

خامساً

جاء صوت من خارج الزنزانة المظلمة:" يا قس، تعال هنا."

لم يكن لدى القسيس أي فكرة أين يجب أن تكون "هنا"، وكان يجب على الصوت أن يستمر صداه ليجده. كان جالساً القرفصاء وظهره مستندٌ على الجدار الصخري، وحوله نصف السجناء الذين تبولوا عليه، والنصف الآخر مكومين على الأرض القذرة وهم نيام. سمع أولئك الذين قد تبوّلوا

عليه يتبادلون بعض الكلمات، من محادثاتهم المشوّشة، ما فهمه أنهم أدوا عليه نوعاً من الطقوس الشافية. اعتقدوا أن بولهم يساعد بإغلاق الجروح المفتوحة على وجهه وجسده وتسكين آلامِ عظامه المتكسرة تحت جلده.

عندما سمع السجناء الصوت يناديه من خارج الزنزانة، تفرقوا من حوله تاركين للواعظ مجال رؤية مهزوز لظل واحد غامض من خلف القضبان الصدئة.

نادى الصوت نفسه بقية السجناء في الزنزانة:" اجلبوا السجين الجديد لي."

ومرة أخرى شعر القس بالألم الشديد، العديد من الأيادي حاولت جذبه وشده في نفس الوقت وهم يحملونه إلى مقدمة الزنزانة. كان رأسه مايزالُ يدور، ولكن مايزالُ بطريقة ما قادراً على الوقوف متّكئا على يمينه وعلى يساره، وعندما وصل إلى القضبان تعلق بها كي لا يقع، فتركه البقية.

اقتربَ الصّوتُ أكثر من وجه القسيس، وانفجر ضاحكا وهو يقول:" أنت رجل محظوظ. وهذا اليوم هو يومك."

انفتحت القضبان فانزلقت يديه عنها، ثم أمسك به ظل الصوت ودفع به خارجاً نحو الجدار المقابل. لم يتمكن من معرفة عدد الناس ولو تقريباً من حوله في الزنزانة أو في الممر الضيق بين الجدار والزنزانة، كان الظلام دامساً. تلوّى جسده تحت ساقيه حين سقط على الأرض، كانت الرائحة كريهة جداً.

أمره الصوت بأن يقوم ويتبعه في الممرّ، لم يكن يعرف إن كان هو من يتحرك أو كان الجدار الملطخ بالدم وبقع البراز يمشي بهم، قال الصوت مجددا:" أسرع و إلا تركتك هنا."

لم يرد القسيس أن يترك هنا، يجلسُ القرفصاء في برزخ ما بين الحرية والسجن، ما بين الحياة والموت. فكر في زوجته وأخته، وتخيل نفسه يقترب

من أحدهما ويبتعد عن الأخرى. قال لنفسه بأن بإمكان أخته أن تعيش من دونهِ، كانت قوية، وكانت تعرف دائماً كيف تفعل كل شيء بنفسها، كان لديها إيمانها الذي بالرغم من كل شيء بقيت عليه، فهي على عكسه ماتزالُ كاثوليكية.

وأيضاً لديها بيته لتبيعه إن احتاجت المال، فقد بدأت للتو دورة تدريبية في التجميل. وحين تنتهي من الدراسة بإمكانها أن تعمل في التجميل أو أن تفتح صالوناً خاصاً بها.

الشيء الوحيد الذي أقلقه بشأنها هو حالات الصرع التي تنتابها. عندما كانت طفلة، لم يبدو أنها كانت تتقبل أو تفهم أنها مريضة بالصرع، كانت تخترع كل أنواع الأسباب الخيالية التي قد تسبب حالات الصرع هذه، متجاهلة تماماً احتمالية أن يكون مرضاً.

تمنى ألا تختار أخته إنجاب الأطفال، فقد أصابتها أحد نوبات الصرع عندما كانت على الشاطئ تراقب أخيها الصغير، فغرق الطفل. ما الذي يفعله؟ لا يمكنه تشتيت نفسه بهذه الأفكار الآن، ابتعد الصوت عنه أكثر فأكثر، يجب عليه أن يركز أكثرَ، موجهاً كل قوّته نحو ساقيه، مستخدماً الجدار ليدعم وزنه، وتابع سيرهُ.

كان هناك بصيص من نور ينتظره في آخر الممر مصدره غرفة واحده، وهي ما افترض أنها وجهته. كان بإمكانهِ أن يرى أفضل قليلاً الآن، ربما ساعدهُ العلاج بالبول.

العشرات من الأعين كانت تراقبه من خلف القضبان على جانبي الممر، بعض السجناء همسوا له:" بون تشانس."

والبعض الآخر اعتقد أنه محظوظ، كان إما سيطلق سراحه أو يموت وفي كلا الحالتين، سوف يتحرر.

سادساً

أحبت آن المعجزات، وقرأت عنها ما استطاعت، كانت تستمع للإذاعة الدينية وقصص المعجزات اليومية التي تتحدث للمؤمنين. إعادتها للحياة كانت معجزة بحد ذاتها، ولمرة أخرى عادت من عالم الأموات، كان جسدها يتألم مما أصابتها الأرواح، ولكنها الآن رجعت ولم تكن بمفردها. كان بجوارها ملمع الأحذية ليون حاملاً مصباح الكيروسين يتأرجح فوق رأسها، ساعدها بالجلوس على كرسي وسألها إن كانت بخير فأومأت برأسها أي نعم.

قال إنَّ لديه أخباراً سيئة و إنَّ أخيها قد أُعتقل في الكنيسة، بدا و كأن جيشاً كاملاً قد اعتقله و عرف من بعض الناس أنهم أخذوه إلى الثكنة العسكرية.

كانت قد رأت تلك الثكنة سابقاً، مبنى أصفر اللون ويشبه بارجة حربية، كانت في وسط مدينة بورت-أو-برينس. كانوا يسيرون بالقرب منها ذلك الصباح، حين أخذها لتلتحق بالدورة التدريبية، لم تكن المقبرة بعيدة جداً.

قررت بسرعة أن تذهب هناك.

قالت:" عذراً يا ليون، لا أستطيع البقاء هنا."

أعطاها كوباً من الماء، رشت بعضه على وجهها لترطبه وشربت الباقي، وقفت ومشت من أمامه وخرجت من الباب راكضة، تبعها ولكن لم يستطع اللحاق بها، نظرت خلفها ورأته يقف وسط شارع فارغ وبيد حمل المصباح وبالأخرى لوح لها آملا أن تعود. بدا لها وهو واقف هناك يتأملها كملاك حياة وملاك موت في آن، ولكنها استمرت بالركض.

سابعاً

لم يتوقع القسيس أن يدخل غرفة إعدام ليموت بسرعة وينتهي، بل توقع كل أنواع العذاب من أدوات متحركة أو جامدة، مثل كلاب مسعورة أو ثعابين شرهة، صلبان بمسامير، أنهار صخرية ثقيلة لتطحن الجماجم، معاول ثلج، هراوات وساحقات مفاصل، مقاصل أو إبر بمواد سامة.

ولكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة حين دخل إلى مكتب في السجن سعته تسع أقدام في اثنا عشر قدم، ولونه أصفر فاقع. هل أجبر عينيه المتورمتين والنازفتين ليجد نفس الرجل الضخم الذي اعتقله جالساً خلف مكتب كبير وقديم؟

كان المكتب معتماً، هناك لمبة واحدة فقط تتدلى مباشرة فوق رأس الرجل الضخم، وكان مكتوماً و روائح كريهة ، مزيج عجيب من سوائل جسدية ومن التبغ تملأ المكان.

دفع الصوت القسيس نحو المكتب، فسقط الأخير عليه، طلب الرجل الضخم من الصوت أن يحضر كرسياً. ركض للخارج وعاد بكرسي هزاز صغير جداً كأنه مخصص للأطفال، كرسي يشبه ما يسميه الفلاحون بالـ "القيل والقال" لأنه من السهل جداً التقرفص عليه والدردشة. كان واضحاً أن شكل وحجم الكرسي صنع خصيصاً ليجعل القسيس أصغر من الرجل الضخم، والذي كان أضخم من أغلب الناس على كل حال.

قرر القسيس أن يحشر نفسه في ذلك الكرسي الصغير الذي صر وتمايل تحته. أشار الرجل الضخم إلى الصوت بأن يغادر الغرفة، وعلى الفور انصرف الصوت.

وعلى الرغم من أن باب الغرفة الصفراء المهزوز كان مفتوحاً، حجم الغرفة الصغير جعل القسيس يشعر كما لو أنها قد أغلقت بإحكام فجأة.

نهض الرجل الضخم من خلف مكتبه ومشى باتجاه القسيس ثم وقف بجانبه، من تلك الزاوية بدا ضخماً جداً كالجبل.

بدأ الرجل الضخم الكلام بصوت بطيء وأجش:" اسمعني، سوف أقول لك شيئا واحدا. كل ما أريده منك أن تتوقف عما كنت تفعله."

بالنسبة لأذن القسيس المتقرحة، بدا صوت الرجل الضخم عميقاً وبعيداً كما لو أنه كان يتكلم من دلو. شعر القسيس كما لو أنه كان مقيداً إلى الكرسي ولا يستطيع الحركة، بعض الحشرات التي كانت تأكل خشب الكرسي وجدت طريقها إلى جسده من خلال السروال الممزق و القذر، نهشت من ردفه تحديداً، لم يجرؤ على الحركة أو حك نفسه، كان من الواضح أن في ذهن الرجل الضخم لعبة صبيانية يود أن يلعبها مع القسيس. كان يعطيه بصيصا من الأمل ثم يأخذه بعيداً، سوف يتم استجوابه ثم يعاد إلى زنزانته ليعدم أم ليستجوب أكثر وكلاهما على كلّ الأحوالِ سوف يكون أكثر وحشية من طريقة اعتقاله.

اقترب منه الرجل الضخم، مد يده القوية كما لو كان يرغب بمساعدة القسيس بالخروج من الكرسي الصغير. ربما كانت هذه من أشد وسائل التعذيب شراسة يستخدمها الرجل الضخم أن يضعك في وضع غير مريح ثم يمد يده لمساعدتك لتشعر بالامتنان نحوه ولتفكر أنه صديقك لا عدوك.

مال الرجل الضخم عليه، فارتعش القسيس. لم يرغب أن يظهر أنه كان خائفاً، ولكنه كان. كان يعول على موت سريع، وليس موتاً بطيئاً حيث يمر على مراحل معاناة يختفي ثم تتوقف لبعض الثواني ليرتاح قليلاً. لم يكن لديه أي سبب أو أمل بأنهم سيدعونه يعيش، كما أنه لم يتوقع عطف زملائه في الزنزانة. رجال من ألوان وأطياف وطبقات مختلفة ألقوا جميعاً في هذه الظروف القاتلة، مساعدين بعضهم البعض على النجاة. من أجسادهم النحيلة وجروحهم المتقيحة كان بإمكانه أن يخمن المدة التي قضّوها في

السّجن. بعضهم كان في الزنزانة لفترة طويلة جداً، منتظرين متآمرين وحالمين بالحرية. كاد يقسم أن بعضهم نسي العالم الخارجي، تخلوا عنه مقابل الموت. وبالفعل ماتوا قطعة بعد قطعة ويوما بعد يوماً، مختفين كما يختفي اللحم والشحم من على عظامهم. لا يريد أن يموت هكذا، واقفاً في زاوية قذرة من الزنزانة والدود ينخرُ لحمه.

مازال وجه الرجل الضخم يقترب من وجهه، وماتزال يده الضخمة تتمدد لتنتزعه من كرسيه. ولكن لماذا؟ لتأخذه لغرفة التعذيب الحقيقية؟ الغرفة التي طالما تخيلها؟ دفع القسيس جسده للخلف، مبتعداً عن يد الرجل الضخم، اهتز الكرسي بالأسفل منه وانكسرت ساقيه الخشبيتين، فارتطم هو والكرسي على الأرض.

ظلّت يد الرجل الضخم تميل باتجاهه، مازالت تمتد، والآن بدت اليد صديقة أكثر من عدوة، داعية أكثر من منفرة، يحتاج لها كي ينهض من بين حطام الكرسي ومن على الأرض. عندها لاحظ ابتسامة الرجل الضخم، وجهه العملاق انبسط وخديه انتشرتا على الجانبين.

شعر برغبة عارمة بالبكاء، لكنه لا يستطع. لا يستطيع أن يجعل الشيطان يراه باكياً، فدفع يديه خلفه ورفع نفسه بنفسه من على الأرض. تمسك بأحد مسندي الكرسي المكسور، ولمست أصابعه حافتها الحادة الخشنة، أمسك بقطعة الخشب هذه وسدد رميه. أراد أن يضرب الرجل الضخم في عينه ولكن بدلاً من ذلك استقرت على الخد الأيمن.

الصدمة التي اعترت لرجل الضخم من جراء الحركة كانت لصالحة، أعطته فرصة لأن يوغل في الجرح ويوسع الشق لأسفل ذقن الرجل الضخم الذي اختطف قطعة الخشب من يد القسيس ثم جذبه من كتفيه و رمى به على الجدار الخرساني في الغرفة، كان المكان صغيراً جداً ولم يستطع القسيس الهرب أو الحركة، فحص الرجل الضخم وجهه وتحسس الدماء النازفة على

رقبته و الجزء الأمامي من قميصه، سحب سلاحه و أطلق النار.

كان القسيس يعلم أنه بمجرد أن تنفجر الرصاصة من المسدس وتستقر في جسده، فكل شيء سوف ينتهي. ولو عاد للحياة مرة أخرى فسوف يكتب خطبة جميلة عن أحداث في هذا اليوم، كان سوف يقول للجميع كيف أنه رأى الجحيم، بشياطين كثيرة تحكمها، وسوف يخبرهم عن الملائكة، الرجال الملائكة الذين رآهم يحاولون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوه.

استقرت عليه رصاصة، ثم أخرى، وتبعتها ثالثة، كما لو كانت مسامير تدق جسد القسيس على الأرض، وبدأ المصباح الوحيد في الغرفة بالانطفاء.

سمع صوت الرجل الضخم يقول له:" أراهن على أنك نادم ..."

ندم؟ هل كان لديه أي ندم؟ وأي معنى للحياة أو الموت بلا مشاعر ندم؟

ربما كان عليه ألا يلقي تلك الخطب عن الوحش كما كان يحب أن يسميه، ولكن كان واجباً على أحد ما أن يوقظ القطيع من سباتهم، وأن يريهم درب الراحة التي سمح بها دينهم، فلا يجب عليهم أن يرضوا بحياة بائسة بينما هناك جنان تنتظرهم بالأعلى. وربما موته هو نداء النهوض الذي يحتاجونه، ربما يجعل الناس تثور على هذا الذل وتطالب بالعدالة، العدالة لأنفسهم عن طريق طلب العدالة له. وربما لا يكون لموته أي أهمية، وسوف يضاف اسمه لقوائم الشهداء المنسية بمجرد أن يوضعوا في قبورهم.

ما أجملها من خطبة ستكون لو أنه استطاع إلقائها، لكن للأسف لن يستطيع. لن تقوم قيامته، ولن يتحول إلى ملاك ولن تنبت له أجنحة فيحلق في السماء و يتقي الرصاص من فمه، من الآن فصاعداً المعركة سوف تكون من مسؤولية شخص آخر.

وبالرغم من موته المؤكد، فلم يخسر المعركة تماماً، فقد ترك علامة على وجه يحملها معه لبقية حياته. في كل مرة ينظر بها لنفسه في المرآة، سوف يتذكر

هذا اليوم، وسوف يتذكر كلما سأله الناس عن ماذا حدث لوجهه، وسوف يضطر لأن يكذب كذبة من شأنها تأكيد الحقيقة.

ثامناً

لم يكن لدى آن أي فكرة من أين أتتها كل هذه القوة على الركض، سبقت الريح باتجاه الثكنة العسكرية، شعرت كما لو أنها كانت تخترق الليل كنجمة في الفلك، وتخلق مساراً جديداً لليل مع كل منعطف.

ركضت بسرعة حتى أصبحت الأشياء من حولها شيئاً واحداً كبيراً غامضا وضبابيا، بالكاد يعرف كنهه كما لو كان ظلالاً.

غادرت الشارع حيث الكنيسة ودخلت إلى شارع دي ماريكيل، شارع المعجزات، ثم انعطفت على شارع دي إنتيرمنت، أو شارع الدفن، مرت على مبنى الأرشيف الوطني، ثم المدرسة العامة ليسي بيتيون، فالكاتدرائية القديمة.

وحين اقتربت من الثكنة العسكرية، ركض قطيع من الكلاب الشرسة تفترس بقايا قمامة في وسط الشارع. تبعوها لفترة، ثم تفرقوا ليجتمعوا مجدداً حول نفس القمامة.

كانت الشوارع فارغة تماماً، حيث شعرت بأنها الشخص الوحيد على قيد الحياة في المدينة بأكملها، أرعبتها هذه الفكرة لدرجة أنها استمرت بالركض، وسوف تستمر بالركض حتى يتمكن شيء ما على إيقافها.

تاسعاً

هرعت روزالي إلى مكتب الرجل الضخم حاملة مسدساً معها ووقفت

في وضعية الاستعداد. خلفها كان كادراً كبيراً من الضباط، والعسكريين و رجال المليشيا معهم بنادق و مسدسات.

كان الرجل الضخم مايزال منحنياً فوق جثة سجينه الميت يفحص أوردته وشرايينه، وجهه كان مغطى بالدماء وقد التفت أحد ساقيه بالأخرى، فاحتاج إلى مساعدة زملائه للوقوف.

صرخت فيه روزالي ومسدسها موجه إلى رأسه:" ماذا فعلت؟"

قال الرجل الضخم لاهثاً:" هاجمني."

قالت وهي تخفض مسدسها ببطء:" كيف تركت لهذا أن يحدث؟"

كانت مدركة لأهمية تحركاتها، فكل الرجال العسكريين حولها يراقبونها كنملة منتظرين منها إشارة واحدة للتحرك، ولكنها تريثت.

قالت:" قلت لك أطلق سراحه."

عندما نظر إلى الأسفل، إلى حيث جثة القسيس وقد انتشرت يديه وساقيه وبركة من الدماء تكبر من حوله، رغب الرجل الضخم بالتقيؤ. لقد عصى أوامر القصر مرتين الآن، فمن المحتمل جداً أن يقبض عليه وأن يعدم.

خطى بعض الخطوات مبتعداً عن الجثة، متعثراً بأقدام زملائه، سقط في الممر، ووصل إلى ساحة السجن حيث كان السجناء ينتظرون دورهم لأن يستمتعوا بساعة تحت أشعة الشمس يومياً.

تبعته روزالي وقالت:" إلى أين تذهب؟"

مضى في مشيه حتى عبر الساحة بأكملها، تخطى مبنى صغير ثم وجه نفسه في ساحة أخرى مليئة بأعشاب هندباء جافة أمام البوابات الأمامية للثكنة، توقف ليفرغ كل ما في بطنه، ولم يستطع التوقف. كان بمفردهِ أمام البوابات قبل أن تلحق به روزالي وبقية العسكر. حلقوا به.

حين لم يبقَ شيء في معدته لتقيئه، مشت باتجاهه روزالي و قالت:" أنت لست بخير، سوف آخذك للبيت."

قال لها:" سوف أذهب هناك بنفسي."

عندها أشارت روزالي إلى حراس البوابات ليفتحوا الباب. قالت له وهي تربت على ظهره:" سوف تكون بخير، سوف أفكر بطريقة لنشرح كل هذا."

لم يشعر بالاطمئنان، ففي نهاية المطاف كل شخص معنيٌّ بنفسه وسوف تفعل ما في مصلحتها، فسوف تتحمل مسؤولية موت القسيس إن كان الرئيس قد غير رأيه وأشاد بموت القسيس، وسوف تحمله كامل المسؤولية إن بقي الرئيس على رأيه وأنبها على موته.

مشى عبر البوابة الأمامية متخيلاً أنّهم سوف يطلقون عليه النار من الخلف، ولكنه عبر من خلال البوابات حياً.

وبمجرد خروجه للشارع، تحسس وجهه بأصابعه ولمس لحمه الداخلي من خلال الجرح، بشرته كانت تتشقق عنه كقناع مطاطي. مشى على حافة جدار السجن، وواصل السير مبتعداً عن مدى إطلاق النار، ثم وقف في زاوية الشارع حيث تنتهي الثكنة العسكرية وتبدأ الأحياء السكنية. ماذا يفعل الآن؟ أين يذهب؟ عليه أن يذهب إلى مستشفى ولكن هل سوف يكون آمناً هناك؟ شعر برغبة عارمة بالتقيؤ ولكن حتى لو بذل قصارى جهده لإفراغ محتويات بطنه لن يخرج منه شيء.

ثم فجأة ضربه شيء ما، مثل حيوان كبير أعمى يركض بسرعة مئة كم بالساعة. كانت امرأة، يبدو أنها مجنونة، كانت ترتدي قميص نوم حريري أبيض طويل، كان مبللاً بعرقها وملتصقاً بجسدها النحيل، وشعرها القصير كان مجنوناً أيضاً، كل شعرة منه وقفت احتجاجا، وعينيها ملئت بالغضب والارتباك.

بعد أن رطمت جسدها بجسده توقفت أخيراً وهي تتأمل وجها ممزّقاً. تمنى أنها ليست أحد ضحاياه، ليست أحداً ما أصيب بأذى أو أوشك على الموت بسببه، أو شخصاً كان في غربة التعذيب الملاصقة لمكتبه لأنه أراد تعاطفها وشفقتها، أرادها أن تعطف عليه و أن تأخذه لبيتها و أن تضمد جراحه حتى لو كرهته لسبب أو لآخر، أرادها أن تساعده ولذلك قال بسرعة:" تنباري،" من فضلك، وسمعت نفسها تقول نفس الكلمة في نفس الوقت، وتذكرت كيف كانت الأم تقول إنك عندما تتحدثين أنت و شخص آخر نفس الكلمات و في نفس الوقت، فهذا يعني أن لكم نفس المصير، وأنكم سوف تموتون في نفس اليوم.

تمنى أن رجائها الذي امتزج مع رجائه لا يعني أنها سوف تموت في وقت أقرب مما كان من المفترض. من هي على كل حال؟ هل هي أم؟ أم زوجة؟ أم أخت تبحث بقلق عن شخص ما؟ وهل هي نفس المرأة التي تصرخ خارج السجن "جيان" في كل مرة يحضرون سجيناً جديداً، والتي يطلق العسكر الرصاص باتجاهها في كل مرة تصرخ بالاسم؟

شعر بالدوار وانحنى عليها ناسياً حجمه الضخم ووزنه الذي بإمكانه أن يسحقها. فتحت ذراعيها وبطريقة ما تمكنت من التقاطه ومساعدته على الوقوف، ألقت نظرة أقرب إلى وجهه ومدت يده لتمس جرحه بفضول ولكن أيضاً رغبة في شفائه، ثم أمسكت برأسه و شهقت باكية في شعره:" هنا، أحتاج أن أدخل هذا المكان."

قال ببطء:" من يدخل هذا المكان، لا يخرج."

في تلك اللحظة كان مستعداً لفعل أو قول أي شيء ليبقيها معه، وعلى أي حال لم يكن يكذب. إن هي دخلت ذلك المكان في منتصف الليل، فسوف يقطع لها الحراس كل أنواع الوعود الكاذبة ثم سوف يغتصبونها.

قال لها:" بسرعة، لنذهب."

نظرت إلي وجهه مرة أخرى، أزالت بعض الشظايا الكبيرة من الجرح وتبعته.

لم يكن بيته بعيداً، أسرعوا بالمشي، قطعوا ملعب الكرة والمقبرة، تغير وجهها حين عبروا من خلال المقبرة، و قرر أن لا يسألها عن السبب، ولو لم تكن مجنونة بعض الشيء لما ساعدته على الإطلاق.

عاشراً

حين وصل إلى البيت، تعثر بفراشه العاري وسقط نائماً. لم يهمه لو أنه نزف حتى الموت، ولم يهتم بالجرح المتورم على وجهه، كان مرتاحاً جداً لوجودها تراقبه ينام، وربما سوف يكون أكثر راحة لو زحفت إلى جواره ونامت على سريره. وحين يحل الصباح سوف يتخذ القرارات المهمة و اللازمة ولكن الآن كل ما يهم أن ينام نوماً عميقاً لا أمل في الاستيقاظ منه.

الحادي عشرة

توقف جرحه عن النزيف، ولكنه الآن مغطى بطبقات من الدم، وحين تغير لون الدم من الأحمر القاني إلى البني الداكن ثم إلى السواد، كانت هناك تراقبه. شرقت الشمس بلطف فاجأها، كان منظر الشمس تشق السماء بلطف عكس ما شق وجهه، في البداية تحول الضباب الأسود إلى رمادي ثم إلى برتقالي طفيف، وأخيراً تحولت السماء إلى رقة وشفافية الزجاج.

ومن نافذة غرفته المغطاة، شاهدت موكب جنازة في طريقها إلى المقبرة، لم يكن هناك أي ضجة، أي نواح، لا فرقة موسيقية تصاحب حاملي النعش

أو الأسرة التي تمشي خلف النعش. ربما كان هؤلاء الناس المخفين شهقات حزنهم في مناديلهم السوداء من الناس لمعوزين، ولا يستطيعون تحمل تكاليف جنازة بعد الظهر مع فرقة موسيقية وكانوا يشعرون بالخجل لذلك فضلوا دفن أحبابهم في الصباح الباكر حيث معظم الناس لا يزالون نائمين.

حين مرت الجنازة، بحثت في منزله عن شيء تنظف به وجهه الذي أصبح أكبر، كان المنزل خالياً من أي شيء سوى الفراش وبعض قطع الملابس المتناثرة هنا و هناك، بعض مستحضرات التنظيف في الحمام و بعض الملاعق والشوك الصدئة في المطبخ. لم يكن هناك أي شيء تغطي به جرحه، فقررت أن تخرج وتشتري قطعة زنجبيل، علبة عسل صغيرة وبعض النعناع لتصنع له مرهماً.

حين خرجت إلى الشارع بذلت كل ما في وسعها لتتجنب المقبرة، كان هناك بعض الناس في الشارع يجرون بسرعة كما لو أنهم متأخرين عن موعد الأمس، خفضت رأسها وهي تمر بالناس بينما كانوا يحدّقون فيها.

حين وصلت إلى السوق لم يكن هناك سوى القليل من الباعة، اقتربت من أحدهم، كان قزماً نحيلاً برأس كبير وكان الراديو في محله على أعلى صوت مخبراً عن بعض أحداث الليلة السابقة. كان لديه كل ما تحتاج ولكن لم يكن لديها مال، لم يكن لديها أي شيء من الملابس، سوى ثوب النوم الذي يرتديه. قال لها صاحب المحل أنه بإمكانها استدانة هذه الأشياء منه إن هي وعدته بأن تعود بالمال لاحقاً، لم تكن مكلفة على كل حال مرد دولارين فقط.

سألها:" هل تشترينها لشخص مريض؟"

أومأت برأسها.

كان يحلم. أتاه نفس الحلم مرة أخرى، كان صبياً صغيراً في لوغان، وكان هو ووالدته يعملان في الحديقة، كان صباحاً بارداً والشمس تشرق وضباب ذهبي يحيط بهما.

كانت الأرض دافئة ولكن رطبة عندما لمسها، ومفعمةً برائحة قشور الخضار المتحللة، ومع ارتفاع الشمس في السماء كان يسمع الديوك تصيح والكلاب تنبح والعصافير تنادي، و الأجنحة ترفرف، و أبوه يمشي في تجاهه هو وأمه وهو يشاهدهما يعملان في الحديقة قبل أن يتوجه إلى عمله في محل الحدادة.

ولمرة أخرى كان مع والدته لوحدهما في الحديقة، شعرها طويل وسميك أسود متحرراً من الخرقة الداكنة التي كانت غالباً تلفه بها، كان نسيم الصباح يرفعه من على كتفيها وينزله. وحواليهما، كانت البذور التي غرسوها قبل قليل قد تحولت إلى أشجار كبيرة من المانجو والبابايا والأفوكادو، ومن بين الجذور نبتت الأعشاب العطرة والطبية، انحنت والدته للأسفل والتقطت بعضاً من السرخس والنبتة الخجولة. أمسكت بإحدى يديه، ووجهته نحو مجموعة من وريقات النبتة الخجولة المتكومة، حين لمسها بطرف سبابته انطوت على نفسها كما لو كانت لا تريده أن يرى ما بداخلها، أشارت له أمه، التي لم تتحدث في أحلامه، أن ينتظر قليلاً. وكالسحر تحركت الأوراق وانفتحت.

شجعته أمه أن يكررها بضع مرات، لامساً ورقات النبتة الخجولة بسبابته، فتنطوي على نفسها، ثم تنفتح. ثم سلّمته لفائف الأعشاب التي جمعتها و أشارت إليه أن يقبض عليها بحرص.

انقطع حلمه فجأة مع صوت الباب الأمامي وهو ينفتح بقوة ثم ينغلق.

جلس بسرعة ليرى من زاره. مدّ يده باتجاه مسدسه الذي كان على الأرض قريباً من الفراش عند جهة رأسه، لكنه لم يجد مسدسه هناك. ثم فجأة تسارعت إلى ذاكرته أحداث الليلة السابقة: الانتظار، الكنيسة، القسيس، الطلقات النارية، ووجهه الممزق النازف كما لو كان قد مشّطَ بمخالب، وهذه المرأة، هذه هي ذات المرأة التي فتحت و أغلقت باب بيته، هذه المرأة الواقفة هنا بملابس نوم مغطاة بالأوساخ و الدم (هل كان دمه؟) بعينين محمرتين ووجه متشقق من الدموع.

هذه المرأة كانت تحمل بيدها قنينة من العسل، وثلاث قطع من الزنجبيل، ولفائف من النعناع، افترض أنها لصنع علاج لجرح وجهه. هذه المرأة؟ من هي؟

كان يخشى أن يسألها عن اسمها، يخشى أن يتعرف عليه، ربما كان مصاحباً لها سابقاً، أحد النساء اللواتي كان يحضرهن معه للمنزل بعد ليلة سكر لا يرجوا أن يتذكر شيئاً بعدها.

شعر بالارتياح عندما سألته أولاً، وعلى الرغم من أنها كانت تبدو مجنونة و ربما للتو خرجت من تحت قذيفة، كان صوتها متزناً وهادئاً كأحد جداول الماء التي كان يزورها مع أمه في أحلامه.

سألته:" ماذا فعلوا بك؟"

من بين كل الأسئلة التي وجهت إليه، كان هذا السؤال الأكثر تسامحاً. فجأة فُتح له باب، و خُلق له مسار جديد، كان بإمكانه أن يتبعه.

قال:" أصبحت حراً، أخيراً هربت."

وقفت مائلة ولكن تفكيرها كان مستقيماً، وضعت الحاجيات على الأرض بسطتها واحدة تلو الأخرى على الأرض عند حافة السرير.

في يوم ما من أيام المستقبل، سوف يحاول أن يشرح لها وضعه، ولماذا قال

ما قال. كان محقاً من نواحٍ كثيرة، فقد هرب من حياة لا يستطيع العودة لها ولا يرغب في العودة لها.

سوف يخبرها بالحقيقة كاملة في وقت لاحق، بعيدا جداً، بعد أن يخبرها بقصص أخرى أولاً، قصص عن أمه وأبيه والحديقة ولوغان. ما الذي جعله يعتقد أن وقتاً لاحقاً معها سوف يأتي؟ لماذا هو على يقين من أنها لن تخرج و تتركه وحيداً في اللحظة التالية، الساعة التالية، أو اليوم التالي؟ لأنه بدا عليها نفس الذعر الذي كان هو عليه، و لديها نفس الأسرار لتخبرها. وربما هذا السر هو الذي يبكيها دائماً، ربما كان هذا السر هو جواب لكل الأسئلة التي يود أن يسألها: لماذا كانت خارج السجن في ذلك الوقت المتأخر من الليل؟ ومن كانت تنتظر؟

كان واضحاً الآن أنها هنا لأنها شعرت بالحاجة لإنقاذه، لتحميه و تشفيه.

ثالث عشرة

سيصعب عليها شرح كل ما حدث لابنتها أو لأي أحد. لم تكن تفكر بأن هذا الرجل الضخم هو أخوها الذي اختفى في البحر منذ مدة، بأن أصغر طفل في عائلتها انتفخ وعظُم بسبب سنوات من شرب مياه البحر وأكل أعشابه. لم تفكر بأنه بُعث من المقبرة و أن ضخامته كانت بسبب التهامه لأرواح و أبدان الأشباح الأخرى في المقبرة، وبالتأكيد لم تفكر بأنه سوف يساعدها في إيجاد أخيها الآخر، القسيس، الذي اعتقله في الليلة السابقة للقائهم.

ولم تكن تفكر في كل الشهداء أصحاب المعجزات مثل القديسة روز دي ليما التي شقوا وجهها وملئوا جروحه بالفلفل لتتجنب الغرور، أو القديسة فيرونيكا التي مسحوا بلسانها الأرض، أو القديسة سولانج التي قطعوا

رأسها ثم حملوه إلى مذبح الكنيسة. لم تفكر حتى في إمكانية أن يكون هذا الغريب أحد أخوتها أو أخ لعائلة أخرى كان قد ظهر تواً من قبر مختلف عن القبور التي نعرفها. كل هذه الاحتمالات ممكنة وغير ممكنة ولكن الأكيد الحزن الأجوف الذي طال لسنوات وسنوات ولا يمحيه طلب الغفران والتوبة.

بعد دقائق، جاء جاره والذي كان طبيبا لخياطة وجهه، كانت تراقب من زاوية الغرفة حيث قام الطبيب بسحب الخيط الذهبي داخل و خارج جلده. بدا لها كأنه نوع من أنواع التعذيب، نوع تشتهيه لشخص تكرهه جداً، تعذيب مؤلم، ولكنه لم يظهر أي وجع أو ألم. واستجابة لطلب الطبيب من أنه إذا حرك وجهه أو دخن سيجارته خلال عميلة الخياطة فإن وجهه سيلتئم بطريقة مشوهة و سيكون مثل الوحوش، فجمد عن الحركة.

لم تستطع بسهولة أن تتذكر متى كانت أول مرة سمعت بأن أخوها القسيس قد مات. هل كان من راديو البائع أو من ثرثرة الطبيب الاعتيادية لقطع الصمت، لكنها سمعت شيئا مثل:" قسيس من بيل أير يقتل نفسه في الثكنة العسكرية." كانت تعيش تجربة أن تطفو روحها تطفو فوق جسدها، كما هو الحال الآن.

كانت تجلس إلى طاولة المطبخ تأكل قطعة من الكعك حين اتصلت بها ابنتها من لايك-لاند لتسألها:" مانهان، كيف تحبينه؟"

وحين يأتي هذا السؤال بالذات، لم تكن تتوقع أن تفعل ما تفعله الآن، كانت دائماً تتخيل حين تخبر ابنتها بتاريخ أبيها، أن يكونا معاً في رحلة ما بعيدا. تخيلت أنهما وحدهما، هي وابنتها، في رحلة نسائية إلى شاطئ ما أو في رحلة على سفينة بحرية، لكي تكون قريبة من ابنتها ولا تتمكن من الهرب بعيداً.

ولكن هذا ما حدث، وهاهما على بعد آلاف الأميال عن بعضهما، ولا يستطيعان حتى النظر في أعين بعضهما البعض، في محاولة يائسة للشرح بصمت.

وبدلا من الإجابة، ردت عليها بسؤال آخر:" هل أخبرك بنفسه؟"

قالت البنت بصوت بارد وجاف على عكس صوتها المرتجف والرطب بكاءً من قلقها على والدها المختفي في وقت سابق:" نعم."

ومن نبرة صوت ابنتهما شعرت أن الوقت قد فات وأن ابنتهما قد أطلقت الحكم عليهما حتى ولم تسمع القصة كاملة.

وضعت الملعقة بجوار كعكة أُكل نصفها، ومشت إلى سطل قمامة، ورمتها بداخلها. ثم بدأت بنقر أصابعها على سماعة الهاتف وطقطقة لسانها في محاولة لتقليل مدى الصمت الذي يحيط بهما.

سألتها ابنتها:" هل هناك المزيد؟" كانت تخشى من أن يكون المزيد أسوأ مما سمعت.

على العكس من زوجها، لم ولن تعرف كيف تقص قصة كهذه، كيف تفكك وتحلل كل التفاصيل وتحكيها بطريقة مفهومة وعقلانية، وعلى كل حال التفاصيل كثيرة، أكثر مما تريد لابنتها أن تعرفها.

همست بلغتها الإنجليزية الركيكة:" أي شيء قاله لك كان يرغب في قوله منذ فترة طويلة."

في رأسها كانت الكلمات غير مرتبة، كانت تريد أن تقول إن قصتهم معجزة، بالرغم من فضاعتها تبقى معجزة. في نفس اليوم الذي التقت فيه بوالد ابنتها، صرف أغلب المال الذي كان يحتفظ به بين طيات فراشه ليشتري لهم تذاكر على رحلة بان أمريكا المتجهة إلى نيويورك، وأنه لم يقتل أي شخص بعد ذلك اليوم، وحين التقيا صديقا قديما كان يعرفه في الجيش

في المطار عرّف بها أنها زوجته ولم تعارض. تعاونهم كان تعاوناً خيراً كنوع من الصداقة التآمرية بينهم فقط ولم يحتاجوا أحداً سواهم، أصبح حباً، نعم أصبح تعاونهم حباً.

طبعاً ليس الحب الذي تتوقعه ابنتها أو أحد الفتيات في هذا الوقت، أن يحدث مباغته أو زن تنتظره. كان حباً من نوع مختلف، كان تعلقاً متوتراً إلا أنها لم تكن تستطع تخيل حياتها من دونه.

في السنوات الأولى، كان هناك صمت أكثر من الكلام، ولكن عندما ولدت ابنتهم، اضطروا للتحدث معها وعنها، وعندما بدأت ابنتهم في الكلام، أصبحت الأمور بينهم أسهل بكثير، كانت مثل الخطيب على منبر، كانت كملاكهم الطيب.

بعد أن ولدت ابنتها، كانت وزوجها يتحدثان عن أخوها باقتضاب، كان يذكر "آخر سجنائه" الذي علّم وجهه، وكانت هي تتحدث عن " أخي القسيس المشهور"، ولم يحاول أي منهما أن يفكك رموز هذه الكلمات المشفرة، كارهين أن يظهر شخص آخر خارج تعاونهما ويفكك الخطوط المتشابكة لنفس القصة.

كان يؤيد القصة العامة أن القسيس قتل نفسه، وتقبلت قصته أنه فقط قبض عليه وسلمه للسلطات. كانا يكرران نفس الكلام دون تصديق.

ولم يخوضا أبدا في أي ماضٍ أبعد من تلك الليلة التي التقيا فيها، ولم تقرأ أيّ مقالة من المقالات التي كتبت عن موت أخيها، كانت مشغولة جداً بالتركيز على من سوف تكون وماذا تريد أن تصبح.

وفي منتصف كل هذا الذكريات والأفكار لم تنتبه إلى أن ابنتها كانت قد أغلقت سماعة الهاتف، أو ربما انفصل خط الهاتف وهي تسير ذهاباً وإياباً حول المطبخ. كان هناك صوت ميكانيكي غريب على الخط يكرر لها:" حاول

مرة أخرى."

تمنت أن يكون معها أحد الآن، لتقضي معه لحظات الصمت هذه حين تحاول الاتصال مرة أخرى، لم تعد تتقبل هذا الشعور الخاص من وحدة هذا الشعور بأنه يمكنك أن تكون على قيد الحياة أو ميت ولا أحد يعرف. كانت تتمنى لو أنها أغلقت المكالمة بكلمات حنونة لابنتها، شيء مثل:" أنت لي وأنا أحبك." أو ربما سوف تردد بعض العبارات التي تبدو عديمة الفائدة الآن مثل أن الغفران والتكفير ممكنان ومتاحان للجميع.

أو ربما سوف تفكر في بعض الحكايات أو قصص المعجزات البعيدة كل البعد عما كانوا يتحدثون عنه، أن تقول أي شيء لتبقي الحديث بينهما جارياً، ولكن الحقيقة أن ابنتها قد ذهبت بالفعل، أن الحديث قد انقطع خطأً أو قصداً.

لا سبيل للهروب بعد الآن من هذا الشعور الكريه، من هذا البندول المتأرجح بين الندم والغفران، من هذا الخوف أن أهم علاقات حياتها كانت دائماً على وشك القطيعة أو الهجران، وأن أقرب الناس لها دائماً يختفون.

توقفت الأرواح منذ زمن طويل عن الظهور من خلال جسدها عبر نوبات الصرع الغامضة التي تأتيها، ودّعتها هذه الأرواح في الصباحِ الذي أذيع فيه خبر وفاة أخيها على الراديو، أخيها الذي أحرق نفسه في ساحة السجن عند الفجر، ولم يترك خلفه أي شيء أو أثر ولو مجرّد جثّةٍ للدّفن.

النهاية

إدويج دانتيكا

كاسر الندى

عمل حساس و شاعري .دانتيكا أكثر من مجرد ساردة للحكايات. صوتها يشبه سكين دقيق و حاد، و مناسب لنحت التفاصيل الصغيرة.

(مينيابوليس ستار تريبيون)

مضيئة ...هذه قصة عن الجريمة والعقاب بحسب تقاليد العظيم لدوستويفسكي.

(بالتيمور سن)

أداء الأنسة دانتيكا الأروع و الأكثر أقناعاً حتى الآن .كل حكاية من حكايات كاسر الندى تستطيع أن تكون قصة مستقلة جميلة، لكنها تجتمع معاً مثل قطع الأحجية لتعطينا صورة عن التاريخ الرهيب لهذا الرجل و مصير ضحاياه

(نيويورك تايمز)

خاطفة للأنفاس، بذكاء مخيف وحرفية مزدهرة، إستطاعت إيدويج دانتيكا على مدى عشر سنوات أن تصور عذاب الشعب الهاييتي .في كتابها (كاسر الندى) كتبت حقيقة هاييتي، جميعهم، سجناء كانو أو سجانين .

(نيويورك تايمز بوك ريفيو)

في شخصياتها المتنوعة وقوتها الوصفية، صورها وموضوعاتها المرتبطة ارتباطا وثيقًا، فإن (كاسر الندى) عبارة عن قراءة مجزية ومؤثرة وغنية بالأفكار ليس فقط حول هايتي ولكن أيضا حول الحالة الإنسانية.

(سان فرانسيسكو كورنيكلز)

في هذه الحكايات، تواصل ادويج دانتيكا التحدث ببلاغة عن أولئك الذين عندما فقدوا وطنهم الحزين فقدوا أصواتهم.

(بوسطن غلوب)

9 781947 836174

أثر

تصميم الغلاف: هاني صالح